كورماك مكارثي

رواية

الكِبارُ لا وَطَنَ لَهُم

ترجمة

حليم نسيب نصر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

الكِبارُ
لا وَطَنَ لهُمْ

الكِبارُ لا وَطَنَ لهُمْ

رواية

كورْماك مَكارثي

ترجمة

حليم نسيب نصر

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الكبار لا وطن لهم

ISBN: 978-9953-27-916-9
Authorized Translation from the English Language Edition:

No Country For Old Men

الناشر

DAR AL KITAB AL ARABI

دار الكتاب العربي

Verdun St., Byblos Band Bldg.
P.O. Box 11-5769
Beirut 1107 2200 Lebanon

شارع فردان، بناية بنك بيبلوس
ص. ب. 11-5769
بيروت 1107 2200 لبنان

Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178 هاتف
Fax (+961 1) 805478 فاكس
E-mail daralkitab@idm.net.lb بريد إلكتروني

www.dar-alkitab-alarabi.com

www..academiainternational.com

مقدمة الناشر

تأسست **دار الكتاب العربي** سنة 1962، وعنيت منذ نشأتها بإصدار الكتب في مجالات الأدب والتاريخ والتربية والتراث العربي والإسلامي. ثم عنيت لاحقاً بالمؤلفات في العلوم السياسية وإدارة الأعمال والاقتصاد وعلم النفس والعلوم الاجتماعية والتربوية. وقد تجاوز عدد منشوراتها 2400 كتاب، تراوح حجم بعضها من عشرة مجلدات إلى خمسين مجلداً، وبعض منشوراتها مراجع تدرّس في بعض الجامعات العربية. وهي من أعرق دور النشر في العالم العربي.

وقد خطت دار الكتاب العربي خطوات واسعة متطورة لإثراء الحياة الفكرية والثقافية ومتابعة التطورات السياسية والاجتماعية الراهنة، تمثلت بإصدار عدد كبير من الكتب والمؤلفات المتميزة تحقيقاً وترجمة ومراجعة وفهرسة؛ إضافة إلى إيلائها الاهتمام الكبير بالمجالات النوعية في ثقافة اليوم، وفي عصر المعلومات، مثل كتب الأطفال وكتب الثقافة العلمية والتربوية والنفسية العامة والتحسين الذاتي والروايات الأدبية وغيرها من المجالات التي تُذكي روح الإبداع لدى المؤلفين وتدفع بالقارئ العربي إلى آفاق علمية وثقافية رحبة.

يطيب للمؤلف أن يعبّر عن امتنانه لمؤسسة سانتا فه بسبب معايشة طويلة امتدت إلى أربع سنوات من السكن لديها. كما يطيب له توجيه شكر خاص إلى أماندا أوربان.

الكِبارُ
لا وَطَنَ لَهُمْ

I

لقد أرسلتُ شاباً واحداً إلى غرفة الإعدام بالغاز في هانتشفيل. ولم أرسل إلى هناك أحداً قبله ولا بعده. كنت أنا من قام باعتقاله وبالشهادة ضده. وقد ذهبت إلى سجنه وقمت بزيارته مرتين أو ثلاث، بل ثلاث مرات على وجه الدقة. أما الزيارة الثالثة فقد كانت يوم تمّ تنفيذ حكم الإعدام به. لم يكن حضوري إلى هناك يومذاك إلزامياً، لكنني ذهبت. ومن المؤكد أنني لم أكن أريد ذلك. كان الجاني قد أقدم على قتل فتاة في الرابعة عشرة من عمرها. وإنني أستطيع القول الآن إنه لم تكن بي رغبة قوية للقيام بزيارته، عداك عن القيام بحضور تنفيذ حكم الإعدام به، لكنني في كل حال فعلتُ ذلك. قالت الصحف يومها إن للجريمة دوافع غرامية وانفعالية، لكنه كان قد أخبرني أنه لم يكن في الأمر عشق ولا انفعال. لقد قام بمواعدة تلك الفتاة، على الرغم من حداثة سنّها. وكان هو يومها في التاسعة عشرة من عمره. وقد قال لي إنه كان يخطط لقتل شخص ما منذ مدة لا يتذكر مداها. وذكر لي أنه إذا أفلت من السجن فإنه لا بد له من العودة لتكرار جريمته من جديد. كما قال إنه يعرف أنه ذاهب إلى جهنم. سمعت هذا الكلام بأذني، ومن فمه مباشرة. ولم أدرِ ما يمكنني الاستنتاج من كل ذلك. بل من المؤكَد أنني لم أدرِ. لقد دار في خَلَدي أنني لم ألتقِ شخصاً في مثل حاله أبداً، الأمر الذي جعلني إخال أنه يمثّل نوعاً جديداً من البشر مستقلاً بذاته. لقد راقبتهم وهم يقومون بتقييده إلى كرسي الإعدام، ويغلقون عليه الباب خلفهم. وربما يكون بدا عليه بعض التوتر بينما هم يقومون بعمل ذلك، لكن ذلك كان أقصى ما بدا منه. وإني لأعتقد حقاً أنه كان على يقين من أنه سيطأ عتبة جهنم بعد خمس عشرة دقيقة. إني متأكد من اعتقادي هذا. وقد قلّبت هذه الفكرة كثيراً في ذهني. لم يكن هذا الفتى من النوع الذي يصعب التواصل معه. كان يخاطبني بلقب العمدة. لكنني لم أكن أدري بأيّ لقب أخاطبه. ماذا تقول لرجل يعترف أنه لا روح له؟ وما الذي

يدعوك لقول أيّ شيء له؟ لقد أمعنت التفكير في ذلك إلى درجة كبيرة. لكن أمره لم يكن بالشيء المهمّ قياساً على ما سألقاه في المحطات البارزة من وظيفتي.

يقول بعضهم إن العينين هما نافذتان إلى الروح. ولم أر في عيني ذلك الشاب ما يدلّني إلى أيّ شيء يمكن النفاذ إليه من خلالهما، كما لا أعتقد أنني سأصل إلى إجابة حول هذا التساؤل في يومٍ قريب. لكن المؤكّد أنه كان ثمة نظرة أخرى إلى هذا العالم خلف تلك الحدقتين، وهذا هو الاتجاه الذي يمضي فيه هذا السياق. لقد جلبني ذلك إلى خانة في حياتي لم أكن لأفكر في أنني سوف أنتهي إليها. ففي مكان ما، من هذا العالم، ثمة رسول للويل والثبور، وليس لدي رغبة في مواجهته. لكنني أعرف أنه حقيقيٌ وموجود. إذ إني رأيت أعماله تتجسد أمامي. ولقد مشيتُ مرة تحت مجال نظر هاتين العينين. وإني لا أرغب في تكرار تلك التجربة. إنني لن أستجمع شتات نفسي وأقف ثم أمضي قدماً لملاقاته. وليس سبب ذلك أن العمر تقدّم بي فقط - وإني لأرغب لو كان هذا هو السبب. ولا أستطيع القول حتى إن هذا هو ما ترغب أيها القارئ في أن تقوم به. ذلك لأنني على يقين دائم من أنك تفضّل الموت على القيام بهذه المهمة. ولقد كان ذلك على الدوام أمراً صحيحاً. ليس بسبب رغبتك في الظهور بمظهر المجدّ حول ذلك، لكنك في نهاية المطاف تقوم بما تقوم به. فإذا لم تقم به عرف الآخرون بالأمر والتمسوه من ضربات قلبك. وإنني لأعتقد أن المسأله هي أكثر تعلقاً برغبتك في ما سيؤول أمرك إليه. وأعتقد كذلك أن الإنسان سيضع روحه على محكّ المجازفة. ولستُ أرغب في القيام بذلك. وإني الآن أستطيع الجزم بأنني لن أفعل ذلك أبداً.

قام الضابط المعاون بتركِ تشيغور واقفاً في زاوية المكتب وهو مكبّل اليدين إلى خلف ظهره، بينما جلس هو على كرسيّه الدوار، ونزَع قبعته عن رأسه، ووضع قدميه فوق الطاولة، وبدأ الاتصال مع لامَر بواسطة الهاتف الخلوي.

لقد جرى إدخاله إلى داخل باب النظارة منذ قليل. أيها العمدة، إنه يحمل على ظهره شيئاً ما، هو أشبه بقوارير الأوكسيجين التي يحملها مرضى الأمفيزيما (مرض انتفاخ الرئة) على عواتقهم، أو شيء من هذا القبيل. كما أن على عاتقه أنبوباً يمتد في داخل كُمِّه ليتصل بما يشبه مسدس التخدير الذي يُستعمل في المسالخ. نعم سيدي. هذا ما يبدو عليه هذا الجهاز. ويمكنك معاينته ساعة حضورك. نعم سيدي. لقد قمتُ بتغطية هذا الأمر. نعم سيدي.

عندما وقف الضابط ناهضاً عن كرسيّه، أدار علّاقة المفاتيح التي تتدلى من حزامه، وقام بفتح درج مكتبه، وأخرج منه مفاتيح السجن. وكان لا يزال يحني ظهره قليلاً عندما أقعى تشيغور على الأرض ومرَّر يديه المصفَّدتين من تحت مقعدته ثم إلى ما وراء ركبتيه. ثم وأثناء الحركة نفسها، جلس ونخع نفسه إلى الوراء، وقام بتمرير السلسلة تحت قدميه، ثم وقف على الفور دونما إجهاد. لقد بدا الأمر كله كما لو أنه حركة رياضية قام بالتدرُّب عليها مراراً. طرح يديه المصفدتين حول رأس الضابط المعاون، وقفز قفزة في الهواء ثم ضغط ركبتيه فوق مؤخره عنق الضابط المعاون، وجذب السلسلة إلى الخلف. انقلب الاثنان إلى الأرض. وكان الضابط يحاول الوصول بيديه إلى السلسلة، لكنه لم يفلح في ذلك. وبقي تشيغور يجذب السلسلة، بينما ركبتاه بين ذراعيه، ووجهه منحرف

عن متناول يد خصمه. وكان الضابط يرفرف بذراعيه بوحشية، ثم بدأ يمشي مترنحاً فوق أرضية الغرفة في دوائر، مما جعله يتعثر بسلة المهملات ثم يصطدم بالكرسي في وسط الغرفة، ثم تعثّر بالباب متسبباً بإغلاقه، ثم متسبباً أيضاً بالتفاف السجادة حولهما. وكان خلال ذلك يتغرغر وينزف من فمه. لقد كان يختنق بدمه. أمّا تشيغور فقد زاد من شدّة جذبه للسلسلة. وقد شقّت الصفّادتان المطليتان بالنيكل طريقهما في لحم عنق الضابط حتى لامستا العظم. وانفجر الشريان السباتي في عنق الضحية مرسِلاً نافورة من الدم بدأت تنطلق عبر الغرفة لتصيب الجدار وتسيل إلى الأرض. ثم تباطأت رجلا الضابط، وتوقفتا عن الحركة. واضطجع الرجل وهو يرتجف في حركات تشنجيّة. ثم ما لبث أن توقف عن الحركة كلياً. وكان تشيغور يضطجع إلى جانبه وهو يتلمّس مفاتيحه المعلّقة في وسطه، وقام بتحرير يديه، ودسَّ مسدس الضابط في زنّاره ثم توجّه إلى غرفة الحمام.

وهناك، أسال الماء على معصميه حتى توقفا عن النزيف، وقام بتمزيق قِطَعٍ من منشفة الحمّام بأسنانه، حيث استعملها لتضميد معصميه. ثم قفل راجعاً إلى غرفة المكتب. جلس وراء المنضدة وقام بتثبيت قِطَع القماش على معصميه بواسطة شريطٍ لاصقٍ استخرَجه من صندوق إسعافات أوّليه، ثم ألقى نظرة متمعِّنة على الرجل المثلوم المنطرح على الأرض. وعندما انتهى من عمله، استخرج حافظة نقود الرجل من جيبه، واستولى على ما فيها من نقود، وقام بدسّها في جيب قميصه، وطرح المحفظة أرضاً. ثم التقط قارورةَ الهواء، ومسدس التخدير العائدين إليه، ومشى إلى خارج الباب، ثم إلى سيارة الضابط، حيث أشعل المحرك وناوَرَ لتغيير اتجاه السيارة، وانطلق بها متجهاً نحو الطريق العام.

على الطريق الرئيس الذي يصل بين ولايتين، وقع اختياره على سيارة فورد سيدان حديثة الطراز، يقودها سائقها من دون ركاب، فأشعل

أنوار سيارة البوليس التي يقودها، وأطلق العنان للبوق للحظة وجيزة حتى امتثل السائق، وتوقفت السيارة إلى كتف الطريق. توقف تشيغور خلف السيارة، وأطفأ محرك سيارته وخرج منها ملقياً قارورة الهواء بين كتفيه. وكان الرجل يراقب من المرآة الخلفية بينما هو يتقدم نحوه.

قال السائق: ما الأمر أيها الضابط؟

أيها السيد هلّا نزلت من السيارة؟

فتح الرجل باب سيارته وترجَّل منها، وقال: ولكن ما سبب كل هذا؟

هل لي أن أطلب منك الابتعاد عن العربة قليلاً، إذا سمحت؟

ابتعد الرجل بضع خطواتٍ عن السيارة. وصار تشيغور يستطيع أن يتبين الريبة في نظرة الرجل الذي ينظر إلى شكله الملوّث بالدم، لكن ريبة الرجل كانت قد أتت بعد فوات الأوان. ألقى تشيغور كفّه على رأس الرجل كما لو أنه يلقي عليه كفّ معالِج بالإيمان. كان هسيس الكبَّاس الهوائي أشبه بصرير ناشئ عن إغلاق باب. خرَّ الرجل صريعاً على الأرض دون أيّة جلَبة، وكان ثمة ثقب مستدير في جبينه يتدفق منه الدم جارياً فوق عينيه مع منظر العالم المتلاشي الذي كان لا يزال من الممكن رؤيته. مسح تشيغور يده بمنديله، ثم قال: كل ما في الأمر هو أنني أردتُ إبعادكَ عن السيارة حتى لا تلوِّثها بدمكَ.

جلس موْسّ فوق قمة الجبل، بينما كان كَعْبَا حذائه العالي الساق منغرزين في الحصى البركانية، وقام بمسح الصحراء المنبسطة تحته بمنظاره الألماني القويّ. وكانت قبعته متراجعة إلى الوراء، فيما كوعاه مستنِدان إلى ركبتيه. أمّا بندقيته الموزر 98، ذات الماسورة الثقيلة من عيار 0,270 والمكسوَّة بخشب الجوز والقيقب، فقد كانت معلّقة فوق كتفه بحزام من الجلد. وقد رُكِّب على البندقية المذكورة منظار تسديدٍ ترقى قوَّتُه إلى قوَّة المنظار الذي يحمله بين يديه. وكان ظبي على مسافةٍ تقارب ميلاً واحداً من موقِفِه. أمّا الشمس فقد كانت الشمس مقصِّرةً بساعةٍ واحدةٍ عن بلوغ قبّة السماء. لذلك، فقد كان ظلُّ القمَّة والصخور يسقط ممتداً إلى مسافة بعيدة فوق السهل المستنقعي الذي يمتد تحته. وفي مكان ما، من المسافة، كان يمتد ظل موْس نفسه. أَنزل المنظار من يده، وجلس ينعم النظر في طبيعة الأرض. فإلى أقصى الجنوب كانت هنالك سلسلة جبال المكسيك. كما كانت هنالك كاسرات انحدار النهر. أما لجهة الغرب فقد كانت حقول من الطين المشويّ عند منطقة الأراضي الحدودية. بصق بصقة جافة ثم مسح فمه بكتف قميصه القطني الكثيف النسيج.

إن بإمكان البندقية التي يحملها أن تطلق عيارات من نوع الزاوية النصفية، كما من نوع خمسة إنشات، حيث يمكن أن يصل مداها إلى ألف ياردة. أما النقطة التي اختارها مكاناً لإطلاق النار، فتقع تماماً تحت كتلة منحدرة من الركام الصخري المتشكّل من الحمم البركانية المتجمّدة، وهي نقطة تجعله ضمن مجال جيد للرمي. ما عدا أنه لا بد من أن يحتاج إلى ما يقارب ساعة من الوقت للوصول إلى المكان الذي تسرح فيه قطعان الظِّباء وترعى. ولكن أفضل ما يمكنه قوله عن الطقس والمحيط، فهو مسألة هدوء الرياح.

عندما وصل إلى سفح المنحدر، رفع رأسه ببطء ناظراً إلى الظباء. لم يتحرك القطيع كثيراً من المكان الذي كان قد شاهده فيه لآخر مرة. لكن المجال كان لا يزال يقارب السبعمئة ياردة. أمعن النظر في الحيوانات من خلال منظاره، وسط هباءات الهواء المكثَّفة، وتقلّبات الحرارة، والغمامة المنخفضة من الغبار واللقاح المتألق. ولم يكن هنالك أيُّ دريئةٍ أخرى، ولذلك لن يكون من مجالٍ أمامه سوى لإطلاق طلقة واحدة تتفرق بعدها الظباء.

تمدد فوق الحصى وانتزع فردة حذائه وألقاها على حجرٍ، وخفّض ساعد البندقية ملقياً إياه على جلد فردة الحذاء، وحرَّر الزناد بإبهامه، وسدَّد من خلال منظار البندقية.

كانت جميع الظباء تقف رافعة رؤوسها، وأنظارها مصوّبة نحوه.

تبّاً، همس لنفسه. كانت الشمس ما زالت وراءه بحيث إن الظباء لا تستطيع أن ترى جيداً انعكاس النور على زجاج المنظار.

كان للبندقية زناداً من نوع كانجار، وقد قام بجذب البندقية وفردة الحذاء نحوه بكثيرٍ من العناية. وسدّد من جديد إلى الشعيرات المتصالبة التي هي أعلى بقليل من ظهر الحيوان الأكثر قرباً له من بين أفراد القطيع. لقد كان يعرف المحطَّ الدقيق للرصاصة عندما تكون الرماية في مدى المئة ياردة، أكثر أو أقلّ قليلاً. أمّا قِلَّة اليقين فقد كانت شأناً من شؤون الرماية عن مسافة طويلة تتجاوز ذلك. ألقى إصبعه داخل قنطرة الزناد. وقد تدلّى سِنُّ الخنزير البري الذي يعلقه في عنقه بواسطة سلسلة ذهبية، بين الحُصيات الواقعة داخل مدى مرفقه.

وحتى برغم أسطوانة السلاح الثقيلة، وبرغم ركيزة الفوَّهة، فإن البندقية قد اختلجت عن مكانها. وعندما صار ظهر الحيوان بادياً في المنظار فإنه كان لا يزال يستطيع رؤية جميع الحيوانات الأخرى باقية في

وضعها الذي كانت عليه من قبل. ولقد استهلكت المقذوفة الصادرة عن حشوة من عيار مئة وخمسين حوالي الثانية لتصل إلى هدفها، لكن صوتها احتاج إلى ضعف هذا الوقت. كانت الظباء تقف ناظرة إلى عثكول الغبار الذي ثار من المكان الذي اصطدمت به المقذوفة. ثم اندفعت فجأة وبأقصى سرعة، فيما يتبعها صدى صوت الطلقة يدوِّي ويتكسَّر بين الصخور ويتثاءب عبر البطاح المفتوحة في سكون الصباح.

وقف يراقبها وهي تهرب. رفع المنظار إلى عينيه. أحد الحيوانات بدأ يتخلَّف عن القطيع ويتثاقل في جر إحدى قائمتيه الخلفيتين. وقد فسَّر ذلك بأن العيار ربما يكون قد اصطدم بالصخرة، ليرتدَّ بعد ذلك، ويصيب هذا الظبي في الجهة اليسرى من مؤخرته. انحنى وبصق، وقال لنفسة: تباً.

بقي يراقب القطيع حتى اختفى عن أنظاره تماماً خلف المرتفعات الناتئة لجهة الجنوب. أما الغمامة البرتقالية الخفيفية التي كوّنها الغبار المتخلف عن هروب القطيع، فقد تعلقت هي الأخرى لحظة في الفضاء، قبل أن تضمحلّ وتتبدّد تماماً. وقفت سبطانة البندقية الفارغة صامتة تحت الشمس، وكأنما لم يحدث لها شيء أبداً. جلس وانتعل فردة حذائه والتقط البندقية، وأخرج منها الخرطوشة الفارغة، ووضعها في جعبة قميصه، وأقفل مغلاق البندقية، ثم طرحها على كتفه، وانصرف.

استغرق الأمر منه حوالي أربعين دقيقة لاجتياز السهل، ومن هناك اتخذ طريقه صُعُداً على امتداد منحدرٍ بركانيّ، ثم اتَّبع خط القمم متجهاً نحو الجنوب الشرقي إلى مكان مشرف على المنطقة التي اختفى فيها قطيع الظباء. مسح المنطقة بعدسة المنظار بتؤدة. لاحظ وجود كلب ضخم أقطعَ الذيل، أسود، يجتاز تلك الأرض. راقبه. كان ذا رأس ضخم وأذنين مجذوذتين، وكان الكلب يمشي في عرجٍ شديد. لكنه ما لبث أن تباطأ، ثم توقف، ثم التفت وراءه، ثم تابع سيره. أنزل المنظار عن عينيه وبقي يتابع حركة الكلب بالعين المجرّدة وهو يبتعد.

تابع التسلق بمحاذاة الجُرْف، معلقاً إبهامه في حزام تعليق البندقية، ومبقياً قبعته في مؤخرة رأسه. صار ظهر قميصه مبتلًا بالعرق، كانت الصخور هناك مليئة بالكتابات التصويرية المنحوتة عليها. كتابات ربما يعود تاريخها إلى آلاف السنوات. ولا بد من أن الرجال الذين قاموا بحفرها كانوا صيادين مثله. أما عدا عن ذلك، فإن شخصياتهم وآثارهم كلها قد اندثرت.

في نهاية الجرف، كان ثمة منحدر صخري، وكان هنالك شِعْبٌ صعب المسلك يقود إلى الأسفل، وتحفُّ به النواتئ المسنَّنة. جلس بين الصخور مُسنداً مرفقيه إلى ركبتيه، وماسحاً المنطقة بمنظاره. على بُعد ميلٍ واحدٍ منه، وعلى السهل المستنقعي الجاف، كان ثمة ثلاث عربات.

أخفَض المنظار وألقى نظرة عمومية إلى البراري من حوله. ثم رفع المنظار إلى عينيه من جديد. تبيّن له وجود رجال مضطجعين على الأرض. ثبَّت نعليه في حوافّ الصخر، وقام بتحسين تسديد بؤرة النظر في منظاره. تبيّن له أن العربات كانت أربعاً. أربع شاحنات، إما رباعية الدفع، وإما من ماركة برونكوس المزوّدة بعجلات تصلح للسير على الطرقات الترابية الوعرة، بالإضافة إلى الروافع والأرفف الحاملة لمصابيح كشافة عالية. بدا له أن الرجال موتى. أخفض المنظار ثم قام برفعه إلى عينيه من جديد. ثم أخفضه وأراح نظره قليلاً. لم يتحرك أيّ شيء. جلس في مكانه لمدة طويلة يتأمل.

عندما اقترب من الشاحنات كان قد أنزل بندقيته عن كتفه، كان يحملها في مستوى خصره جاعلاً زنبرك الإطلاق محرّراً. توقَّف. قام بدراسة المنطقة من حوله، ثم قام بدراسة الشاحنات. وقد وجد أنها مصابة جميعها بالطلقات. وبعض الثقوب التي أحدثتها الطلقات في الجسم المعدني لبعض العربات بدت متباعدة وعلى خط واحد، الأمر الذي جعله على يقين من أن الأسلحة المستخدمة هي أسلحة أوتوماتية. وكان معظم

زجاج العربات محطماً، وأكثر الإطارات مثقوبة. وقف في مكانه يُصيخ السمع.

في العربة الأولى، كان ثمة رجل قتيل منحنياً فوق عجلة القيادة. وخلفه كان جسدان آخران مضطجعين فوق العشب الأصفر الكئيب. وكانت الدماء الجافّة تتخّذ لها لوناً أسود على الأرض. توقف من جديد وأرهف السمع. لا شيء. ولا صوت سوى طنين الذباب. مشى إلى ما وراء الشاحنة. وجد هناك كلباً ضخماً ميتاً شبيهاً بالكلب الذي كان قد رآه في المنظار يعرج في السهل المستنقعي. كانت رمّة الكلب تشير إلى أنه قد أُطلق عليه الرصاص. ووراء ذلك، كان ثمة جثة ثالثة لرجل ملقى على الأرض على وجهه. نظر من خلال النافذة إلى الرجل الميت وراء المقود. كانت الطلقات قد أصابته في رأسه. وكانت آثار الدماء في كل مكان. مشى إلى العربة الثانية لكنه وجدها فارغة. مشى إلى المكان الذي يضطجع فيه القتيل الثالث. فوجد أن هنالك بندقية رشّاشة ملقاة على العشب. وكان لتلك البندقية سبطانة قصيرة وهي مجهزة بمغلاقٍ مسدس وبمخزن يتسع لعشرين طلقة. لكز حذاء القتيل بطرف حذائه وتابع تفحُّص التلال الخفيضة المجاورة.

وكانت العربة الثالثة من نوع برونكو، ذات نظام التعليق المرتفع، كما كان لها زجاج مضبّب. وصل إليها وفتح الباب المحاذي لمقعد السائق. كان هنالك رجل جالس على المقعد ينظر إليه.

تراجع موْسّ إلى الوراء رافعاً بندقيته. كان وجه الرجل دامياً. حرَّك شفتيه اليابستين وقال: أعطني ماء، أعطني شربة ماء بحق السماء.

كان الرجل يحتضن رشيشاً أوتوماتياً من طراز أتش آند كاي، له حمّالة كتف بلاستيكية سوداء، وهكذا، تقدَّم موْسّ واستولى على الرشيش، ثم تراجع إلى الوراء. قال الرجل: شربة ماء، شربة ماء لوجه الله.

ليس لديّ ماء.

ماء

ترك موْسّ باب السيارة مفتوحاً وعلّق الرشيش في كتفه وتراجع إلى الخلف. تابعه الرجل بنظراته. دار موْسّ حول مقدمة السيارة وقام بفتحها من الجهة الأخرى المقابلة. رفع المزلاج وطوى المقعد إلى الأمام. كانت مساحة التحميل الخلفية مغطاة بقماش مشمّع فضّيّ. قام برفعه. وجد حملاً من الطرود بحجم حجر الطوب (الآجرّ)، وكلٌّ طردٍ منها مغلَّف بغلاف من البلاستيك. أبقى عيناً يقظة على الرجل، ثم أخرج سكينه وأحدث ثلمة في أحد الطرود، انبثق منها مسحوق ذو لون أسمر. بلّل إصبعه وغمسها في المسحوق، ثم قام بشمّ رائحتها. ثم مسح إصبعه ببنطاله الجينز، وأعاد المشمّع إلى وضعه الأول فوق الطرود، ثم تراجع وأعاد التحديق في البيئة المحيطة به. لم يلحظ أيّ شيء. ابتعد عن الشاحنة، ثم وقف واستطلع الأراضي المنبسطة الممتدة إلى الجنوب. أخرج منديله وعاد ليمسح كل شيء كان قد لامسه. مقبض الباب، ومزلاج المقعد، والغطاء المشمّع، والعبوة البلاستيكية. مشى مستديراً إلى الجانب الآخر من العربة وقام بمسح كل شيء هنا أيضاً. حاول أن يتذكر ما هي الأشياء الأخرى التي كان قد قام بملامستها. قفل راجعاً إلى الشاحنة الأولى وفتح الباب مستعملاً منديله، وفحص داخلها. فتح محفظة السيارة، ثم عاد فأقفلها. أنعم النظر في الرجل الميت المتكئ على عجلة القيادة. ترك الباب مفتوحاً ومشى مستديراً نحو الباب الآخر المحاذي لمقعد السائق، وجد أن الباب مليء بالثقوب الناتجة عن اختراق الرصاص له. فحص الزجاج الأمامي فوجد أن طول قطر الرصاصة ضيق. إنه من عيار 6 ملم، ولعله من عيار 4 المخصص لاقتناص الأيائل. فحص نمط الإصابات. فتح باب السائق وضغط على زرّ إنزال الزجاج، لكن التيار كان معلقاً. أقفل الباب ووقف هناك يتفحّص التلال الوطيئة.

تربَّع على الأرض وأنزل البندقية عن كتفه وألقاها على العشب قربه، ثم تناول الرشيش وقام بإرجاع جهازية المغلاق إلى الوراء مستعيناً على ذلك بعقب كفّه. وجد أن هنالك خرطوشة جاهزة في بيت النار، لكن المخزن كان فارغاً إلا من عيارين اثنين فقط. تشمّم الأستون، وقام بتحرير المشط من مكانه، ثم ألقى البندقية على كتف والرشيش على الكتف الآخر وعاد إلى سيارة البرونكو وقام برفع الممشط أمام الرجل كي يراه، وقال له: أين الذخيرة، أين الذخيرة؟

أومأ الرجل برأسه. آن مِيْ بولصا.

هل تحسن اللغة الإنكليزية؟

لم يُجب. لكنه كان يحاول الإيماء بطرف ذقنه. استطاع موْسّ أن يرى المماشط تطلُّ برؤوسها من جيب السترة التي يلبسها الرجل، والمصنوعة من قماش القنّب. دخل إلى السيارة واستولى على المماشط وعاد على أعقابه. كان هنالك روائح للدماء والبراز. وضع واحداً من المخازن المليئة في المزلاج المخصص له في الرشيش، كما وضع المخزنين الباقيين في جيبه. قال الرجل: ماء. أرجوك.

مسح موْسّ بناظريه المنطقة المحيطة بالمكان. وقال للرجل: لقد قلت لك، ليس معي أي ماء.

قال الرجل: لابّيرتا.

نظر موْسّ إليه.

لابيرتا هاي لوبوس (كلمة أسبانية معناها الذئب).

ليس هنالك أي ذئاب.

سي سي. لوبوس، ليونيز (بل هنالك ذئاب وأُسْد)

أغلق موْسّ الباب مستعمِلاً مرفقه.

عاد إلى الشاحنة الأولى ووقف يتأمل الباب المفتوح من ناحية المقعد الموازي لمقعد السائق. لم يجد في الباب أيّة ثقوب، لكنه لاحظ وجود دم على المقعد المحاذي له. وكان مفتاح تشغيل المحرك لا يزال موجوداً في مكانه. وصل إلى المفتاح وأدار المحرك. داس زر تحريك الشباك. أصدر الزجاج صريراً وارتفع في مجراه ببطء. وتبيَّن أن هنالك ثقبين ناتجين عن دخول الرصاص في لوح الزجاج، كما تبيَّن له وجود رذاذٍ من الدماء الجافّة عليه. وقف يفتكر في هذا الأمر. نظر إلى الأرض. وجد آثاراً لبقع دماء امتصها الطين، كما وجد آثار دماء على الأعشاب. نظر في أثر المسلك الجنوبي عبر الفوّهة البركانية الضخمة إلى الطريق التي كانت العربة قد قدِمت منها. إذ لا بد من أن يكون ثمة رجل أخير قد بقي حياً في المكان، وهو لا بد من أن يكون غير ذاك الرجل المتهالك في سيارة البرونكو المتعطش لشربة ماء.

مشى في السهل المستنقعيّ قاطعاً مسافة دائرية كبيرة في تفتيشه عن آثار عجلات العربة فوق العشب الكئيب، وفي ضوء أشعة الشمس. قطع ما يزيد عن مئة قدم في اتجاه الجنوب وهو يفتش عن علامة. التقط خط مسيرة الرجل وتتبعه حتى وصل إلى مكان وجود الدماء على العشب. ثم ما لبث أن عثر على كمية أكبر من الدماء.

قال: إنك لن تستطيع الابتعاد طويلاً، فأنت قد تعتقد أنه يمكنك ذلك. لكنك لن تستطيع.

ترك المسار الذي كان يتتبعه، بشكل كاملٍ ومشى إلى أعلى نهدٍ في الأرض يبدو لعينيه، فتسلقه وهو لا يزال يحمل الرشيش تحت ذراعه بينما هنالك رصاصة في بيت النار. قام بمسح المنطقة الجنوبية. لم يجد شيئاً. وقف يداعب سنّ الخنزير المتدلي فوق قميصه، بأصابعه.

قال: إنك الآن تختبئ في مكانٍ ما، بينما هنالك شخص يقتفي أثرك. إن فرصتك لتراني دون أن تقع في يديّ في مقابل فرصتي في أن أراك

إنما هي فرصة تكاد أن تكون معدومة. أقعى على الأرض، وثبّت مرفقيه فوق ركبتيه، ثم مسح الصخور الموجودة عند رقبة الوادي بمنظاره. ثم جلس الأربعاء وتابع مسح الموقع الطبيعي بطريقة أكثر تؤدة، ثم أنزل المنظار واكتفى بالجلوس. وقال: لا تتسبب بجلب القتل إلى نفسك هنا، لا تفعل ذلك.

استدار واستطلع موقع الشمس. كان موقعها يشير إلى الساعة الحادية عشرة. نحن لا ندري ما إذا كان كل ذلك قد حدث خلال الليلة الماضية. فقد يكون قد جرى منذ ليلتين. بل ربما يكون قد حدث منذ ثلاث ليالٍ.

أو قد يكون حدث بالأمس.

هبّت ريحٌ خفيفة. حسر قبعته قليلاً عن رأسه، وقام بمسح العرق عن جبينه بفوطته، ثم أعاد الفوطة إلى جيب سرواله الجينز. نظر عبر فوّهة البركان إلى خط الصخور الوطيء في المحيط الشرقي.

قال لنفسه: لا يمكن لجريح أن يرتقي تلة، هذا شيء لا يمكن حدوثه.

لقد كان تسلُّقه إلى أعلى النجد منهكاً، وكاد النهار أن ينتصف عندما وصل إلى هناك. وإلى الشمال البعيد، استطاع أن يرى شكل قاطرة جرار زراعي تتحرك عبر المنظر الطبيعي تحت السطوع اللاهب. هذا الجرّار ربما يكون يتحرك على مبعدة عشرة أميال، بل ربما خمسة عشر. إنه على الطريق السريع رقم 9. جلس ومسح تلك المنطقة الجديدة بمنظاره. ثم توقف عن ذلك.

عند قدم المنحدر الصخري، كان ثمة جسم صغير أزرق اللون. قام بمراقبته لمدة طويلة بواسطة المنظار. لكن شيئاً لم يتحرك. تفحّص المنطقة المحيطة بالجسم، ثم زاد في تفحُّصها تدقيقاً، ومضى ما يقارب الساعة قبل أن يقرر النهوض والتحرك نزولاً.

كان الرجل الميت يضطجع على صخرة، بينما يستلقي على العشب بين قدميه مسدس أميريّ أوتوماتي مطليٌّ بالنيكل، من عيار 0.45 ثم ازداد في مراقبته. لقد كان جالساً مرفوع الرأس لكنه لا بد من أن يكون قد انطوى إلى جانبه. وكانت عيناه مفتوحتين. بدا كأنه كان مستغرقاً في التمعُّن بشيء صغير ما، في العشب. وكان ثمة دماء على الأرض، ودماء على الصخرة خلفه. كان لون الدم لا يزال أحمر غامقاً، لكن لا عبرة في ذلك كونه في الظلّ. التقط موْسّ المسدس وضغط على ملقط الأمان بإبهامه وقام بتخفيض الناقر. جلس القرفصاء وحاول مسح الدم عن المقبض مستعملاً ذيل بنطال الرجل، لكن الدم كان شديد التخثُر. وقف ودسَّ المسدس في حزامه عند منتصف ظهره، ثم رفع قبعته إلى الوراء قليلاً ونشَّف العرق عن جبينه بكُمِّ قميصه. استدار ووقف يدرس الموقع الطبيعي. كان هنالك حافظة مستندات جلدية ثقيلة في وضع قائم قرب ركبة الرجل الميت، وقد عرف موْسّ تماماً ماذا يمكن أن يكون في الحقيبة. وصار مرتعباً بطريقة لم يكن قادراً حتى على فهمها.

عندما رفع الحقيبة من مكانها في النهاية، مشى مسافة قصيرة في غير هدى. ثم جلس على العشب. وأنزل البندقية عن كتفه وألقى بها جانباً. جلس مُفرِداً رجليه، وواضعاً الرشيش في حضنه، فيما الحقيبة بين ركبتيه. ثم مدّ يده وقام بحلِّ الرباطين، وحرّر اللسانين النحاسيين ورفع الغطاء وطواه إلى الوراء.

كانت الحقيبة مليئة بأوراق نقدية من فئة المئة دولار. وهي منضّدة في حزمٍ جرى حزْم كلٍّ منها بشريط ورقي يحمل خاتم المصرف، كما يحمل ملاحظة تشير إلى أن كل رزمة تساوي عشرة آلاف دولار. لم يعرف ما هو المجموع الذي قد تبلغ إليه جميع محتويات الحقيبة لكنه كوَّن عن هذا المبلغ فكرة جيدة. مكث في مكانه ينظر إلى النقود ثم أعاد الغطاء إلى مكانه، وأغلقه، وجلس مطرِقاً. كانت حياته بكاملها تجلس هناك

أمامه. حياته كلها، يوماً بعد يوم، وصبحاً بعد مساء، إلى أن ينتهي به العمر. كل هذا العمر يتقلّص الآن إلى حقيبة تحتوي على أربعين باونداً من الورق.

رفع رأسه ونظر عبر حافة المنحدر. هبَّت ريح خفيفة من الشمال.

كان الجو بارداً ومشمساً، أما الساعة فهي الواحدة بعد الظهر. نظر إلى الذي يضطجع ميتاً على العشب. فرآه ينتعل حذاء جيداً من جلد التمساح، امتلأ بالدماء التي بات لونها أسود. رجل انتهت حياته هنا في هذا المكان. وكان هنالك الجبال البعيدة لجهة الشمال. والريح التي تداعب الأعشاب. وكان الهدوء. أكمل إقفال الحقيبة وتثبيت أربطتها، ثم نهض، وعلّق البندقية في كتفه، ثم رفع الحقيبة والمسدس الأوتوماتي، ومشى خلف ظله وانطلق.

بدا له أنه يعرف كيف يعود إلى عربته، كما أنه قلَّب في رأسه فكرة التجوال في الصحراء في الليل. كان هنالك الكثير من أفاعي الموجاف السامّة في تلك المنطقة. فإذا عضّته واحدة منها في هذا المكان أثناء الليل عندها من المحتمل أنه سينضمُّ حينئذٍ إلى أعضاء هذا الفريق من الموتى. وستكون الحقيبة التي يحملها في هذه الحالة، بما تحتوي عليه، من نصيب مالك آخر سواه. أما ما يقابل كلَّ هذه الاعتبارات، فهو مشكلة عبور منطقة مكشوفة في وضح النهار مشياً على الأقدام وهو يحمل سلاحاً أوتوماتياً كاملاً معلقاً على كتفه، كما يحمل حقيبة تحتوي على عدة ملايين من الدولارات. أما خلف كلّ هذه الاعتبارات، فيقف اليقين المرعب بأن شخصاً ما، لا بد له من الحضور للبحث عن هذه النقود. بل ربما سيأتي في طلبها أشخاص عديدون.

فكرّ في العودة لالتقاط البندقية الرشاشة ذات المخزن الأسطواني. فلقد كان شديد الإعجاب بتلك البندقية. حتى إنه فكّر في التخلي عن المسدس الأوتوماتي. لقد كان اقتناء مثله جريمة يعاقب عليها بالسجن.

لكنه لم يتخلّ عن شيء، ولم يعد أيضاً إلى مكان وجود العربات. بل شرع في المشي عبر البراري ماراً خلال الثغرات التي تتخلل سلاسل التلال البركانية، وقاطعاً المنطقة المنبسطة، أو الكثيرة الالتواءات، التي تمتد إلى تلك السلاسل. حتى إذا شارف النهار على نهايته، وصل إلى طريق نقل الماشية التي كان قد جاء منها أثناء الصباح الباكر في عتمة الفجر. ثم، وبعد أن سار مسافة ميلٍ على هذه الطريق كان قد وصل إلى عربته.

فتح باب العربة، وأجلس البندقية على الأرضية، ثم استدار وفتح باب السائق ودفع المزلاج وأزاح المقعد إلى الأمام ورَكَنَ الحقيبة والمسدس الأوتوماتي خلفه. ثم وضع المنظار من عيار 0.45 على المقعد وصعد، وأعاد دفع المقعد إلى الوراء بقدر ما استطاع ذلك، وأدار مفتاح المحرك. ثم خلع قبعته واستوى إلى الوراء، وأراح رأسه إلى الزجاج البارد خلفه وأغمض عينيه.

عندما وصل إلى الطريق السريع خفف سرعته وطبطب بأصابعه على قضبان السياج الحامي من الماشية. ثم خرج إلى الطريق السريع المعبّد بالإسفلت، ثم أنار المصباحين الأماميين. قاد سيارته غرباً في اتجاه ساندرسون، وحافظ على التقيد بالسرعة القصوى خلال كل ميلٍ سلكه من الطريق. توقف عند محطة للتزود بالوقود في الطرف الشرقي من المدينة، وكذلك من أجل شراء السجائر، والحصول على شربة ماء كبيرة، ثم تابع القيادة إلى منطقة ديزيرت آير، إلى أن أوقف السيارة أمام بيته الذي هو عبارة عن عربة مقطورة، حيث قام هناك بإطفاء المحرك. كان البيت مضاءً من الداخل، قال لنفسه: قد تعيش مئة عام، لكنك لن تعيش يوماً آخر مثل هذا اليوم. وحالما نطق بهذه العبارة، بدأ القلق ينتابه.

أخرج مصباحه الكشاف من صندوق العربة، وخرج منها آخذاً معه المسدس الأوتوماتي والحقيبة من وراء مقعده. ثم زحف متسللاً تحت

العربة المقطورة. اضطجع هناك على ظهره على التراب رافعاً بصره إلى الجانب الأسفل لأرضية العربة. أنابيب بلاستيكية رخيصة وخشب معاكس. ورقاع من مواد العزل. دسّ الرشيش من نوع أتش آند كاي في زاوية من الزوايا، وأعاد تسوية طبقة العزل فوقه، ومكث في ضجعته تلك قليلاً، يفكر. ثم زحف عائداً إلى الخارج ومعه الحقيبة. قام بنفض الغبار عن ثيابه وتسلّق درجات بيته ودخل.

كانت مضطجعة على الأريكة تشاهد التلفاز وتشرب زجاجة كوكاكولا، قالت له دون أن ترفع نظرها إليه: إنها الساعة الثالثة.

كان يمكن لي أن أتأخر أكثر من ذلك.

نظرت إليه من خلف الأريكة، ثم عادت إلى متابعة التلفاز من جديد، وقالت: وما الذي لديك في هذه الحقيبة؟

إنها مليئة بالنقود.

ليت الأمر كذلك. إذ سيكون ذلك يوم السعد.

ذهب إلى المطبخ وتناول زجاجة من الجعة من داخل الثلاجة.

قالت: هل لي بالمفاتيح؟

وإلى أين ستذهبين؟

سأذهب لشراء السجائر.

سجائر.

نعم سجائر يا لِلْوين. فإنني أنتظر هنا منذ الصباح.

وما رأيك في السيانيد؟ ألا تعتقدين أنه يناسبنا؟

أعطني المفاتيح ودَعْكَ من الكلام. أريد أن أجلس في الفناء الخارجي الملعون وأدخن.

كرع كرعة من الجعة وقفل عائداً إلى غرفة النوم وهبط على إحدى ركبتيه ودفع الحقيبة تحت السرير. ثم رجع. قال لها: لقد جلبتُ لك بعض السجائر.

أعطني السجائر.

ترك زجاجة الجعة على النَّضَد، ثم خرج وجلب علبتي السجائر والمنظار وعلّق المسدس عيار 0.270 بكتفه وأقفل باب العربة وعاد. ناولها السجائر ورجع إلى غرفة النوم.

نادته: من أين أتيت بالمسدس؟

أتيت به من المكان الذي أتيت به منه.

هل اشتريت هذا الشيء؟

كلا، بل عثرتُ عليه.

جلست على الأريكة. وقالت: لِلْوِين؟

رجع إليها. قال لها: ماذا تقولين؟ توقفي عن التذمر.

ماذا بذلتَ في مقابل هذا الشيء؟

لستِ في حاجة إلى معرفة كل شيء.

كم؟

قلت لكِ، لقد وجدتُه.

كلا إنك لم تفعل قبل ذلك شيئاً مثل هذا.

جلس على الأريكة وأسند قدميه على المنضدة، وأخذ باحتساء كأسه. قال لها: إنه لا يعود لي، إنني لم أشترِ أيَّ مسدس.

الأفضل لك ألاّ تفعل ذلك.

فضّت إحدى علب السجائر واستخرجت سيجارة منها وأشعلتها بواسطة ولّاعة. وقالت: وأين صرفتَ هذا النهار كله؟

ذهبتُ لأشتري لكِ بعض السجائر.

إني لا أريد أن أعرف أين كنت. ولا حتى ماذا كنت تفعل.

تابع ارتشاف كأسه مومئاً بالموافقة: إن هذا يناسبني.

كما أني أعتقد أن من الأفضل للمرء ألا يعرف عنك شيئاً أبداً.

تابعي النّقيق على هذا المنوال وستجدينني آخذكِ إلى السرير وأقوم بضمّك بشدّة.

مجرد تَبَجُّح.

تابعي الثرثرة وستعرفين بنفسك.

هذا ما قالَته لكَ تلك التي كنتَ معها.

أمهليني فقط حتى أنهي احتساء كأسي، وسنرى ما الذي قالته، وما الذي لم تقله.

* * *

عندما استيقظ، كانت الساعة قد بلغت الواحدة وست دقائق بحسب الساعة الرقمية الموجودة على الطاولة المحاذية للسرير. اضطجع هنالك متطلعاً إلى سقف الغرفة. كان ضوء مصباح النيون الآتي من الخارج يغمر غرفة نومهما بوهج أزرق بارد. ضوء أشبه بضوء القمر في فصل الشتاء. أو بنوع آخر من الأقمار. ضوء له طبيعة نجمية غريبة عن كوكبنا من شأنه أن يشعره بالارتياح. كل شيء سوى النوم في العتمة.

سحب قدميه من تحت اللحاف وجلس قاعداً. نظر إلى ظهرها العاري

وإلى شعرها المنسرح فوق الوسادة، مد يده ورفع الغطاء فوق كتفيها ونهض من السرير متجهاً نحو المطبخ.

تناول قارورة ماءٍ من الثلاجة، وفك سدّادتها ووقف هنالك يشرب في ضوء باب الثلاجة. ثم اكتفى بالوقوف هناك حاملاً بيده قارورة الماء التي تنضح عرقاً فوق صفحة الزجاج البارد. وقف ينظر إلى الشباك المطلٍّ على الطريق السريع المضاء بأعمدة النور. وقف هنالك متأملاً لمدة طويلة.

عندما رجع إلى غرفة النوم، قام بالتقاط سرواله القصير من على الأرض بقرب السرير فلبسه وعاد إلى غرفة الحمّام وأقفل الباب وراءه. ثم إنه ما لبث أن ولج إلى غرفة النوم الثانية وسحب الحقيبة من تحت السرير، وقام بفتحها.

جلس على الأرض جاعلاً الحقيبة بين رجليه، وغاص بيديه بين أوراق النقود التي تحتوي عليها فأثارها من مكانها. وجد أن علوَّ الرُّزم يبلغ عشرين رزمة، أعاد الرُّزم إلى مكانها وقام بخضّ الحقيبة من أجل جعل الرزم تستوي في أمكنتها. ضرب عشرين رزمة علوّاً باثنتي عشرة في كل صفٍ أفقي، واستولد الإجابة الرياضية من رأسه. فجاءه الجواب: مليونان وأربعمئة ألف دولار. وهي كلها أوراق كانت في الاستعمال. جلس ينظر إلى هذه النقود، وقال لنفسه: عليك بأخذ هذا الأمر في غاية الجدِّيَّة، فليس لك أن تتعامل معه كأنه مجرد ضربة حظ.

أغلق غطاء الحقيبة، وأعاد تثبيت أحزمتها، ودفع بها تحت السرير، ونهض من مكانه. وقف ناظراً من النافذة إلى النجوم التي تخيّم فوق المنحدرات الصخرية الواقفة في الجهة الشمالية خارج البلدة. كان الصمت مطبقاً. لا يُسمع فيه حتى نباح كلب. لكن النقود لم تكن هي السبب الذي أيقظه من نومه. قال متسائلاً: هل تراكَ متّ أم أنك لا تزال هناك حيّاً؟ لا بحق الجحيم، إنك لست ميتاً.

أستفاقت بينما كان يقوم بارتداء ثيابه، فاستدارت في السرير تراقبه.

لِلْوين؟

نعم.

ما الذي تفعله؟

ألبَس ثيابي.

وإلى أين أنت ذاهب؟

ذاهب إلى خارج البيت.

قلت لك إلى أين أنت ذاهب يا عزيزي؟

هنالك عملٌ ينبغي لي أن أقوم به ثم أعود.

وما هو ذلك العمل الذي تنوي القيام به؟

فتح الدُّرج وتناول المسدس عيار 0.45، وأخرج الرصاصة من بيت النار وفحصها، ثم أعادها إلى مكانها، ثم دسّ المسدس في حزامه. استدار ناظراً إليها.

إني ذاهب لقضاء حاجة في مقر جهنم، لكنني عائد في كل حال. فإذا لم أعد، قولي لأمي إني أحبها.

لكن أمك قد توفيت يا لِلْوين.

حسناً، سأقول لها هذا الكلام بنفسي إذن.

جلست في السرير، وقالت: إنك تثير الرعب في عظامي يا لِلْوين. هل أنت متورّط في أي نوع من المتاعب ضد القانون؟

كلا. عودي إلى النوم.

أعود إلى النوم؟

إنني سوف أعود بعد قليل.

لعنة الله عليك يا لِلْوين.

رجع إليها من الممر، وقال لها: وماذا إذا لم أعد أبداً؟ هل هذه هي كلماتك الأخيرة لي؟

تبعته طيلة الممر إلى المطبخ وهي تشد على وسطها إزار روبها. تناول وعاء فارغاً للماء سعته غالوناً واحداً من تحت المغسلة ووقف يملؤه بالماء من الصنبور.

سألته: أتدري كم هي الساعة الآن؟

نعم أعرف كم هي الساعة.

حبيبي إنني غير راضية عن ذهابك. قل لي إلى أين أنت ذاهب؟ إني لا أريدك أن تذهب.

حسناً حبيبتي، إننا متساويان في هذه الرغبة، فأنا أيضاً لا أتمنى الخروج. سوف أعود. لا تبقي ساهرة في انتظاري.

توقف عند محطة البنزين تحت الأنوار، وأطفأ المحرك، وأخرج الخريطة المساحية من صندوق السيارة وقام ببسطها فوق المقعد وجلس هناك يدرسها. أخيراً وضع إشارة بالقلم على المكان الذي يعتقد أن العربات يجب أن تكون فيه، ثم تتبّع الطريق عبر البراري عائداً إلى بوابة هاركليز لطريق المواشي. كانت شاحنته مزوّدة بأربع عجلات تصلح للسير على جميع أنواع الطرقات، بالإضافة إلى عجلتين احتياطيتين. لكن هذه الطريق كانت على شيء من الوعورة. وقف يتمعن في خط السير الذي رسمه لنفسه. ثم استوى في مقعده دارساً البيئة الطبيعية من محلّه. إلى أن انتهى بعد ذلك إلى رسم خط سير جديد على الخريطة. وعندما أدار المحرّك وتحوّل عن الطريق السريع كانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف صباحاً. وكان الطريق خالياً، وراديو السيارة في تلك

الأراضي القفراء ساكتاً حتى عن التشويش من أول محطة إذاعية حتى آخر محطة.

توقف عند البوابة، ثم خرج من السيارة، وقام بفتحها، وأدخل السيارة من خلالها. ثم خرج من سيارته ثانيةً، ليقفل البوابة من جديد. ثم وقف صامتاً وهو يصيخ السمع. ثم عاد إلى السيارة من جديد وقادها جنوباً على طريق المواشي.

أبقى الشاحنة تعمل بالدفع الأمامي، وقادها مستعملاً غيار السرعة الثانية فقط. وانتشر نور القمر غير الصاعد كثيراً في السماء أمامه فوق التلال المظلمة التي بدت كأنها مرسومة على شاشة خلفية لمسرحٍ. انحرف نحو منطقة أسفل من المكان الذي كان قد أوقف فيه شاحنته صباحاً، ليتحول إلى مكان يبدو كأنه طريق قديم للعربات التي تتجه شرقاً عبر أراضي هاركل. وعندما ارتفع القمر في السماء وبدا بصورته الكبيرة الشاحبة وشكله المعتلّ بحيث بدا نوره غير كافٍ لإنارة جميع تلك التلال والأراضي التي بينها، فإنه قام بإطفاء المصباحين الأماميين للشاحنة.

بعد نصف ساعة من القيادة، أوقف الشاحنة ومشى على طول خط سنام سلسلة من النجود، ثم وقف يراقب المنطقة الممتدة إلى الشرق والجنوب. قمرٌ في السماء يشع على عالم أزرق. وثمة ظلال مرئية للغمام العابر فوق السهل المستنقعي. وبعد أن أسرع في سيره فوق المنحدرات، جلس في منطقة من السهول القشرية واضعاً رجلاً فوق أخرى. لا أثر للذئاب. لا شيء. فبالنسبة إلى مهرّب مخدرات مكسيكي. نعم. إن كلّ شخصٍ يُحسب له حساب.

عندما عاد إلى شاحنته تخلّى عن اقتفاء الأثر في اختيار طريقه، وقادها في اتجاه أوضح الممرات التي تقوده أشعة القمر إليها. عبر تحت رأس بركاني واقع في الطرف العلوي من الوادي، واستدار إلى الجنوب من جديد. فهو لديه ذاكرة جيدة لهذا الريف. فها هو الآن يعبر قطعة من

الأرض كان قد قام باستكشافها من القمة في وقت سابق من الصباح. لذلك، فإنه توقف من جديد وترجّل من الشاحنة وأصغى. وعندما رجع إلى الشاحنة، قام بفك الغطاء البلاستيكي لمصباح سقف الشاحنة. ونزع المصباح ووضعه في منفضة السجائر. جلس يدرس الخريطة من جديد تحت ضوء كشاف يدوي. وعندما توقف عن القيادة لمرة جديدة، فإنه أطفأ المحرك وجلس وراء المقود بعد أن أنزال زجاج النافذة. بقي في جلسته تلك لوقت ليس بقصير.

أوقف الشاحنة على بعد نصف ميل فوق الطرف الأعلى من الفجوة البركانية المنبسطة، وأنزل معه وعاء الماء البلاستيكي، ودس المصباح اليدوي الكشاف في جيب بنطاله الخلفي. ثم أخذ المسدس من عياره 0,45 من على المقعد وأقفل باب الشاحنة خلفه بكل هدوء مستعملاً إبهامه فوق كبسة الإقفال، ثم استدار متجهاً نحو مكان الشاحنات.

كانت كلها على الحال الذي تركها فيه. فجميعها منحنية فوق عجلات مثقوبة. تقدم وهو يرفع مسدسه الجاهز لإطلاق النار، إلى الأمام. لا شيء سوى الصمت المطبق. وربما بسبب أشعة القمر، فإن ظله كان يشكّل رفيقاً له. رفيقه الوحيد الذي لم يكن يرغب في بروز صحبته إلى هذه الدرجة. شعور قبيح هو الشعور الذي راوده في ذلك المكان. شعور المتجاوز المعتدي بين الأموات. قالت نفسه لنفسه: لا تعامليني معاملة مسحورة غريبة، فأنا لم أمت بعد. لستِ واحدة من هؤلاء الأموات، على الأقلّ، ليس بعد.

كان باب سيارة البرونكو مفتوحاً. وعندما رأى ذلك جثا على ركبتيه. وضع وعاء الماء على الأرض. قال لنفسه: أنت أيها الحمار الأحمق، ها أنت هنا، لأنك أغبى من أن تستحق البقاء حياً.

استدار ببطءٍ مستكشفاً فضاء الفلاة، لكن الصوت الوحيد الذي سمعه إنما كان هو خفقان قلبه. اتخذ طريقه نحو شاحنة البرونكو

وانحنى قرب بابها المفتوح فلاحظ أن الرجل الذي كان خلف المقعد قد سقط الآن إلى جانبه فوق لوحة المفاتيح. إلا أنه كان لا يزال مقيداً بحزام الأمان. وكان الدم الطازج يسيح منه في كل مكان. استخرج موْسّ المصباح اليدوي الكشاف من جيبه وغطّى زجاجة المصباح بباطن كفه وقام بإنارته. لاحظ أن النار قد أُطلقت على رأس الرجل. لا التواءات، ولا تشوهات في الوجه. وجّه الضوء المحجوز نحو مكان الحمولة داخل العربة خلف المقاعد، فوجد أن كل شيء قد أُخذ منه. أطفأ المصباح ووقف. ابتعد ماشياً في بطءٍ إلى المكان الذي تستلقي فيه الجثث الأخرى. فلاحظ أن البندقية الرشاشة قد اختفت أيضاً. وكان القمر قد ارتفع إلى ربع مجاله في قبة السماء. صار ضوؤه الآن أشبه بضوء النهار. شعر كأنه فأر مجحور في وعاء.

كان في منتصف طريقه إلى الفوّهة البركانية المنبسطة التي أوقف شاحنته خلفها عندما جعله شيء ما يتجمد في مكانه. انحنى وهو يحمل المسدس المجهّز بين ركبتيه. كان باستطاعته مشاهدة شاحنته في أعلى المرتفع تحت أشعة القمر. نظرِ إلى أحد جانبي الشاحنة ممعناً النظر بشكل أفضل. كان هنالك بعض الأشخاص يقفون إلى جانب الشاحنة. ثم ما لبثوا أن انصرفوا. قال مخاطباً نفسه: ليس هنالك من صفة يتصف الأحمق بها إلا وتنطبق عليكَ. أمّا الآن، فإنك ميّت لا محالة.

وضع المسدس في حزامه وشرع يهرول إلى قمة التلة البركانية وعبر المسافة، سمع صوت هدير محرك شاحنة تنطلق، بزغت أنوار الشاحنة عند قمة المرتفع، بدأ هو بالهرب.

في الوقت الذي وصل فيه إلى الصخور، كانت الشاحنة قد قطعت نصف المسافة إلى الفوهة البركانية المنبسطة فيما أنوارها تجوس فوق الأرض الوعرة. فتش عن شيء يتخفّى وراءه. لم يبق لديه متسع من الوقت. اضطجع جاعلاً وجهه نحو الأرض بين ساعديه في العشب وانتظر.

إمّا أن يروه أو لا، فإنه انتظر على كل حال. ومرت الشاحنة قربه. وعندما ابتعدت نهض وبدأ يتسلق المنحدر.

عندما صار في منتصف المسافة صُعُداً، وقف يستنشق الهواء ويحاول الإصغاء. كانت الأنوار قد صارت في مكان ما، تحته. لم يستطع رؤيتهم، تابع التسلق. وبعد برهة صار بإمكانه أن يميز الأشكال السوداء للعربات في الأسفل. ثم عادت الشاحنة إلى الفوّهة البركانية المنبسطة فيما أنوارها مطفأة.

اضطجع متمدداً ومتدارياً بالصخور. كان ثمة ضوء كشّاف يتنقّل فوق الحمم البركانية الباردة من جديد. أبطأت الشاحنة، فاستطاع أن يسمع هدير محركها الهادئ وصوت كبّاساته الرتيب. محرّك من الحجم الكبير. طاف الضوء الكشاف فوق الصخور من جديد. قال لنفسه: إن كل شيء يقع في موقعه السليم، فقد حان الوقت لوضع حدٍّ لحياتك القاسية، وسيكون في ذلك ما هو خير للجميع.

تحرّكت دورة المحرّك قليلاً لتعود إلى التراخي من جديد. كان هنالك نغمة غرغرة عميقة تخرج من الأنبوب العادم. صوت يشبه صوت الحاصدة، وصوت نقلة الكامة، والله أعلم ماذا يشبه أيضاً غير ذلك. ولكن بعد قليل، تابعت الشاحنة سيرها في الظلام.

عندما وصل إلى سنام السلسلة، ربض أرضاً واستخرج المسدس من حزامه، وأزاله عن وضعية الإغلاق وأعاده إلى موضعه في حزامه، ونظر إلى الشمال والشرق. لم يعد يجد أيَّ إشارة إلى وجود الشاحنة.

قال لنفسه: كيف يمكنك بعد الآن أن تستعمل شاحنتك وأن تتجاوز الأمر الذي حصل؟ ثم إنه ما لبث أن أيقن أنه لن يرى شاحنته بعد الآن. قال: حسناً، سوف تكون هنالك أشياء كثيرة غير ذلك، لن تستطيع أن تراها ثانية.

عاد الضوء الكاشف من جديد عند رأس الفجوة البركانية المسطحة

وبقي يتحرك عبر حافة الجرف. اضطجع موْسّ على بطنه مراقباً. ثم عادت الفكرة إلى رأسه من جديد.

إذا كنتَ تعرف أن أحداً على بُعد بضع خطوات منك، وهو يضع يده على مليوني دولار من أموالك، فعند أيّ نقطة يمكنك إخلاء أمره من رأسك، والتوقف عن البحث عن أموالك الضائعة؟

هذا صحيح. سوف لن تكون هنالك نقطة تخلٌ عن البحث.

بقي مضطجعاً مصغياً. ها هو لم يعد يستطيع سماع هدير الشاحنة. بعد برهة، نهض واتخذ طريقه نزولاً إلى الجانب القصيّ من القمّة. هناك توقف لدراسة المحيط الطبيعي من حوله. كان السهل المستنقعي الواسع غارقاً في الهدوء، وفي ضوء القمر. لم يكن هنالك من سبيل لعبور هذا السهل، كما أنه لم يكن هنالك بدٌّ من عبوره: حسناً أيها الفالح، قل لي ما هي مخططاتك الآن؟

إن الساعة الآن تقارب الرابعة فجراً. هل تدري أين يمكن أن يكون صديقك الأثير كامناً لك؟

ماذا أقول لك؟ لمَ لا تركب شاحنتك وتذهب إلى هنالك لتعطي ابن العاهرة شربة ماء؟

صار القمر عالياً وصغيراً. أبقى نظره على السهل تحته. وهبط شيئاً فشيئاً على طول المنحدر. قال لنفسه: كم هي درجة حماسك الآن؟

إنك متحمس إلى حدٍّ ملعون.

من الأفضل لك أن تفقد الحماس.

كان يستطيع سماع صوت الشاحنة. لقد قامت بالالتفاف من وراء رأس الأراضي الخلفية المحيطة بالقمة وهي مطفأة الانوار، وباشرت الانحدار نحو حافة السهل المستنقعي، تحت ضوء القمر. زاد من تسطيح

نفسه فوق الحصى. وبالإضافة إلى كل هذه المفاجآت غير السارة، فإن ذهنه ذهب أيضاً للتفكير في وجود العقارب والأفاعي من نوع أم جرس. بقي الضوء الكشاف يغدو جيئة وذهاباً على وجه سلسلة التلال بطريقة منهجية، مضيئة، مكّوكية، معتمة، مهدّدة. لكنه لم يتحرك أبداً.

عبرت الشاحنة إلى الجانب الآخر ثم عادت. بقيت تسير مستعملة غيار سرعتها الثاني فيما محركها يتوانى. دفع نفسه قليلاً إلى الأمام بحيث صار يمكنه رؤيتها بشكل أفضل. استمر الدم ينزف إلى عينه بسبب جرح أصابه في جبهته. وهو لا يدري حتى متى وكيف أصابه هذا الجرح. عرَك عينه بعقِب كفه وقام بمسح كفه في قماش بنطاله الجينز. استخرج منديله ومسح به جبهته.

إن بإمكانك الاتجاه جنوباً نحو النهر.

بلى، إنك تستطيع ذلك.

فهنالك درجة أقلّ من الأراضي المكشوفة.

لكن كلمة أقلّ لا تعني انعدام وجود الأراضي المكشوفة.

استدار وهو ما يزال يرفع المنديل إلى جبهته. لا يبدو أن هنالك غيوماً عابرة في السماء يمكن أن تحجب عنه ضوء القمر.

عليك أن تكون قد وصلت إلى مكان ما، قبل بزوغ ضوء النهار. فأن تكون في سريرك في البيت يمكن أن يكون أمراً جيداً.

بدأ يدرس السهل المستنقعي الأزرق الممتد أمامه في صمت. أرض منبسطة تتخللها بعض الكثبان الساكنة. انتظر. خيّل إليه أنه كان قد خبِر مثل هذا الشعور من قبل. خبِره في بلدٍ آخر. ولم يكن قطّ قد دار في خلده أنه سيصادف مثل هذا الشعور مرة أخرى.

دام انتظاره وقتاً طويلاً. لكن الشاحنة لم تعد مرة أخرى. اتخذ

طريقه جنوباً على محاذاة خط القمة. وقف وأصاخ السمع. ما من أثر لوجود ذئب ولا غير ذلك.

عندما أتمّ انحداره إلى السهل الذي يحفُّ بالنهر، كانت السماء قد أرسلت أولى إرهاصات النور الخافتة إلى الأرض. وهذه اللحظة، كانت هي آخر أشدِّ ما يمكنه أن يتوقعه من ظلمة في نهاية هذا الليل. وكان السهل النهريّ يمتد حتى الصخور المحدِّدة لمجرى النهر. هنا أصغى إصغاءة أخيرة قبل أن يجري قاطعاً عرض ذلك السهل عدواً.

كانت المسافة التي عليه قطعُها مسافة لا يستهان بها. وعندما تبقّى بينه وبين حافة النهر مسافة تقارب المئتي ياردة، سمع صوت هدير الشاحنة من جديد. كان هنالك ضوء أغبش ينتشر فوق التلال. وعندما نظر خلفه استطاع أن يرى الغبار المرتفع نحو خط الأفق الذي صار قادراً الآن على تبيُّنه. وكانت الشاحنة ما تزال على مَبعَدة ما يقارب الميل. وفي هدأة الفجر، بدا صوت هديرها أقلّ تهديداً وأذىً من صوت هدير قارب في بحيرة. ثم سمع صوت تحوُّل ناقل السرعة إلى غِيارٍ سريع. سحب مسدسه من حزامه خوفاً عليه من أن يفقده، وشرع في الجري بأقصى استطاعته.

عندما ألقى نظرة جديدة، كان قد انتهى من قطع معظم المسافة. كانت لا تزال تفصله عن الضفة سوى مسافة مئة ياردة، وكان لا يدري ما الذي سوف يجده هناك عندما يبلغ حافة النهر. فالنهر يمرُّ في تلك النقطة في خانق صخري شاهق الارتفاع. كانت أولى طلائع الضوء الطويلة المشرقة تنحصر في فتحة بين جبلين لجهة الشرق، لتنسكب من خلالها إلى الأرض الممتدة أمامه. كانت الشاحنة الآن مشعّة بالأنوار المثبتة على السطح، والأرفف، والمصدّات. وبقي المحرك يسارع في هديره، كلما طوت العجلات أرضاً جديدة.

قال لنفسه: لن يقوموا بإطلاق النار عليكَ، فإنهم لا يملكون أن

يفعلوا ذلك. إلا أن صوت قرقعة بندقية رشاشة ردد السهل صداه. وعندما سمع هسيساً فوق رأسه، فإنه أيقن أن العيار الناري يمر فوقه ويختفي لجهة النهر. نظر وراءه فرأى رجلاً يقف رافعاً رأسه من خلال فتحة سقف سيارة الشحن. يد تتمسك بسقف العربة، والأخرى ترفع بندقية رشاشة إلى الأعلى.

أما المكان الذي وصل إليه من النهر فقد شكّل منحدراً عريضاً لرافد نهريّ اكتسى جانباه بأغال من القصب. وعند نقطة مصبّه، كان الرافد ينسكب في مياه النهر، من شاهق صخري، قبل أن يكمل النهر مجراه في اتجاه الجنوب. كانت العتمة لا تزال غامقة داخل مجرى الرافد. فالمياه غامقة اللون. دفع نفسه في داخل ثغرة في جدار القصب، فسقط وتقلّب ورفع نفسه من جديد واتخذ طريقه نزولاً على سنام تلة رملية طويلة ممتدة نحو مجرى النهر. ولم يقطع مسافة عشرين قدماً حتى أتاه اليقين أن لا وقت لديه لفِعل ذلك. نظر نظرة أخيرة من خلف ظهره إلى الحافّة، ثم ربض في أرضه، ودحرج نفسه نزولاً على المنحدر فيما هو يرفع المسدس أمامه بكلتا يديه.

بقي يتدحرج وينزلق بطرق مختلفة، وعيناه شبه مغلقتين تحاشياً للغبار والرمال التي كان يثيرها، والمسدس لاصق بصدره. ثم توقف كل ذلك، وإذا به يتدهور بكل بساطة فيما عيناه مفتوحتان، وكان عالم الصباح البازغ فوقه يدور ويدور ببطء.

اصطدم بمصطبة من الحصى وأنَّ أنّة أليمة، ثم إذا به يتدهور من جديد خلال ما يشبه نوعاً من الحشائش الخشنة إلى أن توقف تعثره، فاضطجع هنالك على بطنه لاهثاً لالتقاط أنفاسه.

ضاع منه المسدس. عاد إلى الزحف على العشب المحدول مفتشاً عن المسدس حتى عثر عليه فالتقطه واستدار نحو حافة كواسر مجرى النهر المرتفعة فوقه. قام بتمرير ماسورة المسدس فوق ساعده مستعيناً بها من

أجل إزالة التراب الذي علِق به. أما فمه فكان قد صار فيه كمٌّ من التراب. وقد ساعدته عيناه على رؤية رجلين يظهران له أمام خلفية السماء، لذلك فإنه قام بتلقيم المسدس وأطلق النار نحوهما إلى أن اختفيا من جديد.

عرف أن لا وقت لديه للزحف نحو مجرى النهر. لهذا، فإنه نهض من مكانه وفرّ نجاة بحياته وهو يخوض عبر مسطحات الحصى المسنّنة، ثم على طول شريط رمليٍّ، إلى أن انتهى به الأمر إلى المجرى الرئيس. أخذ مفاتيحه ومحفظة نقوده ووضعها داخل جيب قميصه، وقام بتزرير هذا الجيب. كانت الرياح الباردة التي تهبُّ فوق سطح الماء تحمل رائحة الحديد. وكان مذاقها واضحاً في فمه. تخلّص من المصباح اليدوي الكشاف وأخفض مطرقة ناقر المسدس ودسّه في منشَعب سرواله الجينز. ثم نزع فردتي حذائه من قدميه، وقام بتعليقهما في حزامه، واحدة من كل جانب، وشدّ عليهما الحزام، واستدار وبدأ يغوص بقدميه الحافيتين في حوض النهر.

كادت برودة المياه أن تسكت أنفاسه. استدار ناظراً إلى الوراء في اتجاه حافة النهر وهو يلهث ويجذّف بيديه نحو الوراء خلال المياه الزرقاء الضاربة إلى اللون الرمادي. لم يلحظ وجود شيء، فاستدار من جديد ومضى يسبح.

ساقه التيار إلى التواءٍ في مجرى النهر، ودفعه بقوة في اتجاه الصخور. رفع نفسه عن الماء، فوجد أن الجرف العالي الذي بات يظلله مرتفع ومعتم وعميق التجويف، بينما كان الماء تحت هذه المظلة أسود قارساً. وعندما تمكّن أخيراً من الوصول إلى المياه الضحلة عند الطرف، نظر متحرياً عن الشاحنة فرأى أنها مركونة عند أعلى الجرف، لكنه لم يتمكن من رؤية أحد من الاشخاص. تفحّص حاله ليتأكد من أنه لا يزال يحتفظ بفردتي حذائه وبمسدسه، ثم استدار وبدأ بالسباحة نحو الضفة الأخرى البعيدة.

في الوقت الذي استطاع فيه أن يسحب نفسه إلى خارج مياه النهر،

كان قد ابتعد زهاء ميلٍ واحدٍ عن المكان الذي غطس فيه أولاً. لقد ذهبت المياه بجوربيه. شرع في الهرولة في اتجاه دغلٍ من الخيزران، وجد هنالك كؤوساً مستديرة في الصخرة المظلّلة حيث كان الأقدمون يطحنون وجبات طعامهم. وعندما التفت وراءه ثانية، وجد أن الشاحنة قد انصرفت. كما شاهد رجلين يهرولان على طول الجرف العالي. بدا شكلهما بارزاً أمام خلفية السماء. وكان على وشك الوصول إلى دغل القصب عندما أزّت رصاصة بالقرب منه كان لها دويٌّ رجَّعت صداه الضفة الأخرى من النهر.

أصيب في أعلى ذراعه بحبة خردق مخصصة لصيد الأيائل، وكانت الإصابة تسبِّب له ألماً أشبه بلسع زنبور. وضع يده على جرحه وغاص في داخل دغل القصب، فيما بقيت المقذوفة الرصاصية نصف مدفونة في لحم مؤخرة ذراعه. وكانت ساقه اليمنى تخونه وتنوء تحته بينما هو يلاقي صعوبة في التنفس.

وفي عمق الأجمة، نزل على ركبتيه وركع هناك يستجمع أنفاسه ويستنشق الهواء. فكّ حزامه، وسمح لفردتي حذائه بالسقوط إلى الرمل، ومدّ يده داخل سراويله واستخرج المسدس وألقاه إلى جانبه، ثم تحسّس ظهر ذراعه المصاب، حيث كانت المقذوفة قد أصابته. فك أزرار قميصه، وخلعه عنه، وأدار ذراعه كي يتمكن من رؤية موضع الإصابة. كان الجرح يأخذ مجرّد شكل المقذوفة، وكان ينزف قليلاً، وقد حُشيت الفجوة ببعض خيوط قماش القميص. صارت مؤخرة ذراعه الآن كلها متورمة وزرقاء. اعتصر الماء عن قميصه، وقام بارتدائه من جديد مزرّراً عُراه، ثم انتعل فردتي حذائه ووقف، وثبَّت عرى الحزام. التقط المسدس، وسحب الاقسام، وأخرج الرصاصة من بيت النار، ونزع المخزن، ونفخ في السبطانة، وأعاد تركيب السلاح. لم يعُد الآن متاكداً ما إذا كان المسدس لا يزال صالحاً لإطلاق النار، لكنه أعتقد أن ذلك قد يكون ممكناً.

وعندما خرج من أجمة القصب من الجانب القصيّ منها، توقف

ونظر وراءه، لكنه وجد أن علوَّ الدغل يتجاوز ثلاثين قدماً، لذلك فإنه لم يستطع أن يرى أيَّ شيء. وفي أسفل النهر، كان ثمة منبسط مرتفع من الأرض، وكان فيه غابة مجتمعة من شجر القطن. ولدى وصوله إلى المكان، كانت قدماه قد بدأتا بالتنفُّط والتقرُّح بسبب المشي حافياً، كما من المشي دون جوارب في حذاء مبلّل. وكان ذراعه متورّماً ونابضاً بالألم، لكن النزيف كان فيما يبدو قد توقف. مشى إلى خارج الدغل التماساً لدفء الشمس، متوقفاً فوق شريط من الأرض الحصباء. جلس هناك، وقام بخلع حذائه وتفحُّص البثور الحمراء في عقبِي قدميه. لكنه حالما جلس، فإن رجله بدأت تؤلمه من جديد.

فكَّ القراب الجلدي الصغير عن حزامه، واستخرج سكينه، ووقف وخلع قميصه من جديد. قام بقطع كمَّي القميص من مستوى المرفق، ثم جلس وقام بلفِّ قدميه بهما. ثم انتعل الحذاء من جديد. أرجع القراب الجلدي إلى مكانه، معيداً السكين إليه، ثم التقط مسدسه وأنصت. طائر أسود أحمر الجناحين. طائر شحرور مغرِّدٍ هذا كل ما في الأمر. ولا شيء سوى ذلك.

وعندما استدار للانصراف، سمع صوت الشاحنة وقد صار خافتاً بعيداً يأتي من الجهة البعيدة من النهر. حاول رؤية الشاحنة لكنها لم تعد في مجال النظر. خيِّل إليه أنه بحلول هذا الوقت سيكون الرجلان قد عبرا النهر، وصارا في مكانٍ ما، وراءه.

تسلل بين الأشجار. كانت جذوع الأشجار مغمورة بغرين النهر الباقي من آثار أيام الفيضان، وكانت جذورها متشابكة حول الصخور وبينها. خلع نعليه من جديد ليحاول العبور فوق الحصباء دون أن يترك أيِّ آثار يمكن اقتفاؤها، وقام بتسلُّق سنام صخريٍّ طويل في الجهة الجنوبية من رافد النهر فيما هو يحمل فردتي حذائه، وكميّ قميصه، ومسدسه، وفي نفس الوقت كانت عيناه تجول فوق تضاريس الأرض

السفلية. لقد كانت الشمس مطلّة على ذلك الفجِّ، ولا بدّ للصخور التي يدوس عليها من أن تجفّ في بضع دقائق. توقف على منبسط من الأرض قريب من الضفة، واضطجع على بطنه جاعلاً نعليه فوق العشب بالقرب منه. كان لا يبعد عن القمة سوى مسافة عشر دقائق فقط، لكنه لم يكن يظنّ أن بإمكانه المتابعة لمدة عشر دقائق أخرى. وعلى الجانب البعيد المقابل من النهر انطلق باشق من وكرٍ في الجرف الصخري الشاهق باسطاً جناحيه ومطلقاً صوتاً رفيعاً صارفاً. انتظر، ولكن بعد لحظات خرج رجل من دغل القصب في أعلى النهر فبهت في مكانه قليلاً وتوقف. كان يحمل بين يديه بندقية آلية. وبعد هنيهة، ما لبث رجل آخر أن خرج من الدغل نفسه. نظر كلٌّ منهما نظرة نحو الآخر، ثم تابعا البحث.

مرّ الرجلان من تحته، وكان يراقبهما من مكانه الذي لا يقع تحت مجال أنظارهما. ولم يكن في حقيقة الأمر يفكر بهما. كان يفكر في أمر شاحنته. إذ عندما تُفتح أبواب مبنى السرايا الحكومي عند الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين فإن شخصاً ما، لا بد له من أن يذهب إلى هناك ليقدم رقم لوحة الشاحنة ويحصل على اسمه وعنوانه. وكان لا يفصله عن هذا الحدث المرتقب سوى أربع وعشرين ساعة. بعد ذلك، فإنهم سوف يعرفون من هو. ولن يتوقفوا عن البحث عنه مطلقاً، بكل ما تعني كلمة مطلقاً من معنى.

إن له أخاً في كاليفورنيا. وقد بات عليه الآن أن يقوم بتحذيره، ولكن ماذا عساه يقول له؟ أيقول له: آرثر هنالك عصبة من الرجال في طريقهم إليك لرؤيتك، ومن المفترض بهم أن يقوموا بوضع خصيتيك بين فكي كمّاشة ويبدؤون بالضغط بمعدل ربع درجة في كل مرة ويسألونك عما إذا كنت تعلم أين أنا أم لا. أيقول له إنه من الأفضل لك أن تفكر في الهجرة إلى الصين؟

جلس وقام بلفّ قدميه. وانتعل فردتي حذائه، ووقف وشرع في

اجتياز المسافة الباقية من الوادي الضيق، التي تفصله عن حافة السفح. وعندما بلغ ذلك السفح إذا بالمنطقة تمتد أمامه بعيداً بشكلٍ مسطَّح تماماً، نحو الجنوب والشرق. أرض من التراب الأحمر، وجبال في المسافات البعيدة والمتوسطة. ولم يكن هنالك من مخلوق. وأما الحرارة فلاهبة. دسّ مسدسه في وسطه. ونظر نزولاً صوب النهر لمرة أخيرة. ثم شرع في مسيرته نحو الشرق. كانت لانغتري ـ تكساس على بُعد ثلاثين ميلاً من المكان، في الاتجاه الذي تطير نحوه الغربان. وربما هي أقلّ من ذلك ـ عشر ساعات من السير، ربما اثنتا عشرة ساعة. كانت قدماه تؤلمانه أصلاً. وكانت ساقه تؤلمه أيضاً. وكذلك صدره وذراعه. صار النهر خلفه بعيداً عنه. وهو لم يتزوّد منه حتى بشربة ماء.

II

لست أدري ما إذا كان تطبيق القانون قد غدا الآن أكثر خطورة عمّا كان عليه الحال في السابق أم لا. إن ما أعرفه هو أنني عندما عُيّنت في الوظيفة، كان يمكن لك أن تعرف عن حصول عراكٍ بقبضات الأيدي في مكان ما، فتذهب لفضّ الخلاف، فيعرض البعض عضلاتهم عليك. ويكون عليك استضافتهم في بعض الحالات في السجن. فهم لا يفسحون المجال أمامك لحلّ الإشكال بطريقة أخرى. وإنه لمن الأفضل ألّا تخسر أبداً، فأنت في العادة لا ترى أكثر من ذلك، لكنك أيضاً قد تشهد ما هو أسوأ منه. ولقد حدث مرة أن رفع رجل مسدسه عليّ، فقمتُ بالإمساك بمسدسه بقبضة يدي في اللحظة التي كانت فيها إصبعه على الزناد فانطلق العيار وقد وقعت مطرقة الصلي على لحم إبهامي. وبالاستطاعة رؤية آثار الجرح عليه حتى الآن. لكن الرجل لم يكن ينوي القيام بقتلي. ومنذ سنواتٍ قليلةٍ مضت، ورغم أن هذه الحادثة لم يحدث مثلها الكثير بعد ذلك، فإنني كنت مرة أقود السيارة فوق إحدى الطرق الإسفلتية ذات المسربين أثناء الليل، فلفتت نظري شاحنة (بيك أب) يجلس في الجزء الخلفيّ منها شابان. لقد بدا عليهما أنهما مبهوران نوعاً ما، من أنوار سيارتي، لذلك فإنني تأخرت قليلاً عن عربتهما، لكنني وجدتُ أن الشاحنة المشار إليها تحمل لوحة مكسيكية، فخطر في بالي: حسناً، إنني أحتاج إلى إيقاف هذين الشابين والتقصّي عن حالهما. وهكذا فإنني أضأت المصابيح. وعندما فعلت ذلك، رأيت أن النافذة الخلفية من الشاحنة مفتوحة، وأن هنالك من يقوم بتمرير بندقية رشاشة من خلالها إلى أحد الشابين الجالسين في الذيل. قمت فوراً بالدوس على دعسة الفرامل بكلتا قدميّ فانزاحت سيارتي نتيجة لذلك إلى جانب الطريق لتدخل في دغلٍ. لكن آخر ما رأيته في ذيل الشاحنة هو أن هذا الشاب الجالس هناك يرفع البندقية إلى كتفه. اصطدمتُ بالمقعد، ولم اكد أفعل ذلك حتى تناثر زجاج سيارتي الأمامي كله علي. وكانت إحدى قدمي لا تزال ضاغطة على الفرامل.

واستطعت أن أشعر أن سيارتي تنزلق إلى قناة التصريف، خيّل إليّ أنها ستنقلب لكنها لم تفعل ذلك. لقد امتلأت السيارة بالأوساخ. ولم يكن من الشاب سوى أن فتح النار عليّ مرتين متتاليتين مطلقاً في اتجاه زجاج الباب الجانبي، وعند ذاك كانت سيارتي قد توقفت تماماً، وقمت بالاضطجاع هناك في المقعد، واستخرجت مسدسي. ثم سمعتُ عربة البيك آب تغادر، فرفعت رأسي وأطلقت بضع طلقات في اتجاه أنوارها الخلفية، لكن السيارة الجانية كانت قد ابتعدت.

إن الفكرة التي أرمي إليها هي أنك لا تدري مَنْ تُوقِف عندما تقوم بإيقاف شخصٍ ما. فأنت تنطلق على الطريق السريع وتعترض سيارة ما، دون أن تدري ما الذي قد تلقاه فيها. لقد جلستُ يومها طويلاً في سيارتي. وكان المحرك قد انطفأ، إلا أن الأنوار كانت لا تزال مضاءة. وها هي سيارتي الآن مليئة بنثار الزجاج وبالأوساخ. خرجتُ من السيارة ونفضت الأشياء عني. ثم عدت إلى مقعدي واكتفيت بالجلوس فيه. كنت كمن يقوم باستجماع أفكاره. وكانت مسّاحتا الزجاج الأمامي تتدليان فوق لوحة القيادة. قمت بإطفاء المصابيح، واكتفيت بالجلوس في مكاني. فقد تجد شخصاً ما لا يتورّع عن النيل من ضابط أمن يقوم بتطبيق القانون ويفتح النار عليه. وهنالك بعض الأناس الخطرين جداً. إنني لم أرَ تلك العربة مرة ثانية. كما أن أحداً سواي لم يرَها بعد ذلك. ولم يقع أحدٌ على أثر للوحتها على كل حال. وربما أنه كان عليّ القيام بمطاردتها أو أن أحاول القيام بذلك على الأقل. لكنني لا أدري لمَ فعلت ذلك. فلقد قُدتُ سيارتي عائداً بها إلى ساندرسون، وتوقفت عند أحد المقاهي. أستطيع القول إن الجميع قد أتوا لإلقاء نظرة على سيارة الدورية التي كنت أقودها. لقد كانت مصابة بالثقوب الناتجة عن الطلقات، لقد بدت أشبه بسيارة بوني آند كلايد. أمّا أنا فلم تكن على جسدي أية إصابة أو آثار أذى، حتى بسبب تناثر الزجاج. لقد وُجهت إليّ انتقادات بسبب توقفي عند المقهى أيضاً. فالوقوف هنالك بالطريقة التي قمت بالتوقف بها، بدا كما لو أنني أحاول استعراض نفسي واستعراض سيارتي. حسناً ربما كان ذلك هو حالي. لكنني كنت في حاجة إلى ذلك الفنجان من القهوة أيضاً، هذا ما أريد قوله.

لقد قرأتُ الصحف بعد ذلك في كل صباح. وإني أفترضُ أن أكثر ذلك عائدٌ في أسبابه إلى رغبتي في معرفة ما يقال حول تلك الحادثة. وليس بسبب أنني قد قمت بوظيفتي بشكل رائع. وإن الأمور تغدو هنا أصعب فأصعب. فمنذ فترة ليست

ببعيدة، تصادف شابان هنا، كان أحدهما من كاليفورنيا والآخر من فلوريدا. كانا يلتقيان في مكان ما، ويقومان بالتخطيط فيما بينهما. ثم شرعا في السفر في أنحاء البلاد وهما يقومان بقتل الناس. لقد نسيتُ العدد الذي بلغ إليه ضحاياهما. والآن ما هي احتمالات حصول شيء مثل هذا؟ فكلاهما لم تقع عليه عين ولا يمكن أن يكون هنالك الكثير من أشباههما. إنني على الأقل لا أعتقد ذلك. ولكن نحن لا ندري. فهنا وفي حادثة أخرى، قامت امرأة بإلقاء طفلها في جهاز ضغط النفايات. من يمكن أن يخطر في باله حصول مثل ذلك العمل؟ إن زوجتي عزفت عن مطالعة الصحف، وربما يكون الحق معها. إذ هي كثيراً ما تكون مصيبة في قراراتها.

تسلّق بيلّ درجات المدخل الخلفي لمبنى السرايا، واتجه في عمق القاعة نحو مكتبه. أدار كرسيّه وجلس عليه ناظراً إلى الهاتف. قال كأنه يخاطب الهاتف: هاتِ ما عندك، فها أنذا هنا.

ورنّ الهاتف، فمدّ يده والتقط السمّاعة وقال: العمدة بيلّ.

أصغى ثم أومأ برأسه.

سيدة داوني، أعتقد أن زوجك سيعود إلى البيت مباشرة. لمَ لا تخابرينني بعد قليل من الانتظار؟ أجل سيدتي.

نزع قبعته وألقاها على مكتبه وجلس مغمضاً عينيه وهو يقرص ظهر أنفه. قال: أجل يا سيدتي، أجل يا سيدتي.

يا سيدة داوني، إنني لم أرَ هذا الكمَّ من القطط الميتة فوق رؤوس الأشجار. أعتقد أنه سيعود مباشرة فقط إذا تركته وشأنه كي يعود. عليك الاتصال بي بعد فترة من الوقت. هل تسمعينني؟

أغلق السماعة وجلس ينظر إليها. قال: إنها النقود، إذا كان لديك ثروة كبيرة فلا يتوجب عليك آنذاك أن تجلس للتحدث إلى الناس عن القطط الميتة فوق أغصان الشجر.

حسناً، بل ربما ينبغي عليك أن تفعل ذلك رغم كل شيء.

أرسل جهاز الراديو قرقعة. التقط جهاز الاستقبال، وقام بضغط الزر عليه، ورفع قدميه إلى أعلى الطاولة. قال: بيلّ معك.

جلس مصغياً. أنزل قدميه إلى الأرض واعتدل في جلسته.

أحضِر المفاتيح وجهّز السيارة. هذا جيد. إنني هنا.

نقر بأطراف أصابعه على المكتب.

حسناً، دع أنوارك مضاءة. سأكون هناك بعد خمسين دقيقة. وتوربرتَ أيضاً؟ أقفِل صندوق السيارة.

* * *

دخل هو ووندل بسيارتيهما إلى الكتِف المعبّد أمام الوحدة حيث قاما بإيقافهما ورَكْنِهما هناك، ثم خرجا منهما. خرج توربرت من سيارته أولاً، وكان يقف بالقرب من بابها. أومأ العمدة برأسه. مشى على طول حافة الطريق دارساً آثار العجلات. قال: أترى هذا أثراً؟ أعتقد ذلك.

نعم سيدي.

حسناً لنلقِ نظرة.

فتح توربرت صندوق السيارة، ووقف الاثنان ينظران إلى الجثة الملقاة فيه. كانت مقدمة قميص الرجل مغطاة بالدم الجافّ جزئياً. وكان الوجه مغطىً بالدماء بكامله. انحنى بيلّ، ودنا من الصندوق، ومدّ يده إلى داخله آخذاً شيئاً ما، من جيب قميص القتيل، ثم قام بإفراد الورقة. كانت عبارة عن إيصال ملطّخ بالدم يفيد عن التزودَ بالوقود من محطة خدمة للسيارات في جانكشن تكساس. قال: حسناً، لقد كانت هذه هي نهاية الطريق بالنسبة إلى بِيل وِيْرِيك.

يبدو أنني لم أنتبه إلى وجود فاتورة في جيبه.

حسناً، لا مشكلة في ذلك. هذا لا يُفترض حصوله دائماً، لقد كانت مجرد ضربة حظٍّ أعمى.

أنعم النظر في الثقب الذي أصيبت به جبهة الرجل. إنه يبدو أشبه

بالثقب الذي تُحدثه رصاصة من عيار 0,45. إنه ثَقب نظيف أشبه بالذي يُحدثِه الخارق.

ما هو الخارق؟

إنه نوع من الرصاص الذي يستخدم في التدريب على الرماية. هل المفاتيح معك؟

نعم سيدي.

أغلق بيلّ قفل غطاء صندوق السيارة. نظر حوله. كانت العربات العابرة على الطريق السريع الذي يصل بين الولايتين تخفّف من سرعتها عندما تقترب من المكان: لقد تكلمتُ مع لامار قبل الآن، وقلتُ له إنه يستطيع استعادة إمْرَته على مجموعته في غضون ثلاثة أيام. كما قمتُ بمخابرة أوستن، وهما سيقومان بالاتصال بكَ قبل كل شيء عند الصباح لن أقوم بشحنه إلى إحدى وحداتنا، وهو شديد التأكد من أنه لا يحتاج إلى طوّافة أما أنتَ فتأخذ وحدة لامار وتعيدها إلى سونورا عندما تنتهي من مهمتك ثم تخابرني، وتخابر وندل. وسيقوم أحدنا بإعادتك. هل لديك نقود؟

نعم سيدي.

قم بتعبئة هذا التقرير مثل أيّ تقرير سواه.

حاضر سيدي.

رجل أبيض، في الثلاثينيات، متوسط القامة.

كيف تتهجّأ اسم ويريك؟

لا عليك من تهجئة اسمه. فنحن غير متأكدين من اسمه أصلاً.

نعم سيدي.

قد تكون له عائلة في مكانٍ ما.

ماذا. سيدي العمدة؟

نعم.

وما هي المعلومات المتوفرة لدينا عن الجاني؟

ليس لدينا أية معلومات. أعطِ وندل مفاتيحك قبل أن تنساها.

إنها في الوحدة.

حسناً، لنتوقف عن ترك مفاتيحنا في وحداتنا.

نعم سيدي.

سأراك في غضون يومين.

نعم سيدي.

آمل أن يكون ابن العاهرة لا يزال في كاليفورنيا.

نعم سيدي. أعرف قصدك.

لديّ شعور أنه لن يكون.

نعم سيدي. كذلك أشعر أنا.

وندل، هل أنت جاهز؟

انحنى وندل وبصق. ثم قال: نعم سيدي، إنني جاهز. ثم نظر نحو توربرت: لقد أوقفك ذلك الشاب، لكن عليك أن تقول إنك لا تدري شيئاً عن الحادثة. قلْ لهم إن أحداً لا بدَّ من أن يكون قد وضع الجثة في العربة بينما كنت أنت تشرب فنجاناً من القهوة.

أومأ توربرت موافقاً. وقال: لكنك ستأتي أنت والعمدة لإخراجي من الزنزانة. أليس كذلك؟

إذا لم نستطع إخراجك، فهذا يعني أننا سندخلها نحن أيضاً إلى جانبكِ.

قال بيلّ: إنكما لن تستطيعا إحياء الموتى بهذه الطريقة.

قال وندل مومئاً برأسه وموافقاً: نعم سيدي، إنك على حق، وقد يقع مثل ذلك معي في يوم من الأيام.

وبينما هو يقود سيارته على الطريق السريع رقم 90 في اتجاه الطريق الجانبي المؤدي إلى درايدن، وقع نظره على طائر باشق ميت ملقى على الطريق. لقد رأى كيف أن ريش الطائر تنفشه الرياح. أوقف سيارته جانباً وخرج منها ومشى إلى رُمَّة الطائر، فجلس القرفصاء إزاءها ملقياً ثِقل جسده على كعبيه، وألقى نظرة فاحصة عليها. رفع جناحاً واحداً ثم أرخاه من يده فعاد إلى مكانه من جديد. عيناه صفراوان باردتان تحت قوسين زرقاوين يحيطان بهما.

كان للطائر ذيل أحمر كبير. التقطه من أحد جناحيه وحمله إلى مصرف الماء بجانب الطريق وألقى به فوق العشب. إن من شأن هذه الطيور أن تقتنص كل ما يمّر فوق إسفلت الطريق. فهي تربض فوق أعمدة الكهرباء العالية تراقب اتجاهي الطريق لمسافة أميال عديدة. فإذا دبّ فوقها أي حيوان ضئيل يغامر بالعبور، فإن هذه الطيور تطبق عليه من السماء. أمّا هو، فلأنه كان غارقاً في تركيز الصيّاد فإنه لم يسمح لعجلات عربته بالمرور فوق جثة هذا الطائر.

وقف هنالك يستطلع الصحراء؛ إنها شديدة الهدوء. وهنالك هدير خفيف للرياح في الأسلاك العالية. حشائش شائكة عالية على طول الطريق. أعشاب النجيل وبعض الأعشاب العملاقة السّامة. وخلفها، في الغدران الصخرية تقع آثار التنانين. أما المقاطع الصخرية الجبلية الشاهقة، فتحجب أنوار الشمس المائلة. وإلى الشرق، ثمة صفحة صخرية عمودية في

مواجهة السهول الصحراوية، وذلك تحت سماء ملبّدة بسحبٍ من الغيوم السوداء كالسخام والمعلّقةٌ في فضاء ذلك القطاع؛ سبحان الله الذي صقل وجه تلك الأرض بالملح والرماد. عاد إلى سيارة الدورية التي يركبها فدخلها وانطلق بها.

عندما أوقف سيارته أمام مكتب العمدة في سونورا، فإن أوّل ما طالعه هو الشريط الأصفر المضروب حول فسحة وقوف السيارات. كان هنالك جمع صغير من موظفي مبنى السرايا. خرج من سيارته وقام بعبور الشارع.

ما الذي حدث أيها العمدة؟

قال بيلّ: لست أدري، لقد وصلت إلى هنا لتوّي.

انحنى تحت الشريط الأصفر المنصوب، وصعد على الدرجات، ثم نظر إلى الأعلى. وعندما قام بقرع الباب، جاء الجواب: ادخل يا إدّ توم، أدخلْ، إن لدينا جحيماً من الهمّ هنا.

مشيا إلى الخارج في اتجاه الفناء الخارجي المعشب لمبنى السرايا، فتبعهما رهطٌ من الرجال.

قال لامَرُ عليكم بمتابعة طريقكم، أريد أن أتحدث مع العمدة على انفراد.

بدا متعباً. نظر ناحية بيلّ ثم تحوّل إلى الأرض، ثم هزّ رأسه وأشاح بأنظاره. ثم قال: لقد كنت ألعب بعض الألعاب مع أترابي هنا في الصغر، وفي هذه البقعة بالذات. وهؤلاء الصغار في هذه الأيام لا أظن أنهم يعرفون شيئاً عن ألعابنا القديمة تلك. إن هذا يا إدّ توم يبدو جنوناً لعيناً.

إنني أسمعك.

هل لديك شيء ما، تتابعه؟

في الحقيقة لا.

أشاح لامر بنظره. مسح عينيه بظهر كُمّه. وقال: سأقول لك الآن إن ابن العاهرة هذا لن يرى وجه النهار في مبنى السرايا. لن يراه إذا وقعت يداي عليه.

حسناً، لكننا نحتاج إلى إلقاء القبض عليه أولاً.

إنه متزوج.

لم أكن أدري بذلك.

عمرها ثلاث وعشرون سنة. وهو شاب ذو شكل هنيء، مستقيم كالقالب. والآن، علي أن أذهب إلى منزله قبل أن تسمع زوجته الأنباء التعيسة من الراديو اللعين.

إنني لا أحسدك على تلك المهمة. إنني حتماً لا أحسدك.

أعتقد أنني سأستقيل من هذه الوظيفة، يا إدّ تومّ.

أتريدني أن أقوم بمرافقتك؟

كلا، لكنني أقدّر عرضك. إنني الآن بحاجة إلى الذهاب.

حسناً.

إن لديّ شعوراً بأننا نبحث عن شيء لم نصادف مثله أبداً من قبل.

وأنا لديّ الشعور نفسه أيضاً، دعني أتصل بك في المساء.

إني أقدّر لك ذلك.

راقب لامَر وهو يعبر الممر المزروع ويتسلق الدرجات إلى مكتبه. قال : آمل ألا تستقيل، أعتقد أننا في حاجة إلى كل ما لديك.

عندما توقفوا أمام المقهى، كانت الساعة قد بلغت الواحدة وعشرين دقيقة صباحاً. وكان هنالك ثلاثة ركاب على متن الحافلة.

قال السائق: هذه هي ساندرسون.

اتّخذ موْسّ طريقه إلى الأمام. وكان قد رأى السائق ينظر إليه عبر المرآة. قال: اسمع، أتعتقد أنك تستطيع إيصالي إلى نقطة ديزرت آيري؟ إن رجلي تؤلمني وإنني أسكن هناك وليس لي أحد يوصلني إلى بيتي.

أقفل السائق الباب وقال: أجل، أستطيع أن أفعل ذلك من أجلك.

عندما دخل بيته، نهضت عن الأريكة، وأسرعت وطوّقت عنقه بذراعيها. قالت له: لقد اعتقدت أنك صرت ميتاً.

حسناً، إنني لم أمت، لهذا عليك عدم المبالغة في العواطف.

إني لن أفعل ذلك.

لِمَ لا تُعدّي لي بعض اللحم والبيض بينما آخذ حمّاماً.

دعني أرى الجرح في جبينك. ما الذي حصل لك؟ وأين هي شاحنتك؟

إنني في حاجة للاستحمام. أعدِّي لي شيئاً آكله. إن معدتي تعتقد أن حلقومي مقطوع.

خرج من الحمّام، وكان يرتدي سروالاً قصيراً، وعندما جلس إلى طاولة الفورمايكا في المطبخ، فإن أول شيء قالته له هو: ما هو ذاك الشيء الأسود على ذراعك؟

كم بيضة قليتِ لي؟

أربع.

هل لديكِ المزيد من خبز التوست؟

هنالك قطعتان أخريان آتيتان. ما هو هذا الشيء الذي على ذراعك يا لِلْوين؟

ماذا تريدين أن تسمعي؟

أريد ان أسمع الحقيقة.

رشف رشفة من قهوته وشرع في رشّ الملح على طبق البيض.

إنك لا تريد أن تخبرني، أليس كذلك؟

كلا، لا أريد.

وما الذي حصل لرجلِكَ؟

لقد أصابها طفح جلدي.

مسحت الزبدة على وجه قطعة التوست الساخنة الجديدة وقامت بوضعها على الطبق، وجلست على الكرسيّ المقابل. قال: أحبُّ تناول وجبة الفطور عند الليل، فهذا يعود بي إلى أيام عزوبتي.

ما الذي يجري لك يا لِلْوين؟

هذا الذي يجري، يا كارلا جين. إن عليك جمع حوائجك والاستعداد للرحيل عن هذا المكان عند قدوم النهار. إن كل ما تتركينه وراءك لن تستطيعي رؤيته بعد ذلك. لذلك، فإن عليك ألّا تتركي شيئاً لا تستطيعين التخلي عنه. هنالك حافلة تغادر من هنا عند الساعة السابعة والنصف صباحاً. أريدك أن تغادري إلى أوديسّا والانتظار هناك حتى أقوم بالاتصال بكِ.

استوت في كرسيّها وراقبته جيداً. قالت: أتريدني أن أذهب إلى أوديسا؟

هذا صحيح.

إنك لست تمزح، صحيح؟

أنا؟ كلا إنني لست أمزح أبداً. ألا يوجد لدينا شيء من المربيات المحفوظة؟

نهضت وأحضرت المربى المحفوظ من الثلاجة ووضعته فوق المائدة وعادت إلى الجلوس في مكانها. فكّ غطاء الوعاء واستخرج منه بعض المربىّ وقام بإفراده فوق قطعة التوست مستخدماً سكينه من أجل ذلك.

وماذا يوجد في تلك الحقيبة التي كنت قد أحضرتها؟

لقد أخبرتك عمّا يوجد في الحقيبة.

لقد قلتَ إنها مليئة بالنقود.

حسناً، إني أعتقد أن النقود هي التي تملؤها.

وأين وضعتها؟

وضعتُها تحت السرير في الغرفة الخلفية.

تحت السرير؟

نعم.

أأستطيع أن أذهب لإلقاء نظرة عليها؟

إنك حرة، وبيضاء البشرة وقد تخطيت العشرين من عمرك. لذلك، فإنني أعتقد أنك تستطيعين عمل ما يبدو لك عمله.

لكنني لم أبلغ الحادية والعشرين.

حسناً، مهما كان عمرك.

وأنت أتريدني أن أركب الحافلة وأغادر إلى أوديسّا.

نعم، ستركبين الحافلة وتذهبين إلى أوديسّا.

وماذا عساي أن أقول للماما؟

حسناً، حاولي الوقوف على بابها والصياح: ماما، لقد عدتُ إلى البيت.

وأين هي شاحنتك البيك أب؟

ذهبت مثلما يذهب لحم البشر. ما من شيء يدوم.

وكيف يُفترض بنا أن ننزل إلى الحافلة في الصباح؟

اتصلي بالآنسة روزا التي تسكن على مسافة منا. فهي ليس لديها عمل تعمله.

وما الذي قمتَ بفعْلِه يا لِلْوين؟

لقد قمتُ بالسطو على المصرف في فورت ستوكتون.

إنك جراب من الكذب، أتعرف ذلك.

إذا كنت لا تصدقين كلامي، فلماذا تسألينني؟ إن ما تحتاجين إليه هو جمعُ أمتعتك فوراً. إذ لم يعد أمامنا سوى أربع ساعات قبل طلوع الصباح.

دعني أرى ذلك الشيء على ذراعك.

لقد رأيتِه.

دعني أضع عليه بعض الضماد.

أجل، إني أعتقد أن هنالك بعض المروخ للتداوي من الإصابة بخردق

الأيائل في الخزانة إذا كنا لم نفرغ منه. هلّا ذهبت لإحضاره وتوقفتِ عن إثارة غضبي؟ إنني أحاول تناول طعامي.

هل أُصبتَ بطلق ناري؟

لا. بل قلت لكِ ذلك لإثارة قلقك. اذهبي الآن.

عبر نهر بيكوس شمالي شيفيلد/تكساس واتخذ طريقه على الطريق رقم 349 جنوباً. وعندما توقف عند محطة التزود بالوقود في شيفيلد، كان الظلام قد خيّم على المكان تقريباً. خطٌّ شفقٍ أحمر طويل، والحمائم تعبر فوق الطريق السريع متجهة جنوباً لتبيت في بعض حجيرات مراعي الماشية. حصل على بعض الفكّة من صاحب المحطة وقام بإجراء مكالمة هاتفية بعد أن ملأ خزان الوقود وعاد ودفع ما يتوجب عليه.

سأله صاحب المحطة: هل أصابك شيء من المطر في الطريق؟

وأيُّ طريق تقصد؟

أعتقد أنك آتٍ من دالاس.

التقط تشيغور الباقي من المال من على النَّضَد، وقال: وما هو شأنك في المكان الذي أنتسب إليه يا هذا؟

إنني لم أعنِ شيئاً بسؤالي.

ألم تعنِ شيئاً به؟

أردت فقط تسلية نفسي وتمضية يومي.

أعتقد أن ذلك له صلة بالأخلاق المتعلقة بنظرتك الهشة إلى الأمور.

حسناً سيدي، لقد اعتذرتُ لك. وإذا كنت لا تريد قبول اعتذاري، فإنني لا أدري ماذا أستطيع أن أفعل لك سوى ذلك.

كم هو ثمن هذه؟

نعم سيدي؟

قلت كم هو ثمن هذه.

إنها تسعة وستون سنتاً.

أفرد تشيغور دولاراً واحداً فوق سطح النضد. التقط الرجل ورقة النقد، ودفع إليه الباقي بالطريقة التي يوزع بها لاعبٌ أوراق اللعب. ولم يكن تشيغور قد رفع عينيه عن الرجل. أشاح الأخير بأنظاره ثم سعل. قام تشيغور بفتح عبوة الكاشو البلاستيكية بأسنانه وأفرغ ثلثها في باطن كفه، ووقف يلتهمها.

قال الرجل: هل هنالك من خدمة أخرى؟

لست أدري. أيوجد هناك خدمات أخرى؟

هل هنالك خطأ ما؟

خطأ من ماذا؟

من أي شيء.

أهذا هو ما تسألني إياه؟ هل هنالك خطأ ما، من أيّ شيء؟

استدار الرجل ورفع قبضته إلى فمه وسعل. نظر إلى تشيغور ثم عاد ونظر إلى الخارج. نظر إلى الواجهة الزجاجية في مقدمة المحل. كانت هنالك مضخات الوقود، والسيارة. أكل تشيغور قبضة صغيرة أخرى من الكاشو.

هل هنالك من خدمة أخرى؟

لقد سألتني هذا السؤال من قبل.

حسناً إني أفكر بالإغلاق.

تفكر بالإغلاق.

نعم يا سيدي.

وفي أيّ ساعة تقفل عادة؟

الآن. إننا نقفل الآن.

كلمة "الآن" لا تدل على وقت. في أي وقتٍ تقفلون؟

على العموم، إننا نقفل مع هبوط الظلام. عند حلول الظلام.

وقف تشيغور يمضغ الكاشو ببطء. وقال: إنك لا تدري عمًّا تتحدث، أتدري؟

سيدي؟

لقد قلتُ لك إنك لا تدري عمّا تتحدث، أتدري.

إنني أتكلم عن الإقفال. هذا ما أتكلم عنه.

في أيّ ساهة تذهب إلى سريرك؟

سيدي؟

إن بك شيئاً من الصمم، أليس كذلك؟ لقد سألتك في أي ساعة تذهب إلى فراشك.

حسناً، يمكنني القول إنني أذهب إلى النوم حوالي الساعة التاسعة والنصف، حوالي التاسعة والنصف تقريباً.

سكب تشيغور المزيد من الكاشو في كفه. قال: إنني أستطيع أن أعود إذن.

سوف نكون قد أقفلنا عندئذٍ.

لا بأس في ذلك.

حسناً، وما الذي يجعلك تعود إلينا إذا كنا مقفلين؟

أنت تقول ذلك.

قلت وسأفعل.

أأنت تعيش في ذلك البيت خلف هذا المحل؟

أجل هو كذلك.

هل سكنت فيه كل حياتك؟

تمهّل صاحب المحل قليلاً قبل الإجابة. ثم قال: لقد كان هذا المنزل منزل والد زوجتي، في الأصل.

وهل تزوجتما فيه؟

لقد عشنا في تمبل/تكساس لعدة سنوات. كما أنشأنا عائلة هناك، في تمبِل. ولقد جئنا إلى هذا البيت منذ أربع سنوات.

هل تزوجتما فيه؟

نعم، إذا كانت هذه هي الطريقة التي تريد أن تفهمها.

ليس لدي طريقة لأفهمها. بل هذه هي الطريقة التي هي عليها الحال.

حسناً، أريد أن أغلق محلي الآن.

سكب تشيغور الكمية الأخيرة من الكاشو في كفّه، وقام بلفٍّ الكيس الصغير ووضعه على النضد، ووقف منتصباً وهو يتابع المضغ على نحو شاذ.

قال صاحب المحطة: يبدو أن لديك الكثير من الأسئلة، أسئلة تريد توجيهها إلى شخص ما، ترفض التصريح له عن المكان الذي تنتمي إليه.

ما هو أكثر ما بدا لك أنك خسرته في لعبة الطُّرَّة والنقشة؟

ماذا يا سيدي؟

أقول لعبة الطّرّة والنقشة.

لست أدري. فالناس هنا لا يتراهنون عادة على هذه اللعبة. إنما يلجؤون إليها على العموم. لحسم بعض الأشياء فقط.

وما هو أكبر الأشياء التي شهِدْتَ حسمها بهذه الطريقة؟

لست أدري.

أخرج تشيغور قطعة نقود من فئة الخمسة وعشرين سنتاً من جيبه وقذف بها لتتأرجح في الهواء تحت الوهج الأزرق لأضواء النيون المنبثقة فوقهما. ثم التقطها وألصق راحة كفه فوقها بعد أن وقفت على مرفقه في منطقة تعلو قليلاً عن ضمادته الدامية فقط. وقال: احزر.

أحزر؟

نعم.

من أجل ماذا؟

عليك أن تحزر فقط.

حسناً، لكني أريد أن أعرف علامَ نحن نتشارط هنا.

وهل يغيّر ذلك في الأمر شيئاً؟

نظر الرجل إلى عيني تشيغور للمرة الأولى. عينان زرقاوان كالعقيق. وقد صارتا تبرقان أمام النور فيما هما غامضتان في الوقت نفسه. مثلما هو حال الحصى الرطبة. قال تشيغور: إن عليك أن تحزر، فإنني لا أستطيع أن أنوب عنك في ذلك. فبذلك لن تكون اللعبة عادلة. ولن يكون هذا عملاً سوّياً. عليك أن تحزر أنت على أيّ وجه استقرت قطعة النقد.

لكنني لم أراهنك على شيء.

بل راهنتني. إنك ستراهن على حياتك بكاملها. لكنك لا تدري بذلك. أتعرف ما هو التاريخ المسكوك على وجه هذه القطعة؟

كلا.

إنه عام 1958. ما زالت هذه القطعة مسافرة بين الأيدي منذ عشرين عاماً حتى وصلت الآن إلى هنا. وها أنذا هنا. وقد وضعت الآن يدي عليها. وهي مستقرة في هذه اللحظة إما على وجهها وإما على ظهرها. عليك الآن أن تختار بين الوجه والظهر. هيّا حدّد خيارك.

لكنني لا أدري ما الذي سأربحه إذا صحّ خياري.

بدا وجه الرجل تحت الضوء الأزرق متعرقاً بحبات ضئيلة من العرق. لعق شفته العليا.

قال له تشيغور: إذا صح خيارك فإنك ستربح كل شيء، أجل كلَّ شيء.

إن كلامك لا يبدو له أيّ معنى يا سيدي.

احزرْ.

إنني أختار الوجه.

رفع تشيغور راحة كفه عن قطعة النقد. وأدار ذراعه قليلاً نحو الرجل كي يرى القطعة. قال له: أحسنت.

التقط قطعة النقد عن مرفقه ودفع بها نحو الرجل.

وما الذي تراني فاعلٌ بها؟

خذها. إنها قطعة النقد التي جلبت الحظَّ إليك.

لكنني لستُ بحاجة إليها.

بل إنك بحاجة إليها، خذها.

التقط الرجل قطعة النقد، وقال: لكنني بحاجة إلى إقفال محلي الآن.

لا تضع قطعة النقد في جيبك.

وأين تريدني أن أضعها؟

لا تضعها في جيبك. لأنك بذلك لن تعود قادراً على تمييزها عن سواها.

حسناً.

قال تشيغور: إن كل شيء يمكن أن يغدو آلة، الأشياء الصغيرة. الأشياء التي قد لا تسترعي حتى انتباهك. وهي أشياء تتناقلها الأيدي، دون أن يعيرها الناس أيّ اهتمام. ثم يأتي يوم يكون فيه ثمة حساب وبعد ذلك لا يبقى شيء على حاله. حسناً، قد تقول. إنها مجرد قطعة نقد معدنية، على سبيل المثال. وليس هنالك من شيء خصوصي يتعلق بها. ولأيّ شيء تكاد هذه القطعة تصلح لكي تكون أداة؟ أترى ما هي المشكلة. أن تفصل بين الفِعل وبين الشيء. كما لو أن أجزاء لحظة ما، في التاريخ قد يمكن استبدالها بأجزاء من لحظة تاريخية أخرى. كيف يمكن لذلك أن يحصل؟ حسناً، إنها مجرد قطعة نقد. نعم. هذا صحيح، أليس كذلك؟

كوَّبَ تشيغور راحة يده واغترف بها ما تبقى من النقود عن ظهر النَّضَد وقام بدسِّها في جيبه واستدار خارجاً من باب المحلّ. راقبه مالك المحلّ وهو يخرج. كما راقبه وهو يصعد إلى سيارته. اشتغل محرك السيارة وأقلعت عن شريط الحصى لتدخل الطريق السريع المتجه جنوباً. أمّا أنوارها فلم تسطع. ألقى قطعة النقد على ظهر النَّضَد وشرع يتأملها. ألقى راحتيه على ظهر النضد أيضاً واكتفى بالوقوف في مكانه حانياً رأسه قليلاً.

* * *

عندما وصل إلى درايدن كانت الساعة قد بلغت الثامنة. جلس عند التقاطع أمام محلات كوندراز فيد ستور مطفئاً الأنوار، ومبقياً على المحرك

مشتغلاً. ثم أضاء الأنوار وانطلق على الطريق السريع رقم 90 متجهاً نحو الشرق.

كانت العلامات البيضاء إلى جانب الطريق، عندما تتيّسر له رؤيتها، تبدو أشبه بالعلامات التي يضعها المسّاحون لكنها لم تكن تحمل أرقاماً، مجرد علامات ورموز فقط. قام بتشغيل عدّاد المسافات وقاد سيارته ميلاً إضافياً ثم خفّف سرعته وانكفأ عن الطريق السريع. أطفأ أنوار سيارته وخرج منها تاركاً المحرك مشتغلاً. ثم مشى وفتح البوابة، وعاد إلى السيارة. قادها بين الحواجز الجانبية العائدة لطريق المواشي، ثم خرج وعاد إلى إقفال البوابة وراءه، وتابع القيادة نزولاً مقتفياً أثر العجلات على الطريق الترابي.

تتبّع السياج المتجه جنوباً، وكانت سيارته الفورد تجري فوق الطريق السيئ الاستواء. ولم يكن قد بقي من السياج سوى بقايا، مجرد ثلاثة خطوط من الأسلاك مشدودة إلى أعمدة من خشب المسكيت. وبعد مسيرة ميلٍ أو ما يقرب من ذلك، وصل إلى سهلٍ حاصبٍ حيث وجد فيه سيارة دودج رامتشارجر، مركونة، ووجهها مواجه لاتجاه سيارته. توقف بموازاتها وأطفأ محرك سيارته.

كان زجاج سيارة الرامتشارجر مضبّباً بكثافة شديدة بحيث بدا زجاجها أسود. فتح تشيغور باب سيارته وخرج منها. خرج رجل من مقعد الركّاب في سيارة الرامتشارجر، ثم طوى المقعد الذي كان يجلس عليه إلى الأمام وأغلق الباب خلفه، وقال: لننطلق.

قال السائق: هل تكلمت إليه؟

كلا.

ألا يدري بالذي حدث؟

كلا. دعنا ننطلق.

أقلعوا متجهين عبر الصحراء في العتمة.

قال السائق: ومتى تنوي إعلامه؟

عندما أعرف ما هو ذاك الذي سأخبره به.

عندما وصلوا إلى شاحنة موْس انحنى تشيغور إلى الأمام لتفحص العربة.

هل هذه هي عربته؟

إنها هي، لكن لوحاتها فُقدت.

توقف هنا. هل لديك مفك براغ؟

فتّش في صندوق العدّة هناك.

خرج تشيغور حاملاً مفك براغ ومشى نحو العربة وفتح بابها. وحرّر رقاقة التفتيش المصنوعة من الألمنيوم، الموجودة في باطن حاملة الباب، من برشاماتها، ثم وضع الرقاقة في جيبه، ثم عاد وركب السيارة ووضع المفك في جيبها الأمامي. سأل: من الذي قام بتمزيق العجلات؟

لم نفعل نحن ذلك.

هزّ تشيغور رأسه، وقال: لنذهب.

أوقفوا سيارتهم على مسافة ما من الشاحنات ومشوا لإلقاء نظرة عليها. وقف تشيغور هناك لمدة طويلة، كان الجوُّ بارداً هناك في تلك البرِّيّة، ولم يكن على جسمه جاكيت، لكنه بدا منشغلاً عن ذلك. وقف الرجلان الآخران ينتظران. كان يحمل مصباحاً كشّافاً في يده فأناره وتمشّى بين الشاحنات وتفقّد الجثث، وقد تبعه الرجلان الآخران تاركين بينه وبينهما مسافة قصيرة.

قال تشيغور: كلب من هذا؟

إننا لا ندري.

وقف ينظر إلى جثة القتيل الملتوي جذعه على حاملة مفاتيح شاحنة البرونكو. وجّه بؤرة الضوء إلى المساحة المخصصة للحمولة في داخل العربة خلف المقاعد.

قال: أين هو الصندوق؟

إنه في الشاحنة. أتريده؟

هل استطعت ملاحظة أيّ شيء عليه؟

كلا.

لا شيء أبداً؟

لا، ولا أيّ طرف خيط.

تمعّن تشيغور في جثة القتيل. ثم لكزه بالمصباح الكشاف.

قال أحد الرجلين الآخرين: إن هذه هي بعض نباتات البتونية البالغة.

لكن تشيغور لم يجب بل تراجع عن البيك أب وأخذ يتأمل في السهل تحت ضوء القمر. هدوء مطبق. إن الرجل الموجود في عربة البرونكو لم يكن قد مات منذ ثلاثة أيام أو حواليها. استلّ مسدسه من زناره واستدار إلى المكان الذي كان يقف فيه الرجلان، وأطلق طلقة واحدة على كل منهما في رأسه في تتابع سريع، ثم أعاد المسدس إلى وسطه. كان الرجل الثاني في الواقع قد استدار لينظر إلى الرجل الأول الذي سقط. خطا تشيغور بينهما وانحنى وسحب حزام الكتف من الرجل الثاني ورفع سلاح الغلوغ من عيار 9 ملم الذي كان يحمله وعاد إلى العربة حيث صعد إليها وأدار محركها واستدار بها راجعاً إلى خارج السهل قبل أن يتجه مجدداً إلى الطريق السريع.

III

لست متأكداً عمّا إذا كان تطبيق القانون يستفيد استفادة كبيرة من التكنولجيا الحديثة. فالأدوات التي تقع تحت أيدينا تقع تحت أيديهم أيضاً. هذا لا يعني أن بإمكانك التقهقر أو أنك ترغب حقاً في ذلك. لقد درجنا على استعمال الأجهزة اللاسلكية ذات نطاق التردد العالي منذ سنوات عديدة. بعض الأشياء لم تتغيّر. الذوق العام لم يتغير. وإني كثيراً ما أطلب من معاونيّ أن يكتفوا بتتبع وجود فتات الخبز. فأنا ما زلت مثلاً أحب مسدسات الكولت القديمة من عيار 40-0.44 فإذا كان هذا السلاح لن يردع الجاني، فالأفضل لك أن ترمي سلاحك وتهرب ناجياً بحياتك. كما إني أحب مسدسات الونشيستر القديمة من طراز 97. أحبُّ ذلك السلاح لأن له زناداً. وإني لا أحبُّ التأكد من أن زر الأمان مرفوع في السلاح عند الحاجة لاستعماله. وبالطبع، إن بعض الأشياء هي أسوأ من ذلك. إن سيارة الدورية التي أقوم باستعمالها صار عمرها سبع سنوات. إن لها محرك 454 مثبت فيها، لا تستطيع الحصول على مثله في هذه الأيام. وكنت قد جربتُ قيادة إحدى العربات الجديدة فوجدت أنها لا تكاد تستطيع أن تسابق رجلاً سميناً. لذلك، فإني أخبرت الرجل أنني سأبقى على السيارة التي بحوزتي. إن هذه ليست بالسياسة الحكيمة دائماً. لكنها أيضاً ليست بالسياسة السيئة دائماً.

أما الشيء الآخر الذي لا أعرفه، والذي لطالما يسألني الناس عنه، مع أنني لا أكاد أستطيع القول إنني قادر على الحكم به من الأساس، وهو شيء لا أحب أن أشهده ثانية، إنما هو مسألة مشاهدة أولئك الذين يستحقون فعلاً تنفيذ حكم الإعدام بهم، وذلك ساعة التنفيذ هذه. إنك لتتنكر بعض مثل هذا الحدث. كان ثمة شخص أو اثنان قد أتيا بثياب سوداء، الأمر الذي وجدته مقبولاً. أما بعض الرجال فقد أتوا وهم

يرتدون القمصان العادية، الأمر الذي أزعجني قليلاً مع أنني لست متأكداً من أنني أستطيع إخباركم لماذا.

ومع ذلك، فقد بدوا وكأنهم عارفين ماذا عليهم أن يفعلوا، وهذا الأمر أدهشني. ومعظم هؤلاء حسب معرفتي لم يأتِ مرة مِن قبل، لحضور حادث تنفيذ حكم بالإعدام. وعندما ينتهي تنفيذ كل شيء يتم إسدال الستائر حول غرفة الغاز. وبينما يكون الشخص الذي تم تنفيذ الحكم به يجلس متهالكاً على كرسي الإعدام، فإن الناس يبدؤون بالنهوض والانصراف كما لو أنهم ينصرفون من كنيسة أو من مكان يشبه ذلك. أمّا بالنسبة لي فقد بدا الأمر شديد الفرادة، بل هو فعلاً شديد الفرادة. إن عليّ القول إنه ربما كان أكثر الأيام غير الاعتيادية التي مرت عليّ طوال حياتي.

هنالك عدد قليل من الناس الذين لا يؤمنون بهذه العقوبة. ولكن حتى هؤلاء كان قد عمِل بعضهم في السجن المخصص لتنفيذها. إنه ليدهشك أمر ما يحدث هناك. وإني لأعتقد أن بعض من عملوا هناك قد أدهشهم ذلك في وقتٍ أو في آخر. فانت ترى أحد النزلاء كل يوم، وقد يستمر ذلك لعدة سنوات، ثم يأتي يوم تقود فيه ذلك النزيل على طول الممر وتضعه على كرسي الإعدام. وذلك سيستتبع طبعاً بعض اللغط والقوقأة التي قد تمتد إلى كل أحد، بصرف النظر عمّن يكون النزيل. بالطبع فإن بعض هؤلاء ليس على درجة عالية من الذكاء. ولقد أخبرني القسيس بيكيت عن أحد النزلاء الذين كان يشرف على شؤونهم الروحية، أنه كان قد تناول وجبته الأخيرة التي طلب من ضمنها بعض التحلية كائناً ما تكون. وقد اقترب الوقت لاقتياده لتنفيذ الحكم به، فسأله القسيس المذكور عما إذا كان يريد تناول الحلوى التي طلبها، فما كان منه سوى أن قال له إنه سيوفرها إلى ما بعد رجوعه. إني لا أدري ما الذي أستطيع قوله حول مثل هذه المسألة، ولا استطاع القسيس بيكيت أن يعلّق عليها أيضاً.

إنني لم أجد نفسي أقوم بقتل أي شخص بيدي طيلة خدمتي، وإنني لسعيد بهذه الحقيقة. إن بعض العُمَد الذين خدموا في السنين الماضية لم يحملوا أبداً أيَّ سلاح. وإن كثيراً من الناس يصعب عليهم تصديق هذه الحقيقة. فإن جيم سكاربورو على سبيل المثال، لم يحمل السلاح مرة، أعني جيم الابن. كذلك فإن غاستون بويكينز لم يحمل سلاحاً. وهنالك في مقاطعة كومانش، كنت أسرُّ دائماً بالاستماع إلى الروايات عن العُمَد السالفين، ولم أفرّط مرة بمناسبة لعمل ذلك.

الاهتمام الذي امتازت به الأيام القديمة، ذلك الاهتمام الذي كان يبديه العُمَدُ بأناسهم، وقد تسرّب بعضه إلينا، فإنك لا تستطيع سوى الإحساس بذلك. فالعمدة نيغر هوسكينز في مقاطعة باستروب كان يعرف رقم هاتف كل شخص في مقاطعته عن ظهر قلب.

إنه لشيء غريب عندما يأتي الأمر بك للتفكير فيه. فالفرص المتاحة لسوء تطبيق القانون موفورة في كل مكان. فليس هنالك شروط معتبرة كي يكون المرء عمدة في القانون الأساسي لولاية تكساس. ليس هنالك أيّ شرط. وليس هنالك شيء يمكن تسميته بقانون المقاطعة. فإنك تتكلم عن وظيفة لديك فيها سلطات تكاد تكون شبيهة بسلطة الحاكم المطلق، وليس هنالك من شروط معتبرة فيك أو عليك، وتكون مولجاً بالمحافظة على حسن تطبيق قوانين غير موجودة. ومع هذا الواقع، يبقى عليك أن تقول لي ما إذا كان هذا الوضع فريداً وغريباً أم لا. وبسببٍ من قولي إن الأمر لهو كذلك، فهل ينجح ويعمل؟ الجواب نعم. إنه ينجح في تسعين بالمئة من الحالات. فالأمر لا يحتاج سوى إلى القليل من أجل حكم الناس الجيدين. إذ لا يحتاج الأمر سوى إلى القليل فقط معهم. أما الأناس السيئون فلا يمكن تحمّل حكمهم أبداً. وإذا كان حكمهم ممكناً، فإن هذا الأمر لم يطرق مسمعي بعد.

توقفت الحافلة في فورت ستوكتون عند الساعة التاسعة إلا الربع، فوقف موْس وأنزل حقيبته الشخصية عن الرف الذي يعلو مقعده، ورفع حقيبة الملفات من على المقعد، وأخذ يتأمل زوجته.

قالت له: لا تركب طائرة طالما أن ذلك الشيء معك، إنني أخاف أن يقوموا بالإلقاء بك في السجن.

إن أمي لم تلد أطفالاً أغبياء.

متى ستتصل بي؟

سأتصل بكِ في غضون أيام قلائل.

حسناً.

كوني حذرة.

يساورني شعور سيئ يا لِلْوين.

حسناً، أما أنا فيساورني شعور جيد. وعليه، يمكنهما التعادل.

آمل ذلك.

لن أستطيع الاتصال بكِ سوى من هاتف عمومي.

أعرف ذلك. لكن عليك الاتصال.

سأفعل ذلك. لكن توقفي عن المبالغة في القلق حول كل شيء.

لِلْوين؟

ماذا؟

لا شيء.

ما الأمر إذاً؟

إنه لا شيء. لقد أردت مجرد مناداتك باسمك.

كوني حذرة.

لِلْوين؟

ماذا؟

لا تؤذِ أحداً. أتسمعني؟

وقف هناك والحقيبة تتدلى من كتفه. قال لها: لا أستطيع أن أعدكِ بشيء، وهذا هو ما يؤذي.

ما إن رفع بيلّ قطعة الطعام الأولى على شوكته عند جلوسه للعشاء حتى رنّ جرس الهاتف. أخفض الشوكة من يده ثانية. بدأت زوجته بإزاحة كرسيها إلى الوراء، لكنه مسح فمه بمنديله ونهض. قال: سأتولى الرد عليه بنفسي.

حسناً.

كيف يعرفون بحق جهنم أننا نتناول طعامنا؟ فنحن نادراً ما نتأخر في عشائنا إلى هذه الساعة.

قالت له: دعكَ من السباب واللعن.

التقط سماعة الهاتف. قال: العمدة بيلّ.

أصغى لحظة، ثم قال: سوف أكمل أولاً عشائي. وسوف ألتقي بكَ هناك بعد أربعين دقيقة، لكن عليك أن تترك لي أنوار وحدتك مضاءة.

أغلق الخطّ وعاد إلى كرسيّه وجلس، والتقط الفوطة وأفردها فوق حضنه، وعاد إلى الإمساك بشوكته. قال لها: لقد اتصل أحدهم ليخبر عن وجود سيارة تشتعل، وهي هنا في هذه الناحية بالقرب من لوزيير كانيون.

وما هي علاقتك بمثل هذا الأمر؟

هزّ رأسه.

تابع تناول طعامه، وشرب آخر رشفة من فنجان قهوته. قال لها: تعالي اذهبي معي.

دعني أُحضِر معطفي.

خرجا من الطريق الرئيس عند البوابة وقادا سيارتهما على طريق الماشية ثم توقفا خلف وحدة وندل. اتجه وندل نحو سيارة بيل، فأنزل الأخير زجاج الشباك.

قال وندل: إنها على بعد نصف ميلٍ نزولاً، اتبعني، وسأدلّك عليها.

أستطيع رؤيتها من هنا.

نعم سيدي. كانت تشتعل بضراوة منذ ساعة. والناس الذين أخبروني بشأنها كانوا قد تمكنوا من رؤيتها من على الطريق العام.

أوقفا سيارتهما على مسافة ليست شديدة البعد عن السيارة المحترقة. وجم الجميع فيما هم ينظرون إليها. كان بالإمكان تحسّس حرارة الحريق وهي تلذع الوجوه.

استدار بيلّ حول سيارته، وفتح بابها، وأمسك بيد زوجته. خرجت من السيارة، ووقفت وهي تطوي ذراعيها أمامها. كان هنالك شاحنة بيك أب متوقفة على مسافة معينة إلى الأسفل، ورجلان يقفان في وهج النار الأحمر القاتم.

أومأ كلٌّ منهما برأسه وحيّا قدوم العمدة.

قالت: لا يمكن للمرء أن يعتقد أن سيّارة تحترق من ذاتها بهذه الطريقة.

أجابها: كلا، هل رأى أحدكم أيَّ شيء مريب؟

كلا سيدي، لم نلاحظ سوى وجود النار المشتعلة.

ألم تشعروا بوجود أي تحرُّكات؟

كلا سيدي.

ألا تبدو هذه السيارة من نوع فورد موديل 77، يا وندل؟

يمكن أن تكون كذلك.

إلا أنني أميل إلى تأكيد ذلك.

هل كانت هذه هي السيارة التي كان يقودها ذلك الفتى؟

نعم، لأنها تحمل لوحات من دالاس.

ولم يكن ذلك اليوم يومه، أليس كذلك أيها العمدة؟

من المؤكد أنه لم يكن يومه.

لماذا تظن أنهم أشعلوا النار فيها؟

لست أدري.

استدار وندل وبصق على الأرض: وهذا ما لم يكن في ذهن الفتى عندما انطلق من دالاس، إني لا أعتقد ذلك.

هزّ بيلّ رأسه وقال: كلا، أعتقد أن إحراق السيارة هو آخر شيء كان يمكن أن يفكر به.

* * *

وفي الصباح، عندما وصل إلى مكتبه، كان الهاتف يرن. لم يكن توربرت قد عاد بعد. أخيراً اتصل الأخير عند الساعة التاسعة والنصف، فأرسل بيلّ وندل ليأتي به. ثم جلس مُسنداً كلتا قدميه على المكتب، واستغرق في التأمل في فردتي حذائه. بقي على حاله لبعض الوقت، ثم التقط هاتفه الخلوي، واتصل بوندل.

أين أنت الآن؟

لقد اجتزت لتوّي ساندرسون كانيون.

إذاً استدِر في مكانك وعدْ أدراجك.

حسناً، وماذا عن توربرت؟

اتصلْ به وقلْ له أن يلازم مكانه. ولسوف آتي أنا إليه بعد ظهر هذا اليوم.

نعم سيدي.

اذهب إلى بيتنا وخذ مفاتيح الشاحنة من لوريتّا واربط بها عربة نقل الجياد. أسرِجْ حصاني وحصان لوريتّا، وقم بشحنهما. وسأراك هناك بعد ساعة من الآن.

نعم سيدي.

أقفل الخط ونهض واتجه نحو السجن في جولة تفقديّة.

* * *

قادوا السيارة من خلال البوابة ثم قاموا بإغلاقها وراءهم بعد ذلك، واستمروا في القيادة نزولاً في محاذاة السياج لمسافة مئة قدم ثم توقفوا. حرَّر وندل أبواب عربة شحن الجياد، وقاد الجوادين إلى خارجها. أمسك بيلّ بعناني الحصانين، حصانه وحصان زوجته، وقال: اركب أنت على الحصان ونستون.

هل أنت متأكد مما تقوله؟

بالطبع، إني أكثر من متأكد. فإن أيَّ شيء قد يحدث لحصان لوريتّا، أستطيع أن أقول لك الآن وبكل تأكيد أنك لن ترغب في أن تكون فارسه.

ناول العمدةُ وندلَ واحدة من البنادق التي تعمل بمبدأ العتلة، والتي كان قد جلبها معه، ثم وثب إلى ظهر الحصان وثبَّت قبعته فوق رأسه. قال: أأنت مستعد؟

ركبا وسارا جنباً لجنب. قال بيل: لقد مشينا على آثار عجلاتهم، لكنك مع ذلك لا تزال تستطيع أن ترى ما هو نوعها، عجلات كبيرة تتجاوز العرض المألوف الذي تحتاجه العربة العادية من الطريق.

وعندما أدركا السيارة كانت قد غدت عبارة عن هيكل أسود.

قال وندل: كان الحق معك في ما يتعلق باللوحات.

مع أنني أخطأت في ما يتعلق بالعجلات.

كيف ذلك.

لقد قلتُ إنها لا تزال تشتعل.

كانت السيارة تربض فوق ما يبدو أربع بُركٍ من السخام، وقد ظهر أن العجلات كانت تحتوي على شُلَلٍ من الشريط المعدني تحيط بها. تابعا السير راكبين. كان بيلّ يشير إلى الأرض من وقتٍ لآخر، قال: إن بإمكانك التفريق بين آثار العجلات في النهار، وبين تلك الحادثة في الليل، فلقد كانوا يقودون في هذا المكان في الليل دون إضاءة للأنوار. انظر هناك كيف أن آثار العجلات ملتويّة؟ إنها تبدو كما لو أنك لا ترى أمامك سوى ما يكفيك لتحاشي الأجمات التي تبرز أمامك. وإلا فإنك قد تترك بعض آثار الطلاء على صخرة كتلك التي نراها هناك.

وفي منطقة تجمّع فيها الطمي الرمليّ، ترجّل عن الحصان، وتمشّى إلى الأعلى، وإلى الوراء، ثم نظر بعيداً نحو الجنوب: إنه أثر العجلة نفسه يعود مرة أخرى كما كان يبدو في الأسفل. وهو أثر قد انطبع على التراب في الوقت نفسه، فأنت ترى نقشة العجلة بكلِّ وضوح. ففي أيّ طريق تُراهم قد ذهبوا؟ إن هذه آثار عائدة لرحلتين اثنتين أو أكثر حسب اعتقادي.

امتطى وندل جواده ويداه مشبوكتان باللجام، انحنى وبصق. نظر نحو الجنوب شأنه في ذلك شأن العمدة: ما الذي تعتقد أننا نحاول العثور عليه هنا؟

قال بيل: لست أدري. ثم وضع قدمه في الركاب، ورفع نفسه بسهولة فوق السرج، ودفع الحصان الفتيّ للسير إلى الأمام. قال من جديد: لست أدري، لكنني لا أستطيع قول الكثير من مجرد النظر إلى هذه الآثار.

عندما وصلا إلى سيارة موسّ البيك أبّ، جلس العمدة وتفحّصها ثم دار بحصانه حولها ببطء. كان باباها مفتوحين.

قال: إن شخصاً ما، قد اقتلع رقاقة التحقُّق المعدنيّة عن عمود الباب.

لكن الأرقام موجودة أيضاً على جسم الهيكل.

أجل، ولا أظن أنهم قد قاموا بانتزاعها لهذا السبب.

إنني أعرف هذه العربة.

وأنا كذلك.

انحنى وندل وربَّت على رقبة الحصان: إن اسم صاحبها هو موسّ.

صحيح.

استدار بيلّ بجواده إلى خلف العربة، ثم أدار وجه الحصان نحو الجنوب ونظر إلى وندل: أتعرف مكان سكنه؟

لا يا سيدي.

إنه متزوج، أليس كذلك؟

نعم، أعتقد أنه متزوّج.

استوى العمدة على سرج حصانه ينظر إلى العربة: لقد كنت أفكر أنه سيكون من الغريب ألا يذكر أحدهم عنه شيئاً إن كان مفقوداً منذ يومين أو ثلاثة!!

نعم سيكون ذلك أمراً غريباً حقاً!

نظر بيلّ نزولاً نحو الحوض البركاني، وقال: أظن أنه قد حصل كمٌّ حقيقيٌّ من الأذى في هذه البقعة.

إنني آذان صاغية إليك أيها العمدة.

أتظنُّ أن الرجل مهرب مخدرات؟

لست أدري. لكنني لا أظن ذلك.

ولا أظن أنا ذلك أيضاً. دعنا نترجّل هنا وندقق في بقية أجزاء هذا اللغز.

ركبا متجهين إلى بطن الحوض البركاني، وكلاهما يرفع سلاحه الونشيستر أمامه فوق حشوة السرج الأمامية. قال بيلّ: آمل ألّا نجد جثة هذا الرجل أمامنا هنا. لقد بدا لي أنه شاب على درجة مقبولة من الاحترام في المرة أو المرتين اللتين التقيته فيهما. كما أن له امرأة جميلة أيضاً.

مرّا بالقرب من الجثث الملقاة على الأرض، فتوقفا وترجّلا، وأرخى كل منهما سير لجام حصانه إلى الأرض. حرَّك الحصانان أقدامهما في حركة عصبيّة.

دعنا نُبعد الحصانين عن هذا المكان قليلاً. فإنهما لا يحتاجان إلى رؤية هذا المشهد.

نعم، سيدي.

عندما رجعا، ناوله بيلّ محفظتي جيب كان قد استخرجهما من ثياب القتلى، ونظر في اتجاه الشاحنات.

قال: لم يمضِ وقت طويل على وفاة هذين القتيلين.

ومن أين هما؟

إنهما من دالاس.

ناول وندل مسدساً كان قد التقطه ثم انحنى على البندقية التي كان يحملها، وقال: هذان القتيلان كان قد جرى إعدامهما عن قرب، لقد نفَّذ بهما ذلك أحد أفراد جماعتهما. فهذا القتيل لم يتمكّن حتى من رفع صمام الأمان في مسدسه. كما أن كلاهما قد أطلقت عليه النار بين عينيه.

وهل كان القتيل الثاني لا يحمل مسدساً؟

قد يكون القاتل قام بسلبه منه. وربما كان لا يحمل مسدساً من الأساس.

إنها طريقة سيئة للذهاب إلى قتال بالمسدسات.

أجل إنها لكذلك.

مشيا بين الشاحنات. قال وندل: هؤلاء الأوغاد سيئون كالخنازير.

رمقه بيلّ بنظرة طويلة.

قال وندل: الحق معك، أعتقد أن على المرء أن يحترس من لعنِ الموتى.

إن بي ميلاً إلى القول إننا ربما لن نخرج بنتيجة.

إنهم مجرد عصابة من مهربي المخدرات المكسيكيين.

لقد كانوا كذلك. أما الآن، فلا.

لست أفهم قصدك من قول ذلك!

إن كلَّ ما أقوله هو أنهم الآن، ومهما كانوا يفعلون في السابق، مجرد أموات.

عليّ أن أرجئ الجواب على ذلك.

أحنى العمدة رأسه نحو مقعد البرونكو ناظراً إلى المنطقة الواقعة خلف المقعد. رطّب أصبعه وقام بدسِّها فوق سجّادة الأرضية ثم رفعها إلى الضوء. قال: يبدو أن هذا من آثار تلك المادة المخدرة السمراء المكسيكية التي كانت موضوعة في الجزء الخلفي من جسم السيارة. مع أن المادة قد تمّ سحبُها منذ زمنٍ، أليس كذلك؟

نعم تمّ سحبها منذ مدة.

جلس وندل القرفصاء، وتفحّص الأرض تحت الباب. قال: يبدو أن هنالك المزيد من هذه المادة على الأرض. وقد يكون أحدهم قد قام بإحداث ثقب في إحدى عبوات هذه المادة ليرى ما الذي يوجد في داخلها.

قد يكون فعل ذلك للتأكد من نوعية البضاعة قبل إبرام الصفقة.

لا يبدو أن الصفقة قد تمَّت بينهم، إذ انتهى الأمر بهم بإقدام بعضهم على قتل البعض الآخر.

أومأ بيل برأسه إيجاباً.

وربما لا يكون هنالك أيّ عنصر نقودٍ في هذه العملية.

كل شيء ممكن.

لكن ليس هذا هو اعتقادك.

فكّر بيلّ في المسألة. ثم قال له: كلا، ربما لا يكون هذا هو اعتقادي.

إن هنالك إشكالية أخرى محيِّرة هنا.

قال بيلّ: نعم، إشكالية واحدة على الأقلّ.

نهض ودفع المقعد إلى الوراء. قال: إن هذا المواطن الصالح قد أطلقت عليه النار بين عينيه أيضاً.

صحيح.

مشيا حول الشاحنة، أشار بيلّ بإصبعه.

لقد أطلقت النار على هذا القتيل من بندقية آلية، فرصاصتها تذهب إلى مسافة أعمق.

أوافق معك أنها تفعل هذا. ولكن أين تظن أن سائق الشاحنة قد ذهب؟

لعله أحد هؤلاء القتلى المطروحين على العشب هناك.

أخرج بيلّ منديله ورفعه فوق أنفه، ثم مدّ يده والتقط عدداً من ظروف القذائف الفارغة عن الأرض ونظر إلى الأرقام المحفورة على قاعدتها.

ما هي العيارات التي وجدتها أيها العمدة؟

إنها من عيار 9 ملم. وهنالك اثنتان من عيار 0.45 آي سي. بّي.

رمى الظروف من يده على الأرض، وتراجع قليلاً والتقط بندقيته من المكان الذي كان قد أسندها فيه إلى العربة. قال: يبدو أن أحدهم قد أطلق النار على هذه العربة من بندقية رشّاشة، حسبما تظهر الدلائل.

أتعتقد أن هذه الثقوب كبيرة بما يكفي للدلالة على ذلك؟

لا أعتقد أن ذلك احتمال أساسي. فالأرجح أن تكون ناتجة عن خردق كبير رقم أربعة، المخصص لصيد الأيائل.

رصاص أكثر مع كل طلقة.

يمكنك تفسير الأمر بهذه الطريقة. فأنت تريد إزاحة حليف لك قد يتجاوز حدوده.

نظر وندل إلى الحوض البركاني. قال: حسناً، لقد خرج أحدهم من هذه الثغرة.

وإني لأقول قولك.

وكيف تفسّر عدم مهاجمة الذئاب لهذه الجثث؟

هزّ بيلّ رأسه، وقال: لست أدري، أفترض أن الذئاب لا ترغب في نهش لحم المكسيكيين.

لكن القتلى هناك ليسوا مكسيكيين.

هذا صحيح.

يبدو الأمر هنا أشبه بمسارح فيتنام.

قال العمدة: فيتنام!

مشيا بين الشاحنات. التقط بيلّ بعض الظروف الفارغة الأخرى ونظر إليها قبل أن يرميها من يده ثانية. التقط حقنة بلاستيكية زرقاء لحقن المخدرات. ثم وقف وأجال بنظره فوق المشهد الطبيعي. قال: سوف أقول لك ماذا.

قلْ لي.

إنني لا أجد سبباً مقنعاً يجعلني أعتقد بأن الشخص الأخير قد نجا من إصابة ما، تماماً.

وإنني لأميل إلى موافقتك في ذلك.

إذاً لمَ لا نركب حصانينا ونقوم بجولة تفتيشية حولنا؟ فلربما نقع على إشارة تدلّنا على شيء ما.

يمكننا أن نقوم بذلك.

أتستطيع أن تخبرني ما هي حاجتهم إلى الكلب هنا؟

ليس لديّ من فكرة.

وعندما عثرا على جثة رجل آخر بين الصخور الواقعة على بعد ميلٍ واحد إلى الشمال الشرقي، فإن بيلّ أوقف حصان زوجته. وبقي على صهوة الجواد يفكّر لمدة طويلة.

بمَ تفكر أيها العمدة؟

هزّ العمدة رأسه. ترجّل عن ظهر حصانه ومشى إلى المكان الذي تضطجع فيه الجثة. مشى فوق التراب وبندقيته معلقة إلى كتفه. ثم ما لبث أن جلس القرفصاء وبدأ يتمعن في العشب.

هل حدثت حادثة إعدام أخرى في هذا المكان أيها العمدة؟

كلا، يبدو أن هذا الرجل قد مات ميتة طبيعية.

ميتة طبيعية؟

إنها طبيعية بالقياس إلى المهنة التي كان يمتهنها.

إنه لا يحمل مسدساً.

كلا.

انحنى وندل وبصق. ثم قال: لا بد أن شخصاً ما، وصل إلى هنا قبلنا.

إني أظن ذلك.

أتعتقد أنه قد قام بأخذ الأموال؟

أعتقد أن هذا الاحتمال ممكن جداً.

هذا يعني أننا لم نعثر بعد على الرجل الأخير، أليس كذلك؟

لم يجب بيلّ بجواب. بل إنه وقف وأجال أنظاره في المشهد الطبيعي.

إنها أحجية مختلطة، أليس كذلك أيها العمدة؟

إذا لم تكن كذلك، فسيكون لنا منها ما يكفينا إلى أن تصل الأحجية إلى هنا.

تابعا الركوب عبر الطرف العلويّ من الحوض البركاني. ثم أوقفا الحصانين ونظرا إلى شاحنة موسّ.

قال وندل متسائلاً: أين تعتقد أن هذا الرجل موجود الآن؟

ليس عندي أيّ طرف معرفة.

أظنُّ أن تقصّي أحواله، وأماكن تواجده قد باتت تحتلُّ الآن أهمية كبيرة في خطة عملك القادمة.

أومأ العمدة إيجاباً، وقال: أجل إنها تحتل أولوية عالية.

قادا شاحنتهما عائدين إلى البلدة، وهناك أرسل العمدةُ وندلَ إلى البيت لإعادة الشاحنة والحصانين.

اذهب واقرع باب المطبخ، ولا تنس أن تشكر لوريتّا.

سوف أفعل ذلك. وعليّ أن أعيد المفاتيح إليها في كل حال.

إن المقاطعة لن تدفع لها أجراً مقابل استعمالنا لحصانها.

لقد سمعتُك.

اتصل بتوربرت على الهاتف الخلوي. قال له: إنني ذاهب لإحضارك. ابقَ ملازماً مكانك.

عندما أوقف سيارته أمام مكتب لامر، كان الشريط العازل الذي نصبه البوليس، لا يزال قائماً حول المساحة المزروعة قرب مبنى السرايا. وكان توربرت يجلس على الدرج. نهض ومشى نحو السيارة.

سأله بيل: هل أنت على ما يرام؟

نعم سيدي.

أين هو العمدة لامر؟

لقد خرج لتلبية نداء.

قادا سيارتهما في اتجاه الطريق السريع. قام بيل بإخبار مساعده عن مشاهداته في الحوض البركاني. فيما بقي توربرت مصغياً في صمت. تابع قيادة السيارة ناظراً من النافذة. وبعد لحظة قال: لقد تلقيت التقرير من أوستن.

وماذا يقولون فيه؟

لا يقولون فيه شيئاً كثيراً.

بأيّ سلاحٍ كان قد أصيب؟

إنهم لا يعلمون.

تقول إنهم لا يعلمون؟

كلا، إنهم لا يعلمون يا سيدي.

كيف يمكنهم ألّا يعلموا؟ إنه لم يكن هنالك من فتحة قد خرجت الرصاصة منها.

نعم سيدي، لقد اعترفوا بهذه الحقيقة بكلٍّ وضوح.

تقول اعترفوا بها بوضوح من تلقاء ذاتهم؟

نعم سيدي.

حسناً، ما الذي قالوه بالضبط بحق الجحيم، يا توربرت؟

لقد قالوا إنه قد أصيب بجرح يشبه إلى حد كبير الجرح الذي يحدثه اختراق مقذوفة كبيرة الحجم من عيارٍ ناريّ، وذلك في جبهته، كما قالوا إن الجرح المشار إليه قد توغّل إلى مسافة تقارب الإنشين ونصف الإنش تقريباً، في عمق الجمجمة، وفي الفصّ الأمامي من الدماغ، لكنهم مع كل ذلك، لم يتمكنوا من العثور على أية مقذوفة في داخل الجرح.

في داخل الجرح المذكور نفسه.

نعم سيدي.

دخل بيلّ بالعربة إلى الطريق العابر للولايات. نقرَ بأصابعه على وجه دولاب القيادة. ثم نظر إلى مساعده.

إن ما تقوله لي يخالف المنطق، يا توربرت.

لقد قلتُ لهم ذلك بدوري.

وماذا كان جوابهم؟

لم يتمكنوا من الإجابة بشيء. وسيقومون بإرسال تقريرهم عبر خدمة البريد السريع مع صور الأشعة، وجميع المستندات. قالوا إن كل هذه الأشياء ستصل إليك في مكتبك غداً صباحاً.

تابعا القيادة في صمت. ولكن بعد فترة من الوقت ما لبث توربرت أن قال: إن هذا الشيء برمّته لا بدّ له إلاّ أن يزيد شيئاً في المسرح العام، ألَيس كذلك أيها العمدة.

نعم سيكون كذلك.

كم هو عدد الجثث جميعاً؟

سؤال جيد. لست متاكداً من أنني قد قمت بعدِّ تلك الجثث فعلاً. فهي ربما تكون ثماني أو تسع جثث، بما في ذلك جثة المعاون هاسكينز.

أجال توربرت بأنظاره في المشهد الطبيعي العام. كانت الظلال تمتد إلى مسافات طويلة فوق الطريق. قال: من هم هؤلاء الناس بحق الجحيم؟

لست أدري. لقد اعتدتُ القول إنهم هم الناس إياهم الذين اعتدنا أن نتعامل معهم دائماً. الأناس أنفسهم الذين اعتاد جدي أن يتعامل معهم. في الماضي كانوا يرعون الغنم، أمّا الآن فإنهم يقومون بتهريب المخدرات. لكنني لم أعد أعرف إن كان هذا لا يزال حقيقياً. إنني مثلك. وإنني لست متأكداً من أننا صادفنا مثل هؤلاء الناس من قبل. أناس من هذا النوع. كما أنني لست أدري ما عليّ العمل إزاءهم. فحتى لو أنك قضيت عليهم جميعاً في الدنيا، فإنهم سيقيمون ملحقاً لهم في جهنم.

* * *

وصل تشيغور إلى ديزيرت آيري بُعيد الظهر بقليل وأوقف سيارته بالقرب من المقطورة التي هي منزل موسّ، وأطفأ المحرك. خرج من السيارة، ومشى عبر الفسحة الترابية الخارجية، وتسلق الدرج، وقرع باب الألمنيوم. انتظر قليلاً ثم عاد إلى قرع الباب من جديد. استدار جاعلاً ظهره إلى المقطورة، وأجال نظرة دقيقة في فسحة الخلاء الضيقة المحيطة بالبيت. لا شيء يتحرك. حتى الكلاب لا وجود لها. استدار ووضع قبضته حول قفل الباب وحرَّر أسطوانة القفل مستعيناً بقادح مسدسه ثم فتح الباب ودخل وأغلقه خلفه.

وقف وهو يحمل مسدّس مساعد العمدة في يده، فتّش المطبخ، وقفل عائداً إلى غرفة النوم. ومشى عبرها ففتح باب الحمّام، ثم ما لبث أن ذهب إلى الغرفة الأخرى. كانت الملابس ملقاة على الأرض. وقد تُركت الخزانة مفتوحة. فتح دُرج المزينة العلويّ وأعاد إغلاقه. أعاد المسدس إلى زنّاره وألقى ذيل قميصه فوقه وقفل عائداً إلى المطبخ.

فتح باب الثلاجة واستخرج كرتونة حليب ففتحها وتشمَّمها وشرب منها. وقف هناك يحمل كرتونة الحليب بيدٍ وهو ينظر من خلال الشباك إلى الخارج. شرب المزيد من الحليب ثم أعاد الكرتونة إلى الثلاجة وأغلق بابها ثانية.

ذهب إلى غرفة الجلوس وجلس على الأريكة. وجد قبالته جهاز تلفاز في حالة جيدة يبلغ حجم شاشته واحداً وعشرين إنشاً. كان الجهاز مركوناً فوق الطاولة. نظر إلى نفسه عبر شاشة التلفاز الرمادية المطفأة.

نهض والتقط الرسائل البريدية من عند عتبة الباب، ثم عاد وجلس في موضعه وفحص الرسائل بين يديه. طوى ثلاث رسائل وقام بوضعها في جيب قميصه ثم نهض وغادر المنزل.

قاد سيارته وأوقفها أمام مكتب التأجير ودخل. قالت له المرأة الموجودة في المكتب: نعم سيدي.

قال لها: إنني أبحث عن لِلْوين موسّ.

أمعنت النظر في هيئته: هل ذهبت إلى مقطورته؟

نعم فعلتُ ذلك.

حسناً، أظن أنه في عمله. أتريد أن تترك له رسالة عندنا؟

وأين هو مقر عمله؟

سيدي، لست حرة كي أعطي معلومات عن المقيمين عندنا.

نظر تشيغور إلى المكتب الخشبي الهزيل، ثم نظر إلى المرأة، وقال: أين هو مقر عمله؟

سيدي؟

قلت لكِ أين هو مقر عمله؟

ألم تسمعني؟ إننا لا نستطيع إعطاء معلومات.

سُمع صوت جدول الماء في دورة المياه. تبع ذلك صوت إدارة مغلاق الباب. نظر تشيغور إلى المرأة مرة أخرى. ثم ما لبث أن خرج وركب عربته الرامتشارجر، وغادر منطلقاً بها.

توقف ودخل أحد المقاهي، وهناك استخرج المغلفات الثلاثة من جيب قميصه فأفردها جميعاً. وقام بفضّ إحدى الرسائل، وقرأ ما فيها. فتح فاتورة الهاتف، ونظر في حساب المكالمات المجراة. وجد أن هنالك مكالمات قد أجريت إلى ديل ريو، وإلى أوديسّا.

دخل إلى عمق المقهى وحصل على بعض الفكّة من النقود المعدنية، ثم ذهب إلى الهاتف العمومي وقام بطلب الرقم العائد إلى ديل ريو، لكن

لم يُجبه أحدٌ. طلب رقم الهاتف العائد إلى أوديسّا. أجابت امرأة على المكالمة، فسألها عن لِلْوين. ردّت المرأة بما يفيد أنه غير موجود هناك.

لقد حاولت الوصول إليه في ساندرسون، لكنني أعتقد أنه لم يعد هناك.

ساد صمت قليل. ثم قالت المرأة: لست أدري شيئاً عن مكان وجوده. من المتكلم؟

أغلق تشيغور السمّاعة، وذهب إلى نضد المقهى، وجلس، وطلب فنجاناً من القهوة. قال في نفسه: أيكون لِلْوين في السجن؟

* * *

عندما أوقف سيارته أمام المرآب، كان هنالك رجلان يجلسان وهما يسندان ظهريهما إلى جدار المبنى، وكل منهما منهمك بتناول غدائه. ولج إلى الداخل، وهنالك وجد رجلاً ثالثاً يجلس وراء النضد وهو يحتسي القهوة ويستمع إلى الراديو. قال الرجل: نعم سيدي؟

كنت أبحث عن للوين.

إنه غير موجود.

في أيٍّ وقت تتوقع عودته؟

لست أدري. لم يأتِ ولم يتصل، لذلك فإن علمي حوله يشابه علمك. أناخ برأسه قليلاً كما لو أنه يلقي نظرة أخرى أكثر دقة نحو تشيغور، وتابع كلامه: هل من خدمة أستطيع تقديمها إليك؟

لا أظن ذلك.

وفي خارج المرآب، وقف على الرصيف الملطّخ بزيوت السيارات. نظر إلى الرجلين الجالسين عند طرف المبنى.

أتعرفان شيئاً عن مكان وجود للوين؟

هزا برأسيهما نفياً. ركب تشيغور سيارته الرامتشارجر وانطلق بها عائداً في اتجاه البلدة.

* * *

وصلت الحافلة إلى ديل ريو بعد انتصاف النهار بقليل، جمع موسّ حوائجه وترجّل منها. مشى إلى موقف العربات، وفتح الباب الخلفي لإحدى العربات المتوقفة هناك، ودخل إليها وقال للسائق: خذني إلى فندق صغير.

نظر السائق إليه من خلال المرآة، وقال: هل هنالك فندق معين في ذهنك؟

لا، ولكن خذني إلى فندق يكون رخيصاً.

قاد السائق سيارته به إلى فندق يدعى ترايل موتيل، فخرج موسّ هنالك مع حقيبة ملابسه وحقيبة النقود، ونقد السائق أجرته ودخل إلى مكتب الفندق. كانت هنالك امرأة تجلس وراء المكتب تراقب التلفاز. نهضت واستدارت من خلف مكتبها.

هل توجد لديك غرفة فارغة؟

لديّ أكثر من واحدة. كم ليلة؟

لست أدري الآن.

لدينا تعريفة أسبوعية، وهذا هو سبب سؤالي. إنها خمسة وثلاثون دولاراً زائد دولار واحد وخمسة وسبعين سنتاً كضريبة. فيكون المجموع ستة وثلاثين دولاراً وخمسة وسبعين سنتاً.

ستة وثلاثون دولاراً وخمسة وسبعون سنتاً؟

نعم سيدي.

لمدة أسبوع واحد؟

نعم سيدي، لمدة أسبوع واحد.

وهل هذا هو آخر سعر؟

نعم سيدي. ليس هنالك من حسومات على الأسعار الأسبوعية.

حسناً، لنجعل اتفاقنا إذاً يوماً فيوماً.

نعم سيدي.

تسلّم المفتاح منها ومشى إلى غرفته وأقفل الباب خلفه، ووضع حقائبه فوق السرير. أحكم إغلاق الستائر، ووقف يختلس النظر إلى الخارج من خلالها من مكانه في الفسحة الصغيرة الحقيرة. كان هنالك صمت مطبق. قام بتثبيت سلسلة الباب، ثم جلس على السرير. وفكّ سحّاب كيس القماش الذي يحتوي على حاجاته الشخصية واستخرج من داخله المسدس الآلي وألقاه فوق مفرش السرير، واضطجع بالقرب منه.

عندما استيقظ كان الوقت قد قارب الأصيل. بقي مضطجعاً على ظهره يتأمل سقف الغرفة الملطخ المصنوع من مادة الإسبستوس. جلس، ونزع فردتي حذائه من قدميه، ثم نزع جوربيه، وقام بفحص اللفائف المثبتة على عقبيه. دخل الحمام وتفحّص هيئته في المرآة، ثم خلع قميصه، وفحص مؤخرة ذراعه، فوجد أن لون ذراعه قد اصطبغ من كتفه حتى مرفقه. مشى إلى الغرفة من جديد، وجلس فوق السرير ثانية. نظر إلى المسدس الملقى إلى جانبه. بعد قليل تسلّق فوق الطاولة الخشبية الرخيصة وقام بفكٍّ شبكة أنبوب التهوية مستخدماً رأس سكينه من أجل حلِّ البراغي التي كان يضع كلاً منها في فمه بعد الانتهاء من حلّه. ثم قام بسحب الشبكة وألقاها فوق الطاولة، ووقف على أطراف أصابع قدميه ينظر في داخل أنبوب التهوية.

قام بقطع جزء من الشريط العائد إلى ستارة الشباك المعدنية، ثم قام بربط مقبض الحقيبة بطرف الشريط. ثم فكّ لُسُن تثبيت الحقيبة، وعَدّ ألف دولار من الأوراق النقدية، وطوى هذا المبلغ ووضعه في جيبه، وأقفل الحقيبة ثانية، وقام بتثبيت أحزمتها.

استخرج عمود تعليق الملابس من الخزانة، مزيلاً عنه علاّقات الثياب، ووقف فوق طاولة التزيّن من جديد، وقام بدفع الحقيبة داخل مجرى التهوية إلى البعد الذي مكّنته يداه منه.

بدا حجم الحقيبة مناسباً لحجم المجرى إلى حدود الضّيق. تناول العمود من جديد واستخدمه لدفع الحقيبة مرة أخرى في داخل مجرى التهوية إلى أقصى مدى يسمح له بالتقاط طرف الشريط. أعاد الشبكة إلى مكانها فوق قطعة الألياف التي تعمل على تنقية الهواء ثم قام بإعادة تثبيت البراغي في أماكنها، وذهب إلى الحمام فاستحمّ. وعندما عاد مجدّداً إلى السرير، اضطجع عليه لابساً سرواله القصير، ومتدثراً بالمفرش القطنيّ الذي غطّى به المسدَّس الآلي الذي جعله يرقد إلى جانبه أيضاً دون أن يُقفل صمام الأمان. ثم استسلم للنوم.

عندما استيقظ، كانت العتمة قد خيّمت، طوّح برجليه من حافة السرير وجلس مصيخاً السمع. ثم نهض ومشى إلى الشباك، ورفع الستارة قليلاً، واسترق النظر إلى الخارج. لم يكن هنالك سوى الظلال المعتمة العقيمة، والصمت المطبق، واللاشيء.

ارتدى ثيابه ودسَّ المسدس تحت الفراش تاركاً إياه في حالة جهوزية، ثم مسّد الحواشي، وجلس على السرير، والتقط سماعة الهاتف، وقام بطلب عربة أجرة.

كان عليه أن يدفع للسائق عشرة دولارات إضافية كي ينقله عبر الجسر إلى سيوداد آكونيا. مشى هناك في الشوارع متفقداً واجهات

المحلات. كان المساء دافئاً ومنعشاً، وكانت طيور الألاميدا السوداء اللامعة الريش تأوي إلى أوكانها لتبيت بعد أن ينادي كل طائر على أليفه. دخل إلى محلٍ لبيع الأحذية، وفتّش عن الأحذية المستوردة المصنوعة من جلد التمساح، ومن جلد النعامة، ومن جلد الفيل. لكن جودة الأحذية في هذا المحل لم تكن تضارع جودة الحذاء الذي ينتعله من ماركة لاري ماهانز. ثم ذهب إلى صيدلية واشترى علبة من أربطة التضميد، ثم جلس في الحديقة العامة وقام بترقيع باطن قدميه المؤلمتين. وكانت جواربه منتقعة بالدم. وعند ناصية الشارع توقف سائق عربة ليسأله عمّا إذا كان يرغب في الركوب معه لرؤية الصبايا ومغازلتهن، لكن موسّ رفع له يده ليريه خاتم الزواج في إصبعه، وثابر على المشي.

تعشى في مطعم يضع على طاولاته مفارش بيضاء ويقوم على الخدمة فيه نُدُلٌ يلبسون أردية بيضاء. طلب كأساً من الخمرة الحمراء، وقطعة من الستيك. كان الوقت لا يزال مبكراً على موعد امتلاء المطعم بالزبائن، لذلك كان المكان خلواً إلا منه. ارتشف كأسه، وعندما قدِمت قطعة الستيك تمهّل في تقطيعها وتناولها، وفكّر خلال ذلك كله في شؤون حياته.

عاد إلى الفندق بعد الساعة العاشرة بقليل، وأبطأ في الخروج من عربة الأجرة بينما المحرِّك لا يزال مشتغلاً، وكان لا يزال يعُدُّ النقود التي سيعطيها للسائق أجرة له. مدّ يده بالنقود فوق حافة المقعد، وشرع بالنزول من السيارة لكنه أحجم عن ذلك أخيراً، بل إنه بقي جالساً في مكانه ويده تمسك بمقبض الباب. قال للسائق: أكملِ القيادة بي إلى الجانب الآخر من الفندق.

قام السائق بتعشيق غيار السرعة للإقلاع. سأله: إلى أي غرفة؟

قال: فقط قم بالقيادة بي حول الفندق. فإني أريد أن أتأكد عمّا إذا كان هنالك شيء مريب.

تقدمت السيارة بهما في بطءٍ مارّة بالقرب من غرفته. لاحظ وجود

فجوة في ستارة النافذة، وقد كان شديد التأكد من أنها لم تكن موجودة ساعة مغادرته للغرفة. كان من الصعب عليه أن يجزم في تفسير ذلك. تقدمت السيارة في بطءٍ إلى الأمام. لم تكن هنالك من سيارة في موقف السيارات إلا وكانت موجودة فيه من قبل. قال للسائق: تابع سيرك.

نظر السائق إليه في المرآة.

قال موسّ: تابع السير، لا تتوقفْ أبداً.

لا أريد أن توقعني وقعة من ينال الجائزة الكبرى أيها الرجل.

قلت لك تابع السير.

لمَ لا تنزل من السيارة هنا فوراً مسامَحاً من الأجرة.

إني أريدك أن تأخذني إلى فندق آخر.

ولكن لنضع أمورنا الآن في نصابها الصحيح.

انحنى موسّ إلى الأمام مادّاً له ورقة نقدية من فئة المئة دولار. قال له: إنك وقعت الآن وقعة من ينال الجائزة الكبرى وانتهى الأمر، وإنني أحاول العمل على إخراجك من هذا الموقف. قم الآن بأخذي إلى فندقٍ آخر.

تناول السائق الورقة النقدية ودسّها في جيب قميصه، واستدار إلى خارج موقف السيارات ثم عبر إلى الشارع العام.

أمضى ليلته في فندق رامادا على الطريق السريع، وفي الصباح نزل من غرفته وتناول وجبة الفطور في قاعة الطعام وقرأ الجريدة. ثم بقي جالساً في مكانه.

إنهم لن يكونوا موجودين في غرفته عندما يأتي موعد حضور الخدم لتنظيفها.

إن الوقت المخصص للخروج من الغرفة هو الساعة الحادية عشرة قبل الظهر.

وقد يكونون الآن قد عثروا على النقود وانطلقوا بها.

ما عدا، وبالطبع، أن يكون هنالك، ومن المحتمل جداً، فريقان على الأقل يقومان بالبحث والتحري عنه، وكائناً من يكون هذا الفريق فإنه سيكون مختلفاً عن سواه، وسوف لن يكفّ هذا الفريق الآخر عن البحث عنه رغم ذلك.

عندما نهض من مكانه كان قد أيقن أنه من المحتمل له الآن أن يتورط في قتل أحد الناس. مع أنه لا علمَ لديه من هو ذاك الذي قد يجد نفسه متورطاً في قتله.

استقلّ عربة أجرةٍ وذهب إلى البلدة، ومن هناك ذهب إلى مخزن لبيع المعدات الرياضية، فاشترى بندقية رشٍّ ماركة ونشيستر، عيار 12، كما اشترى صندوقاً من خرطوش صيد الأيائل المضاعفة القوة. يحتوي هذا الصندوق تقريباً على قوة النار نفسها التي يحدثها لغم الكَلْمور. طلب من البائع القيام بتغليف البندقية وغادر المحل وهو يحملها تحت إبطه، ثم مشى في شارع بيكان، حيث دخل إلى محل لبيع الخردوات. وهنالك اشترى منشاراً لنشر المعادن، كما اشترى مبرداً مسطّحاً رقيقاً، وبعض الأدوات الأخرى المتفرقة؛ كمّاشة، وقرّاضة جانبية، ومفكّ براغٍ، ومصباحاً يدوياً كشافاً، وبكرة من الشريط اللاصق الصالح لتلصيق المواسير.

وقف على رصيف المشاة مع مشترياته. ثم استدار واتجه إلى أسفل الشارع من جديد.

دخل إلى مخزن المعدات الرياضية مرة ثانية وسأل البائع عمّا إذا كان يتوفر لديه بعض أعمدة الخيم المعدنية، وحاول أن يوضح له أنه غير مهتمٍّ بنوع الخيمة، لأنه ليس في حاجة سوى إلى الدعائم.

نظر البائع إليه نظرة متفحّصة. قال له: مهما كان نوع الخيمة التي نبيعها، فإننا مع ذلك نحتاج إلى طلب دعائم تكون مخصصة لها بموجب

طلبية شراء خاصة. لذلك، فإن عليك تزويدنا باسم الصانع ورقم الطراز.

إنك تبيع الخيم، أليس كذلك؟

إن لدينا منها ثلاثة طُرُز مختلفة.

ما هو النوع الذي يأتي معه أكبر قدر ممكن من الدعائم؟

أظن أنه خيمتنا التي يبلغ طول جدارها عشرة أقدام. وهي خيمة عالية يمكنك الوقوف بداخلها، ولها فضاء يعلو إلى ستة أقدام عند الحافة.

دعني آخذ واحدة من هذا الطراز.

حاضر سيدي.

قام البائع بإحضار الخيمة من غرفة التخزين، وألقى بها فوق النضد. وكانت ملفوفة في حقيبة من النايلون البرتقالي اللون. ألقى موسّ بندقية الرشّ، وكيس الخردوات على ظهر النّضد، وقام بفكّ الخيوط، وسحب الخيمة من الحقيبة مع ما يرافقها من حبال ودعائم.

قال البائع: إن كل لوازمها موجودة معها.

بكم أنا مدين لك؟

إن سعرها هو مئة وتسعة وسبعون دولاراً ما عدا الضريبة.

ألقى له على النضد بورقتين من فئة المئة دولار، كانت دعائم الخيمة منضّدة في كيس مستقلٍّ فقام بسحبه إلى خارج الحقيبة ووضعه مع أشيائه الأخرى. ردّ له البائع الباقي، كما قام بتسليمه الإيصال، فقام موسّ بجمع بندقية الرش وبقية مشترياته من الخردوات معاً إلى جانب دعائم الخيمة، وشكر البائع واستدار مغادراً. ناداه البائع: وماذا عن الخيمة؟

عندما بلغ غرفته، قام بفك بندقية الرشّ وثبّتها بواسطة درج مفتوح، وأمسك بها، وقام بنشر سبطانتها من أمام المخزن تماماً. ثم قام بتهذيب

المقطع بالمبرد، ومسح السبطانة بقطعة قماش رطبة ووضعها جانباً. ثم قام بنشر قاعدة البندقية الخشبية بطريقة لم تُبقِ منها سوى مقبض لا يزيد حجمه عن مقبض المسدس، ثم جلس على السرير وهذّب المقبض، وصقله بالمبرد. وعندما تمّت له صنعته على الوجه الذي أراده، جرَّ المزلقة إلى الوراء، ثم دفعها إلى الأمام ثانية وأنزل الناقر ببطء مستعيناً بإبهامه. وقلّب البندقية يميناً وشمالاً وتفحّصها. بدت له صنعة جيدة. أدارها من جديد، وفتح حُجيرة الذخيرة ولقّمها بالطلقات المشمّعة تشميعاً ثقيلاً، طلقة تلو الأخرى، أرجع المزلقة إلى الوراء وأدخل طلقة أخرى في المخزن، وألقى البندقية عرضاً في حضنه. لقد بات طولها الآن أقل من قدمين.

قام بالاتصال مع فندق ترايل، وطلب من السيدة إبقاء غرفته محجوزة له. ثم قام بوضع البندقية والعيارات والخردوات تحت الفراش، وخرج من الغرفة من جديد.

ذهب إلى مخزن وول مارت، واشترى بعض الثياب وكيساً من البلاستيك ذا سحّاب محكم، وألقى الثياب بداخله، كما اشترى سروالاً من الجينز، وقميصين وبعض الجوارب. وبعد الظهر، قام بنزهة طويلة مشياً على الأقدام، على ضفاف البحيرة، آخذاً معه سبطانة البندقية المبتورة، والقسم الخشبي المبتور من العقب في كيس. طوّح بالسبطانة إلى مياه البحيرة إلى أقصى ما استطاع إليه من مدى. وقام بدفن الخشب المبتور من العقب تحت طنف صخري. وكان هنالك قطيع غزلان يتحرك بعيداً عنه خلال الشجر الخفيض في البيداء المقابلة. لقد كان باستطاعته سماع نخير أفراد القطيع، كما كان يستطيع رؤيتها عندما تبرز من حافة الجرف على بعد مئة ياردة منه وهي تقف للنظر إليه. جلس على شاطئٍ من الحصى ومعه الكيس الفارغ مطوياً في حضنه، واستغرق في مراقبة غروب الشمس. راقب كيف أن الأرض استحالت زرقاء باردة. طار عقاب في اتجاه البحيرة ثم خيّم الظلام.

IV

كنتُ عمدة لهذه المقاطعة منذ الخامسة والعشرين من عمري. وهو أمرٌ يصعب تصديقه. لم يكن والدي رجلاً من رجال القانون. لكن جاك كان جدي. وقد كنت أنا وجدي يشغل كلٌّ منّا مركز العمدة في الوقت نفسه، هو كان في بلانو، وأنا كنت هنا. أعتقد أنه كان شديد الفخر بسبب ذلك. وإنني متأكد من الشعور بالفخر كذلك، عندما يتعلق الأمر بي. كنت قد عدت لتوِّي من الحرب، ولقد نلتُ بعض الأوسمة، وما أشبه ذلك. ولا بدّ من أن الناس كانوا قد تنسّموا رائحة هذا الأمر. لقد خضتُ حملة انتخابية قاسية. ولم يكن هنالك بدٌّ من ذلك. كما حاولتُ دائماً أن أكون عادلاً منصفاً. كان جدي جاك يقول: في أي مرة تقوم فيها بتلطيخ سمعة غيرك في الوحل، تخسر بعض التراب من تحت قدميك. لكنني أعتقد أن المسألة تتعلق بقلّة ميله الأصيلة، إلى تلطيخ سواه، أكثر مما تتعلق بالتزامه بهذا الشعار. هذه الطبيعة كانت تمنعه من تناول سواه. ولم أكن أنا مرة لأهتم بأن أكون نسخة عنه. لقد تزوجتُ أنا وزوجتي منذ واحد وثلاثين عاماً. وليس لنا الآن أولاد. إذ كنا قد فقدنا طفلة لست الآن في وارد الكلام عنها. لقد أدّيت خدمتي كعمدة لدورتين، قبل أن ننتقل بعد ذلك إلى دانتون في تكساس. لقد اعتاد جاك القول: إن كون المرء عمدة هو أفضل وظيفة يمكن له أن يحصل عليها، أما أن يكون المرء عمدة سابقاً فهو أسوأ ما يمكن أن يحصل له. ولربما تكون هنالك أشياء كثيرة شبيهة بذلك. ولقد بقينا، وبقينا، على ما نحن عليه. كنت قد تعاطيت في أمور كثيرة. فلقد عملتُ مفتشاً على طريق سكة الحديد لمدة من الزمن. وفي ذلك الوقت لم تكن زوجتي متأكدة تماماً من ضرورة عودتنا إلى هنا، ولا حول ترشحي للانتخابات المتعلقة بمنصب العمدة. لكنها وجدتني راغباً في ذلك، فكان ما كان. إنها إنسانة أفضل مني، وهذا أمرٌ لا أتردد في الاعتراف به أمام كل من يريد أن يسمعني. إنني لا أعطيها إن قلت ذلك، فوق ما تستحقه. فإنها أفضل إنسان قد صادفته في حياتي. ونقطة على السطر.

يظن الناس أنهم يعرفون كل ما يريدون معرفته، لكنهم على العموم يخفقون في ذلك. إن كان الحظ حليفهم، ينالون تلك المعرفة بمختلف الأشكال. أما بالنسبة لي، فقد كان الحظ يحالفني دائماً. لقد حالفني طيلة حياتي، وإلا لما كنتُ هنا لأكتب لكم ما أكتب. لقد مررت بورطات كثيرة لكنني، وفي اليوم الذي صادفتُها فيه خارجة من كيرز ميركانتايل، وتقوم بعبور الشارع، ثم تمرُّ بالقرب مني، ما كان مني يومها سوى أن حييتها برفع إصبعيّ إلى قبّعتي، فنالني منها ابتسامة وجيزة. تلك الحادثة كانت الحادثة الأكثر حظاً في حياتي.

هذا ويشتكي الناس بسبب الأشياء السيئة التي تحدث لهم، على أساس أنهم لا يستحقونها، لكنهم نادراً ما يذكرون النِّعم. وحول الأفعال التي يفعلها الناس كي يستحقوا النِّعم، فلا أتذكر أنني فعلت شيئاً يستحق أن يُنعم الله علي تجاهه الإنعام الذي أنا فيه، فالله كثير النعم، وقد أنعم عليّ أكثر مما أستحق.

عندما دخل بيلّ إلى المقهى صباح يوم الثلاثاء، كان ضوء الصباح لم يكد يستتب بعد. تسلم جريدته وذهب إلى طاولته في الزاوية. وقد أومأ له الرجال الذين مرّ بهم وهم يجلسون حول الطاولة الكبيرة برؤوسهم، تحية لعمدتهم الذي لاقوه أيضاً ببعض كلمات الترحيب. أحضرت له النادلة قهوته ثم عادت إلى المطبخ وأمرت بإعداد طبق البيض له. جلس يحرك فنجان قهوته بالملعقة رغم أنه لم يكن في حاجة لذلك ما دام أنه يشرب القهوة سوداء غير ممزوجة. كانت صورة الولد هاسكن تحتل الصفحة الأولى من جريدة أوستن. قرأ بيلّ في الجريدة وهو يهزُّ رأسه. كانت زوجة الشاب المذكور في العشرين من عمرها. أتعرف ما يمكنك أن تعمله من أجلها؟ ليس بيدك أن تفعل لها شيئاً البتّة. ولم يحصل من قبل أن فقد لامر رجلاً من رجاله أبداً طيلة عشرين سنة ونيّف. هذا هو ما عليه أن يتذكره. وهذا هو ما سوف يتذكره الناس به بالنسبة له.

جاءته بطبق البيض، فطوى الجريدة وألقى بها إلى جانبه.

أخذ وندل معه، وقادا السيارة إلى ديزيرت آيري، ووقفا عند الباب هنيهة. قرع وندل الباب.

قال بيلّ: انظر إلى القِفل.

سحب وندل مسدسه وقام بفتح الباب ونادى: نحن من قسم العمدة.

ليس من أحدٍ هنا.

هذا لا يعطيك سبباً لعدم الاحتراس.

هذا صحيح، ليس هنالك من سبب لذلك في العالم كله.

دخلا ووقفا. همّ وندل بإعادة مسدسه إلى جرابه، لكن بيلّ ردعه عن ذلك قائلاً: لنبقَ محتفظين بالإجراء اليقظ.

أمرك سيدي.

مشى قليلاً والتقط قطعة صغيرة من النحاس عن السجادة ورفعها أمام ناظريه.

سأله وندل: ما هذه؟

إنها الأسطوانة النحاسية بعد خروجها من قِفل الباب.

مرّر بيلّ راحته فوق الخشب الرقائقي الذي يغلف الحاجز الفاصل بين جزأي الغرفة. قال: هذا هو الوضع الذي اصطدمت به قطعة النحاس. قام بتخمين وزن القطعة عن طريق أرجحتها فوق كفه، ثم نظر نحو الباب، وأردف: يمكنك تقدير وزن هذه القطعة، وقياس المسافة لتتوصّل إلى تقدير سرعة الانقذاف.

أتوقع أنك قد استطعت ذلك.

سرعة لا يستهان بها.

نعم سيدي، إنها سرعة لا يستهان بها.

مشيا خلال الغرف: ما الذي تعتقده أيها العمدة؟

أعتقد أنهم هربوا.

وأنا كذلك.

ويبدو أن الوقت لم يكن كافياً لهم.

صحيح.

مشى إلى داخل المطبخ، وفتح باب البراد ونظر إلى داخله، ثم أعاد إغلاقه. ثم نظر إلى الثلاجة.

إذاً متى تعتقد أنه كان هنا، أيها العمدة؟

يصعب الجزم. قد نكون لم نتأخر عن إدراكه سوى بوقت قليل.

أتعتقد أن ذلك الشاب يملك أيّ معرفة عن نوعية الأوغاد الذين يطاردونه؟

لست أدري. لكن عليه أن يكون عارفاً بذلك. لقد رأى كل الأشياء التي رأيتها أنا. وهذا يترك عندي بعض الانطباع عنه.

إن أهل هذا البيت في جحيم من المتاعب الآن، أليس كذلك؟

نعم، إنهم لكذلك.

عاد بيلّ إلى غرفة الجلوس. جلس على الأريكة. وقف وندل في المدخل. وكان لا يزال ممسكاً بالمسدس في يده. قال: ما الذي تعتقده؟

هزّ بيلّ رأسه هزّة الحائر، دون أن يرفع نظره.

* * *

مع قدوم يوم الأربعاء، كان نصف أهل ولاية تكساس في طريقهم إلى ساندرسون. جلس بيلّ إلى طاولته في المقهى، وقرأ الأخبار في الجريدة. أنزل الجريدة من يده، ورفع نظره فوقها. كان يقف أمامه رجل يقارب الثلاثين من عمره. ولم تكن عيناه قد وقعتا عليه من قبل. قام بتقديم نفسه على أنه مراسل جريدة سان أنتونيو لايت.

قال: ما سبب كل هذه الضجّة أيها العمدة؟

يبدو أن الأمر يتعلق بحادث ناتج عن مطاردة.

حادث مطاردة؟

نعم.

وكيف يمكنه أن يكون حادث مطاردة؟ إنك تفتح شهيتي الصحفية.

دعني أسألك شيئاً.

حسناً.

خلال العام الماضي نظرت محكمة مقاطعة تيريل في تسع عشرة تهمة جنائية. أتدري كم هو عدد القضايا منها الخالية من عنصر جرمي متعلق بالمخدرات؟

لا لست أدري.

اثنتان فقط. وفي الوقت نفسه، فإن المقاطعة التي أتولّى شأنها تقع في حجم ديلوير، وهي محتشدة بالسكان المحتاجين إلى مساعدتي. فما رأيك في كل ذلك؟

لست أدري.

وأنا كذلك لست أدري. أما الآن، فإنني بحاجة إلى تناول إفطاري هنا. وعليك أن تعلم من فضلك أنه لا يزال أمامي نهار حافل بالمشاغل.

انطلق هو وتوربرت مستعملين شاحنة الأخير ذات الدفع الرباعي. وجدا أن كل شيء لا يزال على الحالة نفسها. أوقفا عربتهما على مسافة من عربة موسّ وانتظرا. قال توربرت: إن العدد هو عشرة.

ماذا؟

إن العدد هو عشرة. عشرة قتلى. إذ قد نسينا سابقاً أن نعدَّ ويريك. فيكون العدد عشرة.

أومأ بيلّ برأسه موافقاً. قال: هذا هو العدد الذي وصل إلى علمنا حتى الآن.

وصلت طوافة، فاستدارت في الجو، ثم حطّت وسط زوبعة من الغبار

الذي صعد من الأرض الترابية. لم يخرج أحد من الطوافة. كان ركابها ينتظرون هدوء زوبعة الغبار. راقب بيلّ وتوربرت كيف أن سرعة المراوح قد بدأت تهدأ.

كان اسم العميل التابع لهيئة مكافحة المخدرات هو ماكنتاير. وكان بيلّ يعرفه معرفة طفيفة، وكان يحبه إلى درجة تكفي فقط للتسليم عليه بإيماءة من الرأس. خرج من الطوافة وهو يحمل لوحاً مشبكياً في يده، ثم مشى في اتجاههما. كان ينتعل حذاءً عالي الساق، ويعتمر قبعة، ويرتدي سُتْرة خشنة الحياكة من نوع شارهارت، وقد بدا على حالٍ جيدة إلى أن فتح فمه بالكلام.

قال: إنك العمدة بيلّ.

وأنت العميل ماكنتاير.

ما هو نوع هذه العربة؟

إنها بيك أب ماركة فورد 72.

وقف ماكنتاير ينظر نزولاً إلى الوهد. قام بوضع اللوح المشبكي فوق ساقه. نظر نحو بيلّ. قال: إنني سعيد لمعرفة ذلك. كما أن لونها أبيض.

نعم، أوافقك أن لونها هو كذلك.

إنها قد تحتاج إلى طاقم عجلات.

تقدم ومشى حول الشاحنة. دوّن بعض الملاحظات في اللوح المشبكي. نظر إلى داخل العربة. طوى المقعد إلى الأمام، ونظر إلى الداخل الخلفي للسيارة.

من الذي قام بتمزيق العجلات؟

كان بيلّ يقف واضعاً يديه في جيبي بنطاله الخلفيتين. انحنى

وبصق. قال: إن المعاون هايز هنا يظن أن هذا العمل هو من صنع فريق منافس.

فريق منافس؟!

نعم سيدي.

لقد اعتقدتُ أن هذه العربات قد أُطلقت النيران عليها جميعاً.

إنه لكذلك بالفعل.

ما عدا هذه.

أجل، ما عدا هذه.

نظر ماكنتاير في اتجاه الطوّافة، ثم نظر إلى الأسفل في اتجاه الوهد نحو العربات الأخرى. قال: هل يمكنني الركوب معكما إلى مكان وجود العربات في الأسفل؟

طبعاً يمكنك ذلك.

مشوا في اتجاه عربة توربرت. نظر العميل نحو بيلّ، وقام بوضع اللوح المشبكي على ساقه. قال: إنك لا تنوي جعل هذه المسألة سهلة، أليس كذلك؟

سحقاً، يا ماكنتاير، إننا لم نكد نبدأ بعد.

مشوا حول الوهد يعاينون العربات المصابة بالطلقات.

رفع ماكنتاير منديلاً إلى أنفه. كانت الجثث منتفخة في داخل ثيابها. قال: إنه أشنع منظر رأيته من قبل.

وقف يدوّن الملاحظات على لوحه المشبكيّ. قاس المسافات بخطواته، ثم رسم مخططاً تقريبياً للموقع، ونقل الأرقام عن لوحات السيارات.

سأل: ألم يكن هنالك أيّ أسلحة؟

لم يكن هنالك من الأسلحة ما يتوقع المرء أن يجده منها. إذ عثرنا فقط على قطعتين احتفظنا بهما كأدلة جرمية.

منذ متى تعتقدان أن هؤلاء الناس ماتوا؟

أربعة أو خمسة أيام.

لا بد من أن شخصاً أو أكثر قد نجا وفرّ.

أومأ بيلّ برأسه بالإيجاب، وقال: وهنالك جثة أخرى تبعد ميلاً واحداً من هنا إلى جهة الشمال.

إن هنالك مادة هيروين مهروقة في خلفية عربة البرونكو.

هذا صحيح.

إنه القطران الأسود المكسيكي.

نظر بيلّ نحو توربرت. انحنى توربرت وبصق.

إذا كانت مادة الهيروين مفقودة، والنقود مفقودة أيضاً، فإنني أظن أن أحدهم لا بد من أن يكون متوارياً.

أعتقد أن ظنك في محله.

استمر ماكنتاير في الكتابة. قال: لا تقلق، إني أعرف أنك لم تجد النقود، ولا المخدِّر.

إنني لست قلقاً.

عدّل ماكنتاير من وضعية قبعته ووقف يتأمل العربات.

هل تأتي دوريات أمنية إلى هنا؟

إن الدوريات الأمنية قادمة، أو على الأقل ستأتي واحدة منها من قوة مكافحة المخدرات.

ألاحظ هنا أن أعيرة الأسلحة المستعملة هي: 0.380، و0.45، و9 ملم بارابلّوم، والعيار 12، والعيار الخاص 0.38. هل وجد أحدكم أيّ شيء آخر؟

لا، أعتقد أن هذا هو كل شيء.

أومأ ماكنتاير قائلاً: أظن أن الأناس المنتظرين استلام بضاعتهم من المخدرات قد يكون من المحتمل أنهم فكّروا الآن أنها قادمة. ماذا عن دوريات الحدود.

الجميع قادمون حسب علمي. فإننا نعتقد أن المشهد سيصبح حامياً ونشيطاً لدرجة تتجاوز ما شهدناه عام 1965.

صحيح.

نحتاج إلى نقل هذه الجثث من هذا المكان.

قام ماكنتاير بوضع لوحه المشبكي من جديد على جانب بنطاله. قال: أليس ذلك صحيحاً؟

قال توربرت: 9 ملم بارابلّوم.

أومأ بيلّ: تحتاج إلى إثبات ذلك في أوراقك.

* * *

التقط تشيغور الإشارة القادمة من جهاز التلقّي والاستجابة، وهي آتية عبر قنطرة جسر نهر ديفيل، غربي ديل ريّو. كان الوقت يقارب منتصف الليل، ولم تكن ثمة سيارات على الطريق السريع. مدّ يده إلى المقعد المحاذي لمقعد السائق وأدار قرص الراديو ببطء إلى الأمام ثم إلى الوراء وهو في إصغاء تام.

سلطت الأنوار الأمامية الضوء على طائر كبير يجثو على درابزين

الألمنيوم فوق الجسر، وهنا ضغط تشيغور على زرّ إنزال زجاج نافذة السيارة. تسرّب الهواء البارد إلى داخل السيارة آتياً من البحيرة. تناول المسدس من قرب الصندوق، وقام بصليه وصوّب الفوّهة من خلال النافذة، مسنداً السبطانة إلى المرآة الجانبية. كان المسدس مجهزاً بكاتم للصوت مثبت عند طرف السبطانة. وكان الكاتم مصنوعاً من حرّاقات الغاز النحاسية ومحشوّاً بغطاء عازل من الألياف الزجاجية، ومدهوناً باللون الأسود الباهت. أطلق النار على الطائر عندما كان رابضاً مفرداً جناحيه.

انتفض الطائر بذعر في الأنوار، وكان شديد البياض، فاستدار وابتعد في باطن الظلام. اصطدمت الطلقة بدرابزين الجسر وارتدّت عنه في الليل، وأرسل السياج أزيزاً خافتاً في الهواء ثم همد كل شيء. ألقى تشيغور المسدس على المقعد، وأعاد رفْع زجاج النافذة من جديد.

* * *

دفع موسّ أجرة السائق، وخرج إلى الأنوار أمام مكتب الفندق، وعلّق حقيبته على كتفه، وأغلق باب العربة، واستدار ودخل. كانت المرأة منحنية على النَّضد. ألقى الحقيبة على الأرض، وانحنى فوق النضد. بدت المرأة مبلبلة الفكر قليلاً. قالت له: أهلاً، هل تخطط للبقاء عندنا لفترة من الوقت؟

بل أحتاج إلى غرفة أخرى.

أتريد تبديل غرفتك، أم أنك تريد غرفة أخرى بجانب غرفتك الحالية.

أريد الاحتفاظ بغرفتي الحالية واستئجار غرفة إضافية.

لا بأس.

هل لديكم خريطة للفندق؟

فتشت تحت النضد. قالت: كان يوجد في العادة شيء من هذا القبيل. انتظرني لحظة. أعتقد أن هذا هو ما نبحث عنه.

ألقت كُرّاسة قديمة فوق النضد. بدا على الرسم الذي يعلوها سيارة يعود طرازها إلى الخمسينيات متوقفة أمام الفندق. بسط المنشور أمامه وبدأ دراسته.

ماذا عن الغرفة 142؟

لكن يمكنك الحصول على غرفة ملاصقة لغرفتك الحالية إن شئت ذلك. فالغرفة 120 شاغرة الآن.

هذا لا يهم، ماذا عن الغرفة 142؟

مدّت يدها وتناولت مفتاح الغرفة عن لوحة المفاتيح المعلقة وراءها. قالت له: إنك مدين لنا بأجرة ليلتين.

دفع المترتب عليه، والتقط حقيبته ومشى في الممر إلى خلف الفندق. انحنت هي على النضد تراقب انصرافه عنها.

وفي الغرفة، جلس على السرير والخريطة مبسوطة أمامه. نهض ودخل إلى غرفة الحمام، ووقف في الحوض ملصقاً أذنه إلى الجدار. سمع صوت جهاز تلفازٍ عاملٍ في مكانٍ ما. عاد من حيث أتى، ثم جلس وحرّر سحّاب الحقيبة واستخرج منها بندقية الرشّ وألقاها إلى جانبه، ثم أفرغ الحقيبة بكاملها فوق السرير.

استلّ مفكّ البراغي وسحب كرسياً من وراء الطاولة ووقف عليه، وقام بفكّ براغي الغطاء الشبكيّ لقناة التكييف، ثم نزل وألقى الغطاء فوق المفرش الرخيص للسرير جاعلاً الجانب المتّسخ بالغبار من الغطاء يتجه إلى الأعلى. ثم وقف على الكرسيّ ثانية وأبقى أذنه قريبة من مجرى التهوية وأصغى جيداً. ثم نزل ثانية وتناول المصباح اليدويّ الكشّاف، وعاد إلى الوقوف فوق الكرسي.

كانت هنالك شُعب في قناة التهوية على مبعدة ما يقارب عشرة أقدام من الفتحة التي يقف أمامها. وقد استطاع رؤية نهاية الحقيبة المخبّأة بارزة من خلال الفتحة. أطفأ النور ووقف مصيخاً السمع. حاول الإصغاء فيما كانت عيناه مغلقتين.

نزل عن الكرسيّ وتناول بندقية الرشّ، وذهب إلى الباب وأطفأ المصباح من مفتاح الضوء المحاذي للباب. ثم وقف في الظلمة يسترق النظر من خلال الستارة إلى باحة الفندق الخارجية. عاد وألقى بندقية الرشّ على السرير من جديد، وقام بإنارة المصباح اليدوي الكشاف.

فكّ حقيبة البلاستيك الصغيرة، وأخرج منها دعائم الخيمة. كانت الدعائم عبارة عن أنابيب من الألمنيوم خفيفة الوزن يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أقدام. جمع ثلاثة من هذه الأنابيب معاً في عمودٍ واحدٍ وقام بتوصيل أطرافها بواسطة الشريط اللاصق بحيث لم يعد ينفصل أحدها عن الآخر. ذهب إلى خزانة الثياب وعاد منها بثلاث علّاقات ملابس معدنية، ثم جلس على السرير وقام بقطع الخُطّاف المعقوف من كلٍّ منها مستعيناً على ذلك بالزردية، ثم قام بجمع الخطاطيف الثلاثة في خطّافٍ واحد عن طريق لصقها معاً بالشريط اللاصق، ثم قام بتثبيت الخُطاف المقوّى الجديد إلى نهاية قضيب الألمنيوم الطويل بواسطة الشريط اللاصق أيضاً. ثم وقف فوق الكرسي ومدَّ القضيب إلى داخل قناة التهوية.

أطفأ المصباح اليدوي الكشّاف ورمى به فوق السرير، وعاد إلى الشباك ونظر إلى الخارج. كان هنالك هدير محرك شاحنة تمرُّ على الطريق السريع. انتظر إلى أن تلاشى الهدير. وكانت قطة في صدد عبور الباحة الخارجية، جمدت في مكانها ثم تابعت سيرها من جديد.

وقف على الكرسي والمصباح اليدويّ الكشّاف في يده. أطلق نور المصباح وأبقى زجاجته قريبة من الجدار المعدني المبطن العائد لقناة التهوية بحيث يخفي عمود الضوء. ثم مدَّ رأس الخُطّاف نحو الحقيبة

وأداره ثم جذبه. علِق الخطاف وتسبّب بإزاحة الحقيبة عن مكانها قليلاً، ثم انزلق عنها من جديد. وبعد محاولات متكررة قليلة تمكّن من جعلِ الخطاف يمسك جيداً بأحد الأحزمة، فقام بجرٍّ الحقيبة بهدوء عبر قناة التهوية، مرّة بعد أخرى، فوق طبقة الغبار حتى صار بإمكانه الاستغناء عن القضيب، فتناولها بيده.

نزل عن الكرسيّ وجلس على السرير، ومسح الغبار عن الحقيبة، وفكّ لسان قفلها، كما قام بفكٍّ الأربطة وفتحها، وجاس بيده في رزم النقود. أخذ واحدة من الرزم من داخل الحقيبة ثم أعاد إقفالها من جديد. ثم فكّ أجزاء القضيب المعدني الذي قام بتركيبه. ثم أطفأ المصباح الكشاف وجلس منصتاً. وقف، ووصل إلى فتحة قناة التهوية ودفع بالقضبان المعدنية إلى داخلها، وأعاد غطاء الفتحة المشبّك إلى مكانه، وقام بجمع أدواته. ألقى المفتاح على الطاولة، ودسَّ بندقية الرش والخردوات في جعبته، ثم أخذ الحقيبة ومشى إلى خارج الباب تاركاً كل شيء على الحالة التي كانت عليها من قبل.

* * *

قاد تشيغور سيارته ببطءٍ حول الشريط الذي تتكوّن منه غرف الفندق، تاركاً زجاج نافذة السيارة مفتوحاً، وجاعلاً جهاز الاستقبال في حضنه. استدار عند طرف الباحة المحيطة بالفندق وعاد أدراجه. خفّف سرعته إلى درجة الوقوف ووضع جهاز التعشيق في عربته الـرامتشارجر بالاتجاه العكسيّ وتراجع بها قليلاً إلى الوراء فوق الإسفلت وتوقف من جديد. أخيراً قاد سيارته مستديراً إلى ناحية مكتب الاستقبال، فأوقفها ودخل إلى ردهة الفندق.

كانت الساعة الحيطية في مكتب الدخول تشير إلى الثانية عشرة واثنتين وأربعين دقيقة. كما كان التلفاز مشتغلاً، وبدت المرأة الجالسة

خلف النَّضَد كأنها غارقة في النوم. قالت: نعم يا سيد. أيمكنني مساعدتك؟

غادر مكتب الدخول وهو يحمل مفتاح الغرفة التي استأجرها، في جيب قميصه. ثم صعد إلى داخل عربته الرامتشارجر وقادها إلى جانب المبنى وأوقفها هناك ثم خرج منها ومشى إلى غرفته وهو يحمل الحقيبة التي تحتوي على جهاز الاستقبال والبنادق. وعندما دخل الغرفة، رمى الحقيبة على السرير، ونزع فردتي حذائه من قدميه، وخرج إلى خارج الغرفة وهو يحمل جهاز الاستقبال والحقيبة التي تحتوي على المدَّخرة (البطارية)، وبندقية الرشّ التي كان قد استولى عليها من الشاحنة. كانت بندقية الرش أوتوماتية من طراز رمنغتون، من عيار اثني عشر. وكان معها ذخيرة عسكرية بلاستيكية ذات فوّهات مغطاة بطبقة واقية من فُسفات الحديد. كما كانت مجهزة بكاتم للصوت، مصنّع في مصنع اختصاصي، يبلغ طوله قدماً كاملاً ويحيط بكامل الماسورة على شكل علبة العصير. ثم مشى على طول الممر المسقوف المحاذي للغرف، بقدمين عاريتين سوى عن الجوربين، وكان خلال ذلك كله يصغي إلى الإشارة.

عاد من جديد إلى غرفته ووقف عند الباب المفتوح تحت الضوء الأبيض الآتي من عمود النور في باحة وقوف السيارات، مباشرة. مشى إلى الحمام وأنار الضوء بداخله. أخذ قياسات غرفة الحمام في ذهنه، ودرس مكان وجود كل الأشياء. اتخذ أيضاً قياساً ذهنياً لمكان وجود مفاتيح الإنارة. ثم وقف في الغرفة متخذاً لها صورة ذهنية إجمالية لمرة أخرى. جلس وربط شريط حذائه واستخرج قارورة الهواء وألقاها فوق كتفه، والتقط مسدس تخدير المواشي قبل ذبحها المتدلّي من خرطوم الهواء المطاطي، ومشى إلى خارج غرفته.

وقف مصغياً أمام الباب، ثم قام بإزالة أسطوانة القفل عن موضعها مستعيناً ببندقية الضغط الهوائي. ثم رفس الباب فانفتح أمامه.

كان في الغرفة مكسيكيّ في حلّة نوم خضراء. جلس الرجل على

سريره وحاول أن يمدّ يده إلى رشيش أوتوماتي صغير بالقرب منه. لكن تشيغور عاجله بثلاث طلقات سريعة بدت كأنها طلقة طويلة واحدة، الأمر الذي جعل معظم الأجزاء العليا من جسد الرجل تتناثر عبر اللوحة الرأسية للسرير، والجدار الذي يليها. لقد أرسلت بندقية الرشّ صوتاً انفجارياً غريباً وعميقاً وخافتاً. كما لو أن أحدهم يرسل سعاله في جوف برميل. أشعل النور، وتقدّم من أمام الباب، ووقف جاعلاً ظهره للجدار الخارجي. ألقى نظرة أخرى سريعة. كان باب غرفة الحمام مقفلاً. وها هو الآن مفتوح. خطا إلى داخل الغرفة وأطلق شحنتين من خلال الباب، ثم أخرى من خلال الجدار، وخرج من جديد. في الأسفل، تجاه طرف المبنى، سطع ضوء ما. انتظر تشيغور، ثم ألقى نظرة أخرى إلى الغرفة. كان الباب قد تفجّر إلى أشلاء من الخشب الرقيق المتدلي من المفصّلات، وكان ثمة جدول رفيع من الدم قد بدأ يترقرق عبر بلاط الحمّام الزهريّ اللون.

خطا إلى داخل المدخل وأطلق شحنتين إضافيتين من خلال جدار غرفة الحمام، ثم مشى إلى داخل الحمام فيما هو يحمل بندقية الرشّ في مستوى خصره. كان الرجل يخر بجانب حوض الاستحمام ويعانق بندقية من عيار أي كاي 47. كانت إصابته في الصدر والعنق، وكان ينزف بشدّة. كان يقول محشرجاً: ليس أنا أيها الصديق. ليس أنا أيها الصديق. تراجع تشيغور إلى الوراء من أجل تحاشي نثار سيراميك المغطس ثم أطلق النار على الرجل في وجهه.

خرج ووقف في الممر الخارجي. ليس هنالك من أحد. عاد، فدخل وقام بتفتيش الغرفة. فتش الخزانة، وتحت السرير، وفتح جميع الأدراج وسحبها إلى الأرض. نظر إلى داخل غرفة الحمام. كان مسدس موسّ الآلي من طراز أتش آند كاي ملقى على المغطس. تركه في مكانه. مسح قدميه على البساط ليتخلص من الدم العالق في أسفل نعليه ووقف يتامل الغرفة. ثم وقعت أنظاره على قناة التهوية.

أخذ المصباح من جانب السرير، واعتلى سطح المزيَنة ودفع الغطاء الشبكيّ للقناة مستعيناً بالعقب المعدني للمصباح الكشاف وحررها من موضعها، ونظر إلى داخل القناة. لقد أمكنه ملاحظة آثار جرٍّ الحقيبة في الغبار. نزل ووقف برهة في مكانه. وجد أن على قميصه دماء وآثار مواد أخرى. نزع القميص وعاد إلى غرفة الحمام فاغتسل وجفف نفسه بإحدى المناشف المتوفرة هناك. ثم بلّل طرف المنشفة ومسح بها فردتي حذائه، وطوى المنشفة من جديد وقام بمسح رجلي بنطاله الجينز. التقط بندقية الرش وعاد إلى الغرفة عارياً إلى مستوى وسط جسمه، فيما قميصه مكوّر في إحدى يديه. مسح نعليه على البساط من جديد، وألقى نظرة أخيرة على الغرفة وانصرف.

* * *

عندما دخل بيلّ إلى غرفة المكتب، رفع توربرت نظره عن طاولته، ثم نهض واقترب من بيلّ وألقى ورقة أمامه.

قال بيلّ: أهذا هو التقرير؟

نعم سيدي.

استوى بيلّ في كرسيّه يقرأ وهو ينقر بإصبعه فوق شفته السفلى ببطء. وبعد هنيهة، ألقى بالتقرير جانباً. لم يرفع نظره إلى توربرت. قال: لقد علمتُ ما الذي حصل هنا.

حسناً.

هل سبق لك وأن دخلت إلى مسلخ للمواشي؟

نعم سيدي، أعتقد أنني قد دخلت مرة.

ستعرف السر إذا كنت قد دخلت مسلخاً.

أعتقد أنني قد ذهبت إلى هناك مرة عندما كنت طفلاً.

إنه مكان غريب لأخذ الأطفال إليه.

أعتقد أنني كنت قد ذهبت إلى هناك بنفسي متسللاً.

هل لاحظت كيف يقومون بقتل الثيران؟

لديهم ممر منحدرٌ زلقٌ يُفتح بابه إلى الأمام ولا يفتح إلى الوراء. وهم يُدخلون إليه ثوراً واحداً في كل مرة، فإذا نطح ثور الباب ودخل، ضربوه بمطرقة خشبية على رأسه، ويستمر الحال على هذا المنوال طيلة النهار.

يبدو ذلك صحيحاً. لكنهم لم يعودوا إلى استعمال تلك الطريقة القديمة. إنهم الآن يكتفون باستعمال بندقية تعمل بضغط الهواء وهي تطلق مسماراً فولاذياً. يقومون بوضع البندقية بين عيني الثور ثم يدوسون على الزناد فينطلق المسمار. إن الأمر يتم بهذه السرعة.

كان توربرت يقف إلى زاوية طاولة بيلّ. انتظر العمدة لحظة حتى يكمل شرح ما بدأ به، لكن العمدة لم يكمل الكلام. وقف توربرت، ثم أشاح بنظره، وقال: كنت أتمنى لو أنك لم تخبرني.

قال بيلّ: أعرف ذلك، لقد عرفت الذي سوف تقوله، دون أن تتكلم.

* * *

وصلت سيارة موسّ إلى إيغل باسّ عند الساعة الثانية إلا الربع صباحاً. وكان قد غفا طيلة مسافات طويلة من الطريق بينما هو يجلس في المقعد الخلفي من سيارة الأجرة. إذ هو لم يستفق إلا بعد أن أبطؤوا السير خارجين من الطريق السريع، ليدخلوا شارع ماين ستريت. لاحظ أضواء أعمدة النور الشاحبة من خلال الحافة العليا لنافذة السيارة بينما هي تمر إزاءها. ثم اعتدل في جلسته.

سأله السائق: هل أنت مسافر إلى ما بعد الضفة الأخرى من النهر؟

لا، بل خذني فقط إلى وسط المدينة.

إنك الآن في وسط المدينة.

انحنى موسّ إلى الأمام جاعلاً مرفقيه على ظهر المقعد.

ما هذا المبنى الذي أمامنا.

إنه مبنى سرايا مقاطعة مافريك.

لا، بل أقصد المبنى الذي عليه تلك الإشارة.

إنه فندق إيغل.

أنزلني عنده.

دفع إلى السائق مبلغ الخمسين دولاراً المتفق عليه، والتقط حقائبه عن قارعة الرصيف، ومشى الخطوات التي تفصله عن السقيفة الأمامية للفندق ودخل إلى ردهته. كان موظف الاستقبال واقفاً خلف النَّضَد كما لو أنه يتوقع قدومه.

دفع وتسلّم المفتاح ووضعه في جيبه وتسلق الدرج ومشى في ممر الفندق القديم. سكون مطبق. لا أضواء فوق الأبواب. اهتدى إلى غرفته وأدخل المفتاح في قِفل الباب وفتحه. ثم دخل وأغلق الباب خلفه. كان ضوء مصابيح الشارع يتسرب من خلال الستائر الحريرية للشبابيك. وضع الحقائب على السرير، وعاد إلى الباب، فأضاء مصباح السقف. وجد أن مفتاح المصباح الكهربائي من طراز قديم. أما الأثاث فمصنوع من خشب البلوط العائد إلى بداية القرن، والجدران مطلية باللون الأسمر، وأمّا مفارش الأسرّة فمن النسيج الحريريّ نفسه.

جلس على السرير يقلّب فكره في أموره. نهض ونظر من خلال النافذة إلى باحة وقوف السيارات، ثم ذهب إلى غرفة الحمّام وأتى بكوب

من الماء وعاد فجلس على حافة السرير من جديد. ارتشف رشفة من الكوب ووضعه على الطاولة الخشبية المحاذية للسرير. قال لنفسه: ليس هناك من طريق سالم أبداً.

فكّ اللسان النحاسي والبُكل عن الحقيبة، وبدأ باستخراج رزم النقود من جوفها ورصفها فوق السرير. وعندما باتت الحقيبة فارغة، قام بفحصها بقصد التأكد من خلوّها من القاعدة الزائفة، كما دقق في الظهر والجوانب، ثم وضعها جانباً، وبدأ بإعادة رُزَمِ النقد إلى مكانها. وما إن انتهى من إعادة تكديس ثلث الرزم حتى عثر على وحدة إرسال الإشارات.

كان وسطُ تلك الرزمة مليئاً بأوراق نقود مثقوبة الوسط، وكانت وحدة إرسال الإشارات مزروعةً هناك في داخل تلك الرزمة. كانت في حجم ولّاعة زيبُّو. أماط عنها الشريط الذي يجمعها وأخرج منها الجهاز، ووزَنه في كفٍّ يده، ثم وضعه داخل الدُّرج. ثم نهض وأخذ أوراق النقد المثقوبة إلى الحمّام وجعلها تنسرب في البالوعة مع دفقة من ماء دورة المياه ثم عاد. طوى أوراق النقد من فئة المئة دولار ووضعها في جيبه، وأكمل تنضيد بقية الرزم في داخل الحقيبة من جديد، ثم وضع الحقيبة على الكرسي وجلس يتأملها. فكّر في الكثير من القضايا والأمور، لكن الشيء الذي بقي في ذهنه كان أنه، وعند مرحلة ما، سيكون عليه التوقف عن المراهنة على الحظ.

أخرج بندقية الرشّ من الحقيبة وألقاها على السرير، وأضاء المصباح المجانب له. ذهب إلى الباب وأطفأ مصباح السقف وعاد وتمدّد على السرير وأخذ يحدّق بسقف الغرفة. لقد أدرك ما ينتظره. لكنه لم يكن يدري متى سيكون ذلك. نهض واتجه إلى الحمّام وجذب السلسلة المعلقة بالمصباح المتدلي فوق المغطس، ونظر إلى نفسه في المرآة. استخرج فوطة للغسيل من الحمّالة الزجاجية، وأسال عليها شيئاً من الماء الساخن من الحنفية، ثم قام باعتصارها ومسح بها وجهه وظهر عنقه. أفرغ مثانته

ثم أطفأ المصباح وعاد إلى الجلوس فوق السرير. لقد بدا الأمر الآن له جلياً. أدرك أنه لن يعرف السلامة بعد الآن أبداً في حياته، وعجب ما إذا كان من الممكن للمرء أن يعتاد على مثل هذا الشعور. وماذا يمكن أن يحصل للمرء حتى وإن اعتاد على ذلك؟

أفرغ الحقيبة ووضع بندقية الرش بداخلها وأقفل عليها السحّاب وحملها إلى جانب حقيبة اليد إلى مكتب الاستقبال. كان الموظف المكسيكي الذي قام بإجراءات إدخاله قد غادر لينوب عنه الآن موظف آخر أشهب ونحيل. وكان عليه قميص أبيض وربطة عنق فراشية سوداء. كان يدخن سيجارة وهو يقرأ مجلة رياضية، فإذا به ينظر إلى موسّ بقليل من الحماسة. قال لموسّ رامشاً عينيه تحت تأثير سحابة دخان سيجارته: نعم سيدي؟

أبدأت دوام عملك الآن؟

نعم سيدي، وسأبقى حتى العاشرة صباحاً.

طرح موس ورقة من فئة المئة دولار فوق النضد. ألقى الموظف المجلة جانباً.

قال موسّ: لن أطلب منك أن تقوم بأي عمل يخالف القانون.

قال الموظف: أنا في انتظار توصيف للمهمة.

إن هنالك شخصاً ما يترصّدني، وكل ما أطلب منك عمله من أجلي هو أن تقوم بالاتصال بي إذا ما جاء أحدهم وطلب استئجار غرفة. إن ما أعنيه بكلمة أحدهم هو أيّ شخص تلوح عليه أمارات الاشتباه. أتستطيع أن تفعل ذلك من أجلي؟

نزع موظف نوبة الليل سيجارته من بين شفتيه، ورفعها بيده، ووصل بها إلى منفضة زجاجية حيث نفض الرماد عنها بطرف سبابته ورفع نظره إلى موسّ. قال: نعم سيدي، يمكنني أداء هذه الخدمة إليك.

أومأ موس برأسه، وعاد إلى غرفته في الطابق العلوي.

لم يرنَّ جرس الهاتف. لكن شيئاً ما أيقظه. جلس في السرير ونظر إلى الساعة المركونة على الطاولة. إنها الرابعة وسبع وثلاثون دقيقة. طوّح برجليه من على جانب السرير، وبحث عن فردتي حذائه، وانتعلهما وجلس منصتاً.

اقترب من الباب، ووقف منصتاً فيما بندقية الرشّ في يده. ذهب إلى الحمّام وأماط الستارة البلاستيكية المعلقة بحلقات حول حوض الاستحمام ثم هيّأ الحوض للاستحمام، ثم عاد إلى باب الحمّام فأحكم إقفاله وعاد إلى الحوض مسدلاً الستارة حوله من جديد وشرع بأخذ حمّامه، ثم وقف أمام باب غرفته يصيخ السمع من جديد. سحب جعبة البلاستيك من المكان الذي كان دفعها إليه تحت السرير ووضعها على كرسي في الزاوية. وصل إلى مفتاح المصباح وأضاء النور على الطاولة المحاذية للسرير ووقف هناك محاولاً استجماع أفكاره. أيقن أن الهاتف قد صار من الممكن له أن يرنّ فأزال السماعة عن مكانها وألقاها إلى جانب قاعدة الهاتف على الطاولة. سحب الأغطية عن السرير وقام بتكويم الوسائد عليه وغطّاها. نظر إلى الساعة. إنها تشير الآن إلى الرابعة وثلاث وثلاثين دقيقة. نظر إلى سماعة الهاتف الملقاة هناك على الطاولة. رفع الهاتف وسحب منه الشريط الموصل إلى الجدار ثم أعاد السماعة إلى موضعها فوق القاعدة، ثم تقدم من الباب ومكث خلفه. كان إبهام يده فوق ناقر بندقية الرشّ. انبطح على بطنه ووضع أذنه على مقربة من المسافة القليلة الباقية تحت أسفل الباب. شعر بسريان الهواء البارد يتسلل إليه. بدا له أن باباً قد انفتح في مكانٍ ما. قال في نفسه: ما الذي فعلته. ما الذي فشلت في فعله؟

ذهب إلى الجانب القصيّ من السرير وانبطح أرضاً ودفع نفسه تحته وبقي هنالك مضطجعاً على بطنه فيما بندقية الرشّ مصوّبة نحو

الباب. لم يكن هناك تحت العارضة الخشبية للباب سوى مسافة قصيرة تعلو بها عن أرض الغرفة. وكان قلبه ينبض كالمضخة فوق البساط المشبع بالغبار. انتظر حيث هو. عمودان من الظلمة تقاطعا مع عمود الضوء المتسلل من تحت الباب. توقف العمودان الأسودان. أما الشيء التالي الذي سمعه فهو حركة المفتاح في قفل الباب. حركة مبالغة في النعومة والحذر. ثم انفتح الباب. كان باستطاعته رؤية الممر الخارجي من خلال الفتحة. لم يكن هنالك من أحدٍ في الخارج. انتظر. حاول ألّا يرمش له جفن لكنه عجز عن ذلك. ثم بدت فردتا حذاء ذي ساق طويل من جلد النعام الثمين، ساقان منتصبتان في مدخل الغرفة تحت سراويل من الجينز الجيد الكوي. وقف الرجل هنالك. ثم دخل وعبر في بطء نحو غرفة الحمّام.

في تلك اللحظة أيقن موسّ أن الرجل ما كان ليفتح باب غرفة الحمام بل إنه لا بد من أن يستدير أمامه. وعندما يفعل ذلك، فسيكون كل شيء قد تأخر كثيراً. أي سيكون الوقت قد تأخر عن ارتكاب أية أخطاء جديدة أو حتى لعمل أيّ شيء على الإطلاق، وأنه عند ذاك سيصبح ميتاً لا محالة. قال لنفسه: اضرب الآن ضربتك، تصرَّفِ الآن.

قال له: إياك من الاستدارة إلى الوراء، استدِر قليلاً وإلا سأفجرك وأودي بك إلى الجحيم.

لم يتحرك الرجل. تقدم موسّ إلى الأمام زاحفاً فوق كوعيه وممسكاً ببندقية الرشّ. لم يكن يستطيع أن يرى أعلى من مستوى حزام الرجل. ولم يكن يدري ما هو نوع السلاح الذي يحمله خصمه على عاتقه.

قال له: ارم مسدسك، ارمه الآن فوراً.

سُمع لبندقية الرشّ طقطقة على الأرض. رفع موسّ نفسه عن الأرض. قال له: ارفع يديك، وتراجعْ عن الباب.

تراجع خطوتين ووقف فيما يداه مرفوعتان إلى مستوى كتفيه، استدار موسّ خلف نهاية السرير. لم يكن الرجل على مسافة تبعد عنه أكثر من عشرة أقدام. كان جو الغرفة بكامله ينبض نبضاً بطيئاً مترقباً، وكان ثمة رائحة عتيقة في الهواء. رائحة تشبه شيئاً من العطر الأجنبي، لها خاصيّة المستحضرات الطبيّة. كل شيء كان له طنين. رفع موسّ بندقية الرشّ إلى مستوى حزامه فيما ناقر الصلي منصوب. لم يكن أيُّ حدث قد يحدث له الآن ليفاجئه أبداً. شعر كأن جسده يكاد يكون لا وزن له من فرط خفّته. بل إنه شعر كأنه شبح يطوف في فضاء الغرفة. لم يلقِ الرجل إليه حتى نظرة واحدة. بدا خصمه إلى درجة غريبة في وضعٍ غير مرتبك. كما لو أن هذا الذي يحدث الآن هو جزء من روتين نهاره.

تراجع إلى الوراء أكثر قليلاً.

امتثل الرجل. التقط موس بندقية الرشّ العائدة لغريمه، وقام برميها فوق السرير. أضاء النور الأساسي في سقف الغرفة وأقفل الباب.

قال له: انظر الآن إليّ.

استدار الرجل برأسه وحدّق نحو موسّ. عينان زرقاوان هادئتان، شعر أسود غامق. شيء ما في محياه يوحي بالغرابة. غرابة هي أبعد من أن تحيط بها خبرة موسّ.

ما الذي تريده مني؟

لا جواب.

عبر موسّ الغرفة وأمسك بأحد أرجل السرير وأداره جانباً بيدٍ واحدة. برزت حقيبة المال جليّة في الغبار، فرفعها بيده، ولم يبدُ أن الرجل قد لاحظ ذلك. لقد كانت أفكاره تتجه إلى شيء آخر.

التقط الجعبة البلاستيكية من على الكرسي وطوّح بها فوق كتفه ثم أمسك ببندقية الرش عن السرير المزودة بكاتم للصوت له ضخامة علبة رذاذ تصفيف الشعر، وقام بوضعها تحت ذراعه. ثم التقط حقيبة النقود من جديد. قال للرجل. لنمش من هنا. أخفض الرجل ذراعيه وامتثل خارجاً إلى الممر خارج الغرفة.

كان الصندوق الصغير الذي يحتوي على جهاز استقبال الإشارات العائد إلى الخصم لا يزال مطروحاً على الأرض خارج الباب تماماً. لكن موسّ تركه حيث هو، إذ راوده شعورٌ بأنه قد اتخذ من المجازفات أكثر مما يحتمل. مشى قُدُماً حاملاً بندقيته المسلطة على حزام الرجل بيدٍ واحدة وكأنها مجرّد مسدس. همّ بأن يطلب منه أن يعود إلى رفع يديه من جديد، لكن شيئاً ما، قال له إن الأمر لن يشكلّ فرقاً كبيراً سواء أكانت يدا الرجل مرفوعتين أم لا. كان باب غرفة النوم لا يزال مفتوحاً، وكان ماء الحمام لا يزال يتساقط من صنبور الرش.

قم بإدارة وجهك عند هذه الدرجات، وستجدني أقوم بإطلاق النار عليك.

لم يجب الرجل بكلمة واحدة. فهو قد يكون أخرس قياساً على ما اختبره موسّ منه.

قال موسّ: قف مكانك، لا تجرّب أن تتحرك خطوة واحدة.

امتثل الرجل وتوقّف في مكانه. تراجع موسّ نحو الدرج ناظراً نظرة أخيرة إلى خصمه وهو يقف هناك تحت الضوء الأصفر الباهت الآتي من الأنوار الحيطية، ثم استدار وهبط الدرج آخذاً درجتين اثنتين مع كل خطوة. لم يكن يدري إلى أين يذهب. إذ لم يكن الوقت قد اتسع له للتفكير من قبل في مثل هذه المسألة.

وفي ردهة الاستقبال كانت قدما موظف نوبة الليل تبرزان وهما

مرفوعتان من وراء النَّضَد. لم يتوقف موسّ. اندفع من خلال الباب الأمامي للفندق ونزل الدرجات المؤدية إلى الخارج. وما إن تمكَّن من عبور الشارع حتى كان تشيغور قد تمترس على الشرفة فوقه. شعر موسّ بشيء يلسعُه على الحقيبة الملقاة على كتفه. إذ لم تكن طلقة المسدس لتحدث سوى صوت ضعيف مكتوم في ظلمة الليل الهادئ في المدينة. استدار في الوقت المناسب ليرى وهج النار ينطلق من فوهة ماسورة السلاح عند إطلاق الطلقة الثانية. لقد كان الوهج ضعيفاً لكنه رغم ذلك قابلٌ للرؤية تحت الوهج الورديّ لإشارة النيون العائدة للفندق، والتي تعلو خمسة عشر قدماً. لم يشعر بشيء ـ وكانت المقذوفة قد اخترقت قميصه، وبدأ الدم يسيل على أعلى ذراعه، وكان قد بدأ ساعتئذٍ في الهروب. ومع وصول الطلقة التالية إليه، شعر بألمٍ لاسعٍ في جانبه. سقط إلى الأرض ثم نهض من جديد تاركاً بندقية تشيغور ملقاة على الشارع. قال: يا للعنة، يا لها من إصابة.

قفز مجفلاً إلى رصيف المشاة المحاذي لمسرح الآزتيك. مرّ بالقرب من الكشك المستدير الذي تباع فيه التذاكر فوجد أن كل الزجاج قد سقط عنه. مع أنه لم يسمع طلقة واحدة. استدار حاملاً بندقية الرش وقام بصلي الناقر، وأطلق النار. سمع قرقعة لاصطدام خردق الأيائل بدرابزين الطابق الثاني، كما لاصطدامه بزجاج بعض النوافذ الخارجية والتسبب بتحطيمه. وعندما استدار ثانية كان ثمة سيارة تمرُّ آتية من شارع ماين فكشفته بأنوارها فتباطأت ثم عادت إلى الإسراع من جديد. استدار نحو شارع آدامز فانزلقت السيارة يميناً وشمالاً عند التقاطع، وسط سحابة من دخان العجلات، ثم توقفت. انطفأ المحرك فيما سائقها كان يحاول إدارته من جديد. استدار موسّ تاركاً ظهره لناحية جدار من الطوب لأحد المباني. خرج رجلان من السيارة وعبرا الشارع جرياً على الأقدام في سرعة. فتح أحدهما النار مرتين من بندقية آلية ذات عيار خفيف. قام موس بإطلاق النار عليهما مرتين من بندقيته الرش ثم قفز متابعاً هروبه فيما الدم الحار

يتسرب إلى ما تحت بطنه. وفي الشارع، سمع صوت محرك السيارة يشتغل من جديد.

عندما وصل إلى شارع غراند ستريت، سمع جلبة عظيمة من نيران البنادق خلفه. لم يقوَ على الاعتقاد أنه لا يزال قادراً على متابعة الجري والهرب. ألفى نفسه يعرج بالقرب من واجهات المحالّ عبر الشارع، فيما هو يحمل مرفقه إلى جانبه، والحقيبة ما تزال معلقة بكتفه، وهو لا يزال يمسك ببندقية الرش وحقيبة الأموال. عندما نظر إلى نفسه من جديد، وجد أنه يجلس على رصيف المارة. قال لنفسه: انهض يا ابن الكلبة، لا تجلس الآن هنا خائفاً لتموت. انهض من مكانك بحق الجحيم.

عبر شارع رايان ستريت وقدماه تخبَّان بالدماء المتجمعة في فردتي حذائه. أنزل الحقيبة عن ظهره وفكّ سحّابها، ودسّ بندقية الرشّ في جوفها، ثم أقفل السحّاب من جديد. وقف فيما أسنانه تصطكُّ. ثم قام بالعبور نحو الجسر. كان جسمه بارداً مرتجفاً، كما خيّل إليه أنه على وشك الاستفراغ.

كان هناك على الجانب الأميركي من الجسر بابٌ دوّار تفتحه ماكينة ذات فتحة لإسقاط قطع النقود فيها. وضع قطعة معدنية من فئة عشرة سنتات في الفتحة، ودخل متهالكاً إلى فسحة الفضاء وتطلّع إلى الممر الضيّق الممتد أمامه. كان الفجر يرسل أولى تباشيره. فالجو رماديٌّ وكامد فوق السهل المستنقعيّ الذي يمتد على طول الشاطئ الشرقي للنهر اللامتناهي.

في منتصف الطريق التقى مجموعة من الشبان العائدين. كانوا أربعة. أربعة من المراهقين الذين ربما بلغ بعضهم الثمانية عشرة، وهم مخمورون جزئياً. أجلس الحقيبة على الرصيف، واستخرج حزمة من أوراق المئة دولار من جيبه. كانت الأوراق زلِقة بالدماء فمسحها فوق رجل بنطاله، ثم أفرد خمساً منها، وأعاد الباقي إلى جيبه الخلفي.

قال لهم: عفواً لو سمحتم. وكان يُسند نفسه إلى السياج المصنوع من السلاسل وآثار خطواته الدامية على الممر وراءه أشبه ببصمات الأقدام التي يتمّ رسمها أحياناً فوق بلاط ممرات الأسواق المسقوفة بالقناطر.

عفواً لو سمحتم.

كانوا يخرجون من عند حافة الطنف ليستديروا إلى الطريق من حوله.

ما رأيكم في أن يقوم أحدكم ببيع معطف لي.

لم يتوقفوا إلا بعد أن تجاوزوه. ثم عاد أحدهم إليه. سأله: وما الذي تعطيه في مقابل الحصول على المعطف؟

ذلك الشخص الذي وراءك. الشخص الذي يرتدي معطفاً طويلاً.

توقف الشاب ذو المعطف الطويل، كما توقف الجميع.

كم؟

أدفع لك خمس مئة دولار.

هراء.

تعالَ يا برايان.

لنتابع سيرنا، يا برايان، إنه ثمل.

نظر برايان نحو رفاقه، ثم نظر نحو موسّ، وقال: لنرَ النقود.

إنها هنا معي.

دعني أراها.

دعني أمسك المعطف.

دعنا نتابع سيرنا، يا برايان.

تأخذ ورقة المئة هذه، وتسمح لي بالإمساك بالمعطف. ثم أدفع لك البقية.

حسناً.

خلع المعطف وناوله إلى موسّ الذي قام بتسليمه ورقة المئة دولار بدوره.

ما هذا الذي أراه على ورقة النقود؟

دماء.

دماء؟

نعم دماء.

وقف يحمل الورقة بيدٍ واحدة. نظر إلى الدماء على أصابعه: ما الذي جرى لك؟

لقد أصبت بطلق ناري.

لنرحل عنه يا برايان، بحق الجحيم.

دعني آخذ بقية المبلغ.

ناوله موسّ بقية الأوراق النقدية وأنزل الحقيبة ذات السحّاب عن كتفه ووضعها على الرصيف وكافح للتمكن من ارتداء المعطف. طوى الولد الأوراق النقدية، ودسّها في جيبه وانصرف.

قام بالانضمام إلى رفاقه، فتابعوا السير جميعاً. ثم توقفوا. كانوا في هرجٍ في ما بينهم وهم ينظرون وراءهم إليه. أكمل تزرير المعطف، ووضع النقود في جيبه الداخلي، وعلّق الحقيبة إلى كتفه، ورفع حقيبة المال بيده عن الأرض. قال لهم: تابعوا جميعاً السير في طريقكم، ولا أريد الاضطرار إلى تكرار قولي هذا مرة ثانية.

استداروا وتابعوا طريقهم. كان هنالك الآن ثلاثة منهم. فرك عينيه بعقب كفّه، وحاول أن يرى أين اختفى الشاب الرابع. ثم أيقن أنه لم يكن هنالك من شاب رابع. حسناً. قال لهم: تابعوا على ذلك، لا تتوقفوا عن وضع قدمٍ أمام أخرى.

عندما وصل إلى المكان الذي يمر فيه النهر فعلاً تحت الجسر، توقف عن السير، ووقف ينظر إلى الأسفل. كان كوخ المعبَر من الناحية المكسيكية من البوابة قريباً الآن منه. نظر إلى الوراء إلى أسفل الجسر فوجد أن الشبان الثلاثة قد غابوا عن النظر. وكان ثمة ضوء أغبش من ناحية الشرق. ضوء يأتي من وراء التلال المنخفضة السوداء التي تحيط بالبلدة. وكانت المياه تنساب تحته بطيئة وقاتمة. سُمع نباح كلب في مكان ما. أطبق الصمت من جديد. ليس هنالك من شيء يمكن سماعه أو ملاحظته.

كان هنالك تحته غيضة من قصب البامبو الطويل تنمو على طول الجانب الأميركي من النهر. وضع الحقيبة ذات السحّاب على الأرض، وأمسك بها من مقبضها، ثم قام بأرجحتها إلى خلفه ودفعها بعد ذلك بقوة في الفضاء من فوق الدرابزين.

اشتعل فيه ألمٌ خارقٌ حارّ. أمسك خاصرته بيده وهو يراقب الحقيبة تدور في الفضاء ببطءٍ تحت الضوء الخافت القادم من مصابيح الجسر، ثم تسقط فجأة في غابة القصب وتختفي. انزلق إلى الرصيف وجلس هنالك في نقيع دمه فيما هو يسند رأسه إلى سلكٍ معدني. قال مقرّعاً نفسه: انهض أيها السافل انهض.

عندما وصل إلى مبنى المعبر، لم يجد هنالك أحداً. تابع مشيه حتى دخل بلدة بيدراس نغراس، بولاية كواهويلا.

اتخذ طريقه في الشارع إلى حديقة عامة صغيرة يطلقون عليها

تسمية زوكالو، حيث كانت طيور السّواديّة (طيور سوداء الريش لمّاعته) تنهض من سباتها في أغصان أشجار الأوكالبتوس وينادي بعضها على البعض الآخر. كانت سيقان الأشجار مطليّة باللون الأبيض حتى علوّ وسط الإنسان، وقد بدت الحديقة العامة من بعيد كأنها مغروسة بالأعمدة البيضاء المنتشرة انتشاراً عشوائياً. أما في وسط الحديقة، فكان ثمة استراحة مصوّنة بالحديد المجدول، وفيها منصة تصلح لفرقة موسيقية. وضع الحقيبة إلى جانبه على المقعد، وانحنى إلى الأمام وهو يرفع رأسه بين كفيه. كان هنالك مصابيح من الضوء البرتقالي تتدلى من أعمدة المنصّة. بدا العالم كأنه ينحسر. فأمام الحديقة كان هنالك كنيسة. بدت الكنيسة كأنها ترتحل بعيداً. وقد تصارخت الطيور السَّوادية فوق رأسه على الأغصان وتمايلت بأجنحتها فيما كان ضوء النهار يقترب.

وضع إحدى يديه على المقعد إلى جانبه. إنه الشعور بالدوار. وعليك ألّا تضطجع.

لم تشرق الشمس، بل كان هنالك مجرد بزوغ رمادي لضوء الفجر. كانت الشوارع رطبة. والمخازن مغلقة بمغاليق الحديد. رجل عجوز كان قادماً وهو يقود أمامه مكنسة شوارع. توقف قليلاً، لكنه تابع سيره.

ناداه موسّ: سينيور.

قال الرجل العجوز: بينو (مرحباً أو أهلاً).

أتتكلم اللغة الإنكليزية؟

تمعَّن الرجل في شكل موسّ، وهو يمسك عصا المكنسة بكلتا يديه، ثم هزّ كتفيه.

إنني بحاجة إلى طبيب.

انتظر العجوز لسماع المزيد. استحثَّه موس بيده. كان المقعد قد انتقع بالدم. قال: لقد أُصبتُ.

نظر العجوز إليه نظرة شاملة، قرق بلسانه. ثم نظر إلى البعيد ناحية الفجر. وكانت المباني والأشجار قد ابتدأت تتخذ أشكالها. نظر نحو موسّ وأومأ له بطرف ذقنه. قال: بيود آندار؟ (ألا تستطيع الانتقال؟).

ماذا تقول؟

بيود كامينار؟ (ألا تستطيع المشي؟) قام بتمثيل حركة المشي مستخدماً إصبعيه بينما يده ملقاة بلطفٍ إلى معصمه.

أومأ موسّ برأسه إيجاباً. موجة من الظلام خيمت عليه. انتظر إلى أن انكشفت عنه.

تيني دينيرو؟ (هل تحمل نقوداً؟) هنا قام عامل النظافة بفرك إبهامه على سبابته.

قال موسّ: سي سي. (نعم، نعم). نهض ووقف مترنحاً وأخرج حزمة النقود الملطخة بالدم من جيب معطفه وأفرد منها ورقة مئة دولار وناولها للرجل العجوز الذي تقبلها بكل وقار. نظر نحو موسّ ثم ألقى مكنسته إلى جانب المقعد.

* * *

عندما خرج تشيغور من الباب الخارجي للفندق، كان يلفُّ منشفة حول القسم العلويِّ من رجله اليمنى، وكان يُحكم تثبيتها بقطع من حبال ستائر الشباك. كانت تلك المنشفة قد تبلّلت هي الأخرى بالدماء. وكان يحمل حقيبة صغيرة بإحدى يديه، ومسدساً باليد الأخرى.

كانت سيارة الكاديلاك عند تقاطع الطرق، وكان هنالك إطلاق نيران في الشارع. تراجع إلى مدخل صالون حلاقة. كانت هنالك طقطقة للرشيشات الأوتوماتية، كما كان هنالك دويّ عميق ثقيل لبندقية رشّ ترتدُّ

كراتها عن واجهات المباني. وكان الرجال في الشارع يلبسون المماطر، وينتعلون أحذية التنس. كانوا لا يبدون مثل أيٍّ شخص يمكن لك أن تتوقع وجوده في ذلك الجزء من البلاد. مشى وهو يعرُج مرتقياً درجات شرفة، وأسند مسدسه إلى حافة الدرابزين، وأطلق النار عليهم.

وإلى أن تمّ لهم اكتشاف مصدر النيران، كان قد قتل منهم واحداً وجرح آخر. استدار الرجل المصاب إلى خلف سيارة وقام بفتح النار نحو الفندق. تراجع تشيغور مسنداً ظهره إلى الجدار المبني من الطوب ولقّم مسدسه بمشطٍ جديد من الذخيرة. كانت الطلقات تصيب زجاج الأبواب وتمزّق إطاراتها. انطفأ مصباح الردهة. وكان لا يزال في الشارع من الظلمة ما يكفي لجعل المرء يلاحظ خروج النيران من فوَّهات مواسير الأسلحة. خفّت حدة إطلاق النار قليلاً، فاستدار تشيغور وشق طريقه إلى داخل ردهة الاستقبال في الفندق. كانت شظايا الزجاج تقرقع تحت نعليه. تابع طريقه وهو يعرُج في الممر ثم نزل الدرجات المؤدية إلى الجهة الخلفية من الفندق حيث تقع باحة وقوف السيارات.

عبر الشارع وذهب إلى جيفرسون محافظاً على الالتصاق ما أمكنه ذلك إلى الحائط الشماليّ من المباني محاولاً الإسراع، وجارّاً رجله المصابة إلى جانبه. كل ذلك المشهد كان يأخذ مجراه على مبعدة عمارة واحدة من مبنى سرايا مقاطعة مافريك، وقد قدَّر أنه لم يبق لديه سوى دقائق معدودة قبل انضمام أفرقاء جدد إلى ساحة الحدث.

عندما بلغ الزاوية، لم يكن قد بقي هنالك سوى رجل واحد يقف في الشارع. كان يقف خلف سيارة. لكن السيارة كانت قد أصيبت إصابات أدت إلى أضرار بالغة بها؛ فجميع نوافذها كانت إما قد أصيبت أو تحطمت تماماً. كما كان هنالك جثة قتيل في داخلها على الأقلّ. كان الرجل يراقب الفندق. وهنا صوّب تشيغور مسدسه وأطلق النار عليه مرتين فسقط على الشارع. تراجع تشيغور وراء زاوية المبنى، ووقف شاهراً مسدسه،

ومنتظراً. عبقت رائحة بارودٍ نافذة في هواء الصباح البارد، رائحة هي أشبه بتلك التي تنشأ عن الألعاب الناريّة. ولم يعد هنالك من صوت في أيّ مكان.

عندما عاد تشيغور إلى الشارع من جديد وهو يجر قدمه، كان أحد الرجال الذين سبق له وأن أطلق النار عليهم من شرفة الفندق وأصابهم، يزحف في اتجاه المنعطف. راقبه تشيغور وهو يفعل ذلك. ثم أطلق النار عليه من الخلف. وكان مصاب آخر يضطجع على الدفاع الأمامي لإحدى السيارات، وقد أصيب في رأسه وتجمّع الدم الأسود حوله. وكان سلاحه يرقد بجانبه، لكن تشيغور لم يلقِ بالاً لكلّ ذلك. مشى إلى مؤخرة السيارة ونخع الرجل الذي هناك برأس حذائه ثم انحنى والتقط منه البندقية الآلية التي كان يطلق النار منها. كانت عبارة عن رشيش من ماركة أوزي القصير السبطانة الذي يستعمل ممشطاً من خمس وعشرين طلقة. قام تشيغور بتفتيش جيوب ممطر الرجل الميت وسلب منه ثلاثة مماشط إضافية للسلاح كان أحدها مليئاً. وضع المسلوبات في جيب سترته ودسّ المسدس في حزامه وفحص عدد الطلقات في مخزن الرشيش. ثم علّقه فوق كتفه ومشى على قدم واحدة متراجعاً إلى الوراء حيث الزاوية. كان الرجل الذي أطلق تشيغور النار عليه في ظهره يضطجع هناك وهو يراقبه. نظر تشيغور إلى أعلى الشارع نحو الفندق ومبنى السرايا حيث أشجار النخيل الباسقة. ثم نظر إلى الرجل. كان الرجل يسبح في بركة من دمائه. ناشده الرجل: أنقذني. سحب تشيغور المسدس من وسطه. نظر إلى عيني الرجل فأشاح الرجل بأنظاره عنه.

قال تشيغور: انظر إليّ.

نظر الرجل إليه لكنه ما لبث أن أشاح بأنظاره من جديد.

هل تحسن اللغة الإنكليزية؟

نعم.

لا تبعد نظرك عني. أريدك أن تركِّز نظرك عليّ.

نظر الرجل إلى تشيغور. نظر إلى النهار الطالع يتكشّف شيئاً فشيئاً. أطلق تشيغور النار عليه في وسط الجبين، ثم وقف يراقب. راقب الأنابيب الشعرية تتكسَّر في عيني الرجل. لاحظ الضوء الذي يتراجع. كما لاحظ انعكاس صورته هو، التي تتراجع في ذلك العالم المتبعثر. دسّ المسدس في حزامه ونظر نظرة أخرى إلى الشارع. ثم التقط الحقيبة وعلق الرشيش في كتفه، وعبر الشارع ومضى يعرُج في اتجاه موقف السيارات خلف الفندق حيث كان قد أوقف سيارته.

V

لقد جئنا إلى هنا من جورجيا. جاءت عائلتنا، وكذلك الحصان والعربة. إنني لا أعرف الكثير عن الأمر في الحقيقة. فأنا أعرف أن هنالك الكثير من الأشياء غير الواضحة في تاريخ العائلة. وهذا يصدق على كل عائلة. فالقصص يجري تناقلها، والحقيقة يجري تجاوزها، مثلما يقول المثل السائر. الأمر الذي أعتقد أن البعض قد يذهب إلى تفسيره بأن الحقيقة لن تكون قادرة على منافسة القصة. لكن هذا ليس إيماني. ذلك أنني أعتقد أنه حتى بعدما تكون كل الأكاذيب قد قيلت جميعها وانتسيت، فإن الحقيقة سوف تكون لا تزال موجودة رغم كل ذلك. فالحقيقة لا تنتقل متسوّحة من مكان إلى آخر، كما أنها لا تتغير بين زمان وزمان. ولا يمكنك إفساد الحقيقة أكثر مما يمكنك تمليح الملح. فأنت لا تقوى على إفسادها لأنها هي هي. فهي الشيء الذي تتحدث عنه. لقد سمعت بعض الناس وهم يقارنونها بالصخر - ولربما تكون هذه المقارنة واردة في الكتاب المقدس - إنني لن أقف موقف المعارض من هذا القول. لكن الحقيقة ستبقى في مكانها حتى بعد زوال الصخور. إني على ثقة من أن أناساً كثيرين لن يوافقوني على ذلك. لكنهم قلّة قليلة في الحقيقة. لكنني لم أستطع مرة أن أعرف بما يؤمن أحدٌ منهم.

إنك تحاول أن تكون على الدوام متواجداً فيما يختصّ بالأحداث الاجتماعية. فإنني اعتدتُ الذهاب دائماً إلى أشياء من أمثال تنظيف المقابر. كان هذا أمراً مقبولاً. وكانت النساء تقوم بإعداد الطعام حتى في موقع المناسَبة، وبالطبع فإن هذه السلوكيات قد تكون نوعاً من نشاطات الحملات الانتخابية، لكنك كنت تعمل شيئاً ما للناس من النوع الذي لا يستطيعون عمله لأنفسهم. حسناً، قد يأخذك شعور بالسخرية حول الأمر كله حسبما يتراءى لي، وهذا ما يدفعك إلى القول إنك فقط لا تريدهم (الأموات) أن يجوسوا في الجوار أثناء الليل. لكنني أعتقد أن المسألة هي

أعمق من ذلك. إن الأمر يتعلق بالحياة الاجتماعية، وبالاحترام بالطبع. لكن للموتى عليك حقوق ومطالب هي أكثر مما تريد الاعتراف به. أو حتى هي أكثر مما تعرفه عنها. وقد تكون حجة الموتى علينا قوية. أجل إنها قد تكون حجة قوية بالفعل. وقد يأخذك شعور بأن الموتى لا يريدون ترك حبل الأمور على غاربها. لهذا، فإن أيَّ شيء صغير يمكن أن يكون مساعداً بهذا المعنى.

إنني كنت قد قلت شيئاً في مناسبة أخرى، عن الجرائد. وها هنا، فإنهم في الأسبوع الماضي قد وجدوا أن رجلاً وامرأة في كاليفورنيا اعتادا تأجير غرفٍ لكبار السنِّ ثم يقومان بعد ذلك بقتلهم ودفنهم في الحديقة والقيام بقبض شيكاتهم العائدة للضمان الاجتماعي. كما اعتادا على تعذيب ضحاياهم ابتداءً، لست أدري لماذا. لعلَّ تلفازهم معطل. وهنا ما اعتادت الجرائد قوله حول هذه المسألة. أقتبس عن إحدى الجرائد قولها: شعر الجيران بالذعر حين هرب رجل من حيِّهم ولم يكن على جسده شيء سوى طوق كلب. إنك لا تجرؤ على تصديق مثل هذا الأمر. ولا أراك تجرؤ حتى على محاولة ذلك.

لكنك ستلاحظ أن ذلك ما قد حصل حتى انكشف الأمر. إذ لم يكن كل ذاك الصياح والنقب في الحديقة كافياً لاستثارة الانتباه إليه.

كل هذا يمكن اعتباره لا يثير جزعاً رغم ذلك. فلقد ضحكتُ أنا نفسي عندما قرأت الخبر. ذلك أنه لم يعد ثمة متسع من الأراضي الخلاء التي يمكن استعمالها لمثل هذا الغرض.

احتاج الوقت منه ما يقارب الثلاث ساعات من القيادة قبل وصوله إلى أوديسا، وقد وصلها ليلاً. كان يصغي إلى حوار سائقي الشاحنات عبر راديو شاحنته. من أمثال هل إن صلاحياته تشمل هذا المكان الذي يذهب الآن إليه؟ دعك من كل هذا. سحقاً لي لو كنت أعرف الجواب. إني أرى أنه لو رآك ترتكب جريمة فسيكون الأمر مشمولاً بصلاحياته. حسناً إنني عالمُ جريمةٍ إصلاحي إذاً. أفهمتَ ذلك يا صديقي الأثير.

اشترى خريطة للمدينة من محل للتموُّن السريع، فقام ببسطها على المقعد في سيارة الدوريّة بينما كان يشرب قهوته من كوب مصنوع من مادة الستيروفوم. ميَّز خطّ طريقه على الخريطة بقلم فوسفوري أصفر اللون كان قد استخرجه من محفظة السيارة، ثم أعاد طيّ الخريطة وألقاها على المقعد المجاور لمقعده، وأطفأ مصباح سقف السيارة، وقام بتشغيل المحرك.

عندما وصل إلى باب المنزل الذي يقصده، وقام بقرعه، فإن زوجة للوين هي التي كانت قدد هبت لفتحه. وعندما فتحت له رفع قبعته عن رأسه فشعر فوراً بالندم لأنه فعل ذلك. لقد وضعت المرأة يدها على فمها والتوت على حاجب الباب.

قال لها: إنني آسف يا سيدتي، إنه بخير. إن زوجك بخير. كل ما في الأمر هو أنني أردت التحدث إليكِ إذا كنت أستطيع ذلك.

إنك لا تكذب عليّ، أليس كذلك؟

لا يا سيدتي. لست أكذب عليكِ.

هل قدتَ سيارتك إلى هنا آتياً منساندرسن؟

نعم يا سيدتي.

وما الذي تريده؟

أردت القيام بزيارتك زيارة قصيرة، وأن أتحدث معكِ عن زوجك.

حسناً، لا يمكنك الدخول إلى هنا. لأن ذلك سيروّع الماما حتى الموت. دعني أحضر معطفي.

حسناً يا سيدتي.

قادا السيارة حتى وصلا إلى مقهى صنشاين، حيث جلسا في زاوية في عمق المقهى وطلبا قهوتهما.

إنكِ لا تعلمين موضع وجوده أليس كذلك؟

لا، إنني لا أعرف، ولقد قلتُ لكَ ذلك.

أعرف أنك فعلتِ ذلك.

نزع قبعته ووضعها على ظهر الطاولة بالقرب منه، ومرر أصابعه في فروة رأسه. قال: ألم تسمعي منه خبراً؟

كلا لم أسمع منه.

لا شيء أبداً.

لم أسمع منه حتى كلمة واحدة.

جاءتهما النادلة بالقهوة في فنجانين أبيضين ثقيلين من الخزف الصيني. حرّك بيلّ قهوته بملعقة، ثم رفع الملعقة من القهوة ونظر إلى البخار الذي يتصاعد من حُقّها الفضّيّ. قال: كم هو المبلغ المالي الذي أعطاه لكِ؟

لم تجبه على سؤاله. ابتسم بيلّ. قال لها: ما الذي شرعتِ بقوله؟ تستطعين قوله.

لقد شرعتُ بالقول إن هذا الأمر يتعدّى نطاق الأمور التي تخصُّك، أليس كذلك؟

لمَ لا تفترضين أنني لست عمدة.

ثم أفترض بعد ذلك أنك ماذا؟

أنتِ تعرفين أنه في مواجهة متاعب كبيرة.

إن للوين لم يفعل أيَّ شيء.

إنني لست الجهة التي تأتيه المتاعب والمخاطر منها.

إذاً، مع من هو في متاعب وخطر؟

مع جماعة خطيرة وشريرة جداً.

للوين يستطيع الاهتمام بنفسه.

أتمانعين في قيامي بمناداتك باسم كارلا؟

إن لقبي هو كارلا جين.

كارلا جين. أهذا يفي بالغرض؟

نعم، أتمانع في أن أستمر بمخاطبتك بلقب العمدة؟

ابتسم بيلّ. قال لها: كلا، لا مانع لدي.

حسناً.

إن هؤلاء الناس سيقومون بقتله، يا كارلا جين، ولن يتوقفوا عن السعي من أجل ذلك.

وهو لن يتوقف أيضاً عن حماية نفسه. فهو لم يفعل ذلك مرة.

أومأ بيل برأسه إيجاباً. ارتشف رشفة من قهوته. بدا وجهه الذي امتدَّ وتراقص فوق صفحة الفنجان السوداء نذيراً بقرب حصول أشياء

أخرى. إن الأشياء تفقد اتزانها، وهي تقودك معها. أنزل فنجانه وتطلّع إلى وجه المرأة أمامه. قال: كنت أتمنى لو أستطيع القول إن الأمور تسير في صالحه. لكن عليّ أن أقول لكِ إنني لا أعتقد ذلك.

قالت: حسناً، إنه من هو، وسيبقى كذلك دائماً. وهذا هو السبب الذي جعلني أرضى بالزواج منه.

لكنك لم تسمعي عنه شيئاً منذ مدة.

إنني لا أتوقع أن أسمع منه.

هل حصل بينكما خصام؟

ليس بيننا أية متاعب. وعندما تحدث متاعب بيننا فإننا نصلحها.

حسناً، إنكما محظوظان.

نعم إننا كذلك.

راقبته. قالت: ما الذي يدعوك إلى طرح هذا السؤال علي؟

تقصدين السؤال المتعلق بوجود خصام ومشاكل؟

نعم هو كذلك.

الأمر يتعلق بمجرد تخمين.

هل حصل أمرٌ تعرفه أنت وأجهله أنا؟

كلا، إنني لا أستطيع توجيه السؤال نفسه إليكِ.

مع فارقٍ بسيطٍ، هو أنني لن أفشيه لك.

صحيح.

إنك تعتقد أنه قد هجرني، أليس كذلك؟

لست أدري. هل فعل ذلك؟

كلا. إنه لن يفعل ذلك. فأنا أعرفه.

هل كنتِ تعرفينه دائماً.

إني ما زلت أعرفه حتى الآن. فهو لم يتغيّر أبداً.

ربما.

لكنك لا تصدِّق ذلك.

حسناً، أظن بكل صدق أنني لم أعرف مرة أو أسمع عن أي شخص لم تغيره الثروة. وإذا شئت أن أوافقك، فإن عليَّ القول إنه سيكون الشخص الأول من نوعه.

حسناً، إذاً هو سيكون الشخص الأول.

آمل أن يكون ذلك صحيحاً.

هل إنك تأمل ذلك حقاً أيها العمدة؟

نعم، بكل تأكيد.

هل هو متّهم بأيّ شيء؟

كلا، إنه ليس متهماً بأيِّ شيء.

لكن هذا لا يعني أنه لن توجه اتهامات إليه لاحقاً.

كلا، إن هذا لا يعني ذلك. هذا إذا عاش إلى حين ذلك.

حسناً إنه لم يمت بعد.

آمل أن يكون في ذلك راحة لكِ أكثر مما هو راحة لي.

ارتشف رشفة من القهوة وأنزل الفنجان إلى الطاولة. راقبها. قال: إنه يحتاج إلى تسليم النقود إلى العدالة. وسيضعون هذا الخبر في الجرائد، وعند ذلك ربما يقرر هؤلاء الناس أن يتركوه في حال سبيله. لكنني لا

أستطيع أن أضمن أنهم سيفعلون ذلك. لكن ربما فعلوا. وهذه هي الطريقة الوحيدة الباقية أمامه.

إن بإمكانك نشر ذلك في الصحف في كل حال.

نظر إليها بيلّ ملياً. قال لها: كلا، أنا لا أستطيع ذلك.

أو ربما لا تريد أن تفعل ذلك.

لا أريد ان أفعل ذلك إذاً. ما هو مقدار المبلغ؟

لا أدري عما تتحدث.

حسناً.

قالت له: أتتضايق إذا قمتُ بإشعال سيجارة؟

أعتقد إننا لا نزال نقيم على أرض أميركية.

استخرجت علبة سجائرها وأشعلت لفافة، واستدارت بوجهها، وقامت بنفخ الدخان بعيداً عن وجهه نحو داخل الغرفة. راقبها بيلّ. قال لها: كيف تعتقدين أن هذه المسألة ستنتهي؟

لست أدري. لست أدري كيف سينتهي أيّ شيء. هل تدري أنت؟

أعرف كيف لن تنتهي.

كأن نعيش لحظة سعادة واحدة بعد الآن؟

شيء من هذا القبيل.

إن للوين خارق الذكاء.

أومأ بيلّ برأسه إيجاباً: عليك أن تكوني أشدّ قلقاً عليه، هذا ما أعتقد أنني أريد قوله.

سحبت نفساً عميقاً من دخان سيجارتها. تمعّنَت في وجه بيلّ. قالت: أيها العمدة، أعتقد أنني الآن قلقة إلى درجة كافية.

سوف ينتهي الأمر به إلى الاضطرارا إلى قتل شخص ما. هل فكرتِ في هذا الاحتمال؟

إنه لم يقتل أحداً مرة.

لكنه كان يفعل ذلك في فيتنام.

أعني في حياته المدنية.

لكنه سوف يفعل ذلك.

لم تجبه.

أتريدين المزيد من القهوة؟

لقد ارتويت من القهوة. ولا أريد المزيد.

نظرت حولها عبر المقهى. الطاولات الفارغة. المحاسب الذي يخدم في نوبة الليل. وهو شاب يافع حول الثامنة عشرة من عمره، وقد كان مكباً على الغطاء الزجاجي للنضد يطالع مجلة. قالت له: إن الماما مصابة بداء السرطان، ولم يعد أمامها متسع كبير من العمر تعيشه.

آسف لمعرفتي بهذا الخبر.

إنني أناديها ماما. لكنها في الحقيقة جدتي. لقد قامت بتربيتي. وكان ذلك من حسن حظي. حسناً، كلمة محظوظة ليست هنا كافية للتعبير.

نعم يا سيدتي.

إنها لم تحب مرة للوين كثيراً. لست أدري سبباً لذلك. ليس هنالك سبب محدّد. لقد كان على الدوام جيداً معها. ولقد خيّل إليّ أنها ستلين حول هذه المسالة بعد أن تمّ تشخيص مرضها. لكنها صارت الآن أشد صلابة وسوءاً.

وكيف تختارين العيش معها؟

إنني لا أعيش معها. لست جاهلة إلى هذه الدرجة. إن هذا الوضع إنما هو وضع مؤقت فقط.

أومأ بيل برأسه.

قالت: إنني بحاجة إلى العودة إلى بيتي.

حسناً، هل تملكين مسدساً؟

نعم. لديّ مسدس. وأعتقد أن وجودي هنا هو كوجود الطعم على المصيدة.

لست أدري.

لكن هذا هو ما تعتقده.

لا أظن ان الموقف يمكن أن يوصف بالموقف الجيد.

صحيح.

إني آمل أن تقومي بالكلام معه.

أحتاج إلى التفكير في هذه المسألة.

حسناً.

إنني مستعدة للموت وللعيش في جهنم إلى الأبد قبل أن أفكر في التحوُّل عن حبي لـ: للوين. وآمل أن تكون قد استوعبتَ ذلك.

لقد فهمت ذلك جيداً.

لم أتعلم مرة أن أكون مباشرة وصريحة حول أي شيء، مثلما أنا صريحة حول هذا الأمر. وآمل ألا أكون مبالغة في صراحتي في أي شيء سوى ذلك.

حسناً يا سيدتي.

إني سأزيدك خبراً إذا كنت راغباً في أن تسمعه.

بل أريد أن أسمعه.

قد تعتقد أنني امرأة فريدة أو غريبة الأطوار.

ربما.

أو ربما تمرُّ هذه الفكرة في بالك مروراً عابراً.

كلا، ليس الأمر كذلك.

عندما تخرجتُ من دراستي الثانوية، كنت لا أزال في السادسة عشرة من عمري، وقد حصلت على وظيفة في سوق مركزي يدعى وول مارت. لم أكن أدري أي عملٍ آخر يمكنني أن أعمله. لقد كنا بحاجة إلى النقود، مهما كانت قليلة. وعلى كل حال، فإنني في الليلة التي سبقت ذهابي إلى ذلك السوق حلمتُ حلماً. أو جاءني ما يشبه الحلم. أعتقد أنني كنت لا أزال نصف صاحية. لكن الفكرة قد أتت إليّ في ذلك الحلم، أو ما قد يطيب لك أن تسميه. فكرة مفادها أنني إذا ما ذهبت إلى ذلك المكان، فإنني سوف أجده في الوول مارت. ولم أكن أدري من هو، أو ما هو اسمه، أو كيف تبدو هيئته. لكنني علمتُ فقط أنني سأعرفه عندما يقع نظري عليه. اقتنيت روزنامة وصرت أعدُّ الأيام عليها، كما لو أنك تعدّ الأيام في السجن. ولست أعني أنني قد عرفتُ السجن مرة، لكن كما لو أنك سجين تعدُّ الأيام ربما. في اليوم التاسع والتسعين دخل للوين إلى السوق وتوجّه إليّ بسؤال عن مكان وجود جناح المعدات الرياضية. كان هو. ولقد قمت بإرشاده إلى مكان الجناح. نظر هو إليّ وانصرف. لكنه عاد إليّ مباشرة وقام بقراءة اسمي عن بطاقة التعريف على صدري، ثم نظر إليّ وقال: في أيّ وقتٍ ينتهي دوامكِ؟ وكانت هذه هي البداية والختام. لم يعد هنالك أيُّ تساؤل في ذهني لا بعد ذلك، ولا الآن، ولا حتى نهاية الدنيا.

قال بيلّ: إنها قصة جميلة، وآمل أن تكون لها نهاية سعيدة.

لقد حصل الأمر كله هكذا.

أعرف الآن ذلك. وإنني أقدّر لكِ صراحتكِ معي. وأظن الآن أن عليّ أن لا أبقيكِ معي أكثر من هذا القدر نظراً لتأخر الوقت.

أطفأت عقب سيجارتها. قالت: حسناً، آسفة لأنك قد سافرت كل هذه المسافة الطويلة كي لا تفوز سوى بما فزت به.

التقط بيلّ قبعته واعتمرها وقوّمها فوق رأسه. قال لها: حسناً، لقد قدّمت لي أفضل مستطاعكِ. وفي بعض الأحيان تنتهي الأمور على خير.

هل يهمك أن ينتهي هذا الأمر على خير فعلاً؟

هل تعنين بخصوص زوجك بالذات؟

نعم، بخصوص زوجي.

أجل يا سيدتي. إن هذا الأمر يهمني. لقد استخدمني أهل مقاطعة تيريل من أجل السهر على راحتهم. هذه هي وظيفتي. إنني أتقاضى راتبي كي أكون أول من يتلقّى الأذى أو يواجه القتل من أجل هذه القضية. لذلك فإن الأفضل لي هو أن أكون مهتماً.

إنك ترجو أن أصدق ما تقوله. لكنك أنت من يقول هذا القول.

ابتسم بيلّ، قال لها: نعم يا سيدتي، أنا هو من يقول هذا القول. وكل ما أتمناه هو أن تفكري في ما قلته لكِ. إنني لن أقول لك كلمة عن نوع الخطر الذي يحيق به. فإذا قُتِل فإنني سأكون الشخص الذي يعيش مع تلك الحقيقة. لكنني أستطيع أن أفعل ذلك. كل ما في الأمر هو أنني أريدك أنتِ أن تفكري حول ما إذا كنتِ قادرة فعلاً على العيش مع مثل هذه الحقيقة بعد ذلك.

حسناً.

وهل أستطيع أن أسألكِ سؤالاً؟

تستطيع نعم.

أعرف أن اللياقة تقضي ألا يسأل المرء امرأة عن عمرها، لكنني لم أستطع مغالبة فضولي.

لا مشكلة أبداً. إنني في التاسعة عشرة. لكنني أبدو أصغر من ذلك.

منذ متى وأنتِ وزوجكِ متزوجان؟

منذ ثلاث سنوات تقريباً.

أومأ بيلّ برأسه: لقد كان عمر زوجتي ثمانية عشرة عاماً عندما تزوجنا. إن زواجي منها يشكّل أسوأ القرارات التي ارتكبتها في حياتي. حتى إنني أعتقد أنه لا يزال لديّ بعض الهامش المتبقي في ميزانية الحساب. وأعتقد أنني قد ارتكبت حتى الآن أخطاء كثيرة. هل أنتِ جاهزة كي ننصرف؟

التقطت حقيبتها اليدوية ونهضت. أخرج بيل الشيك وسوّى قبعته من جديد، ونهض من مقعده. وضعت علبة سجائرها في محفظتها ونظرت إليه: سأقول لك شيئاً أيها العمدة. إن عمراً من تسعة عشر عاماً يكفيك كي تعرف أنك إذا كنت تملك شيئاً يعني بالنسبة إليك أنه هو العالم بأسره، فإن الأمور على الأرجح ستجري معك جرياً حسناً. وكان عمر السادسة عشرة كافياً لهذه المسألة. هذا ما يدور الآن في ذهني.

أومأ بيل: لستُ غريباً عن أفكاركِ هذه يا كارلا جين. فإن مثل هذه الأفكار مألوفة لديّ جداً.

* * *

كان نائماً في سريره وكانت عتمة الفجر لا تزال أقوى من نوره عندما رن

جرس الهاتف. نظر إلى الساعة القديمة ذات الميناء الفوسفوري المركونة على طاولة غرفة النوم، ثم مد يده وتناول سمّاعة الهاتف. قال: العمدة بيلّ.

أصغى لمدة دقيقتين ثم قال: أشكرك لقيامك بالاتصال بي. صحيح أنها حرب مفتوحة متمادية. إني لا أعرف تسمية أخرى لها.

وصل إلى مقر مكتب العمدة في إيغل بّاسّ عند الساعة التاسعة والربع صباحاً وجلس هو والعمدة في مكتب الأخير. شربا القهوة، ونظرا إلى الصور التي تمّ التقاطها من الشارع على بعد بنايتين فقط، وقبل ثلاث ساعات تقريباً.

قال العمدة: تمرُّ أيامٌ أجد فيها نفسي مفضِّلاً لإعادة كل هذا المكان اللعين إليهم.

قال بيلّ: إنني أسمعك.

جثثٌ منتشرة في الشارع. مصالح الناس كلها معطَّلة ومغلقة ومصابة بالرصاص. سيارات الناس. من تراه قد سمع بمثل ذلك من قبل؟

هل يمكننا الانتقال لإلقاء نظرة على المكان؟

نعم يمكننا ذلك.

كان الشارع لا يزال مسيّجاً بالشريط الأصفر، لكن لم يكن هنالك الكثير مما يمكن رؤيته. واجهة فندق إيغل كانت مصابة بالطلقات، وكان هناك زجاج محطّم منتثرٌ على الرصيف في جانبي الشارع. كما كانت هناك آثار الرصاص الذي تسبّب في ثقب عجلات السيارات، وزجاجها، وهياكلها. وكان بعض زجاجها محطماً تماماً كما كانت الثقوب في هياكلها تبدو كعيون حديدية يحيط بها الفولاذ الأزرق العاري. وكان قد جرى سحب سيارة الكاديلاك من وسط تقاطع الشوارع، وجرى كنسُ الزجاج، وشطفُ الدماء.

من الذي كان في الفندق على ما تظن؟

تاجر مخدرات مكسيكي.

وقف العمدة يدخن سيجارته. مشى بيلّ إلى أسفل الشارع. وقف. ثم عاد إلى الرصيف، كانت نعلاه تطحنان نثار الزجاج. رمى العمدة عقب سيجارته في الشارع: إذا ذهبت إلى منطقة آدامز، التي هي على بُعد نصف مبنى، فإنك ستجد سيلاً من الدماء.

إنها تقع على طريقك حسبما أعتقد.

إذا كان هنالك من منطق في هذا الأمر، فإنني أعتقد أن هؤلاء الشبان الذين قتلوا بداخل السيارة لا بد من أن يكونوا قد علِقوا بين نارين. ويبدو لي أن المتقاتلين كانوا يطلقون النيران في اتجاه الفندق وفي اتجاه أعلى الشارع هناك معاً.

وماذا تظن أن سيارتهم كانت تفعل هناك في تقاطع الشارع في هذه الوضعية؟

ليس لديّ من فكرة، يا إدّ توم.

مشيا نحو الأعلى في اتجاه الفندق.

ما هو نوع الخرطوش الفارغ الذي قمتم بالتقاطه؟

معظمه من نوع 9 ملم، مع بعض الخرطوش الفارغ العائد إلى بنادق الرش، وقليل من الخرطوش من عيار 0,380 وقد عثرنا على بندقية رش وعلى بندقيتين آليتين.

آليتان بالكامل؟

أكيد. ولِمَ لا؟

أجل، لِمَ لا.

تسلقا الدرج إلى الطابق العلوي. كانت شرفة الفندق مغطاة بالزجاج والمنجور الخشبي ممزق بالرصاص.

لقد قُتل موظف الاستقبال المناوب ليلاً. وكانت إصابته تعبيراً عن قلة الحظ إلى القدر الذي يمكنك أن تتصوره. إنني أعتقد أنه قد أصيب برصاصة طائشة.

وأين نالته الإصابة؟

بين عينيه تماماً.

مشيا إلى ردهة الاستقبال ووقفا. كان أحدهم قد رمى بعض المناشف فوق بقعة الدم على بساط الأرض الموجود خلف النضد. لكن المناشف ذاتها باتت منتقعة هي الأخرى بالدماء. قال بيل: إنه لم يُقتل بطلقة نارية.

من هو الذي لم يقتل بطلقة نارية؟

موظف الاستقبال المناوب ليلاً.

أتقول إنه لم يمت قتلاً؟

كلا، يا سيدي.

وما الذي يدعوك إلى قول ما تقوله؟

قم بطلب تقرير من المختبر وسترى بنفسك.

ما الذي تقوله يا بيلّ؟ أتعني أنهم حفروا دماغه بمقدح بلاك آند دكَر؟

هذا تعبير قريب جداً من الحقيقة. سأدعك تفكر في هذه المسألة.

وفيما هو يقود سيارته عائداً إلى ساندرسون بدأ الثلج يتساقط. ذهب إلى مبنى السرايا وقام بإنجاز بعض المعاملات الإدارية وغادر مكتبه

قبل المغيب تماماً. وعندما دخل إلى الطريق الخاص خلف بيته، كانت زوجته تستطلع الطريق من شباك المطبخ. ابتسمت له. استمر الثلج يتساقط ويدور في الفضاء تحت ضوء المصباح الأصفر الدافئ.

جلسا في غرفة الطعام الصغيرة وتناولا وجبتهما. كانت قد وضعت موسيقى هي عبارة عن حفلة لموسيقى الفيولين. لم يرن جرس الهاتف مرة.

هل قمتِ بسحب شريط الهاتف عن موضعه؟

قالت له: كلا.

لا بد أن الأسلاك قد تقطّعت.

ابتسمت: لا، إني أعتقد أن الأمر كله عائد لسقوط الثلج. أظن أن سقوطه يجعل الناس يتوقفون للتفكير.

أومأ بيل برأسه موافقاً: آمل أن يتحوّل سقوط الثلج إلى عاصفة ثلجية كاملة إذاً.

أتتذكر متى أثلجت للمرة الأخيرة هنا؟

كلا، لست أتذكرّ، كعادتي. أتتذكرين أنتِ؟

نعم أتذكّر.

متى كان ذلك؟

سوف تتذكر بنفسك.

أوه.

ابتسمت. وتابعا تناول الطعام.

قال بيلّ: هذا شيء رائع.

ما هو؟

الموسيقى. المغنية التي تتغنى بالمنزل الرائع.

أتظن أنها تقول الحقيقة؟

أجل، إني أعتقد ذلك.

أتعتقد أن ذلك الشاب لا يزال حياً؟

لست أدري. آمل ذلك.

قد لا تسمع أية كلمة أخرى حول هذا الشأن.

هذا ممكن. مع أن هذا لن يكون نهاية الأمر، أيكون؟

كلا، أعتقد أن هذا لن يكون نهاية الأمر.

لا يمكنك الاتكال على قيامهم بتصفية بعضهم للبعض الآخر بهذه الطريقة، وعلى قاعدة منتظمة. لكنني أتوقع أن جماعة احتكارية قوية قد تستولي على التجارة كلها عاجلاً أم آجلاً. وسينتهي الأمر بهم إلى التعاطي مع الحكومة المكسيكية فقط. توجد أموال غزيرة في هذه التجارة. سوف يقومون بتجميد نشاط هؤلاء الشبان القرويين، وهذا الأمر لن يتأخر حصوله كثيراً أيضاً.

كم هو مبلغ المال الذي استولى عليه حسب اعتقادك؟

تعنين الشاب موسّ؟

نعم.

يصعب التقدير. قد يكون المبلغ بالملايين. حسناً، ولكن ليس ذلك العدد الكبير من الملايين. إذ إنه قام بحمل هذا المبلغ على عاتقه ومشياً على قدميه.

أتريد بعض القهوة؟

نعم أريد.

نهضت وذهبت إلى المطبخ، وفكّت راووق القهوة الكهربائي عن قاعدته وجلبته معها إلى المائدة وقامت بملء فنجانه وجلست قبالته من جديد. قالت له: كل ما أرجوه منك هو ألّا تأتيني في يوم من الأيام قتيلاً. فإنني لا أستطيع العيش مع مثل ذلك الوضع.

الأفضل لي ألّا أفعل ذلك إذاً.

أتعتقد أنه سوف يرسل في طلبها؟

حرّك بيل قهوته. وقف ممسكاً الملعقة التي يتصاعد البخار منها، فوق فنجانه، ثم ألقى الملعقة في صحن الفنجان. قال لها: لست أدري، لكن ما أعرفه هو أنه سيكون أخرق غبياً إذا لم يفعل ذلك.

كان المكتب في الطابق السابع عشر، وكان له مطلٌّ كاشف على خط سماء هيوستون، والأراضي المنخفضة الممتدة حتى قناة عبور السفن ورافد النهر الذي يقع وراءها. مستعمرات من الخزانات الفضيّة وشعلات الغاز المشتعلة، وهي بالطبع باهتة اللون أثناء النهار. عندما وصل ويلز، طلب الرجل منه الدخول وإقفال الباب خلفه. وهو لم يكن في حاجة حتى للاستدارة لاستقباله. فقد كان باستطاعته رؤية ويلز من خلال الجدران الزجاجية. أقفل ويلز الباب وراءه، ووقف أمام الرجل فيما يداه مشبوكتان أمامه بطريقة تشبه الطريقة التي قد يستعملها مدير مراسم جنازة.

أخيراً، استدار الرجل ورفع نظره إليه: أنت تعرف أنطون تشيغور معرفة عيان، أليس كذلك؟

نعم سيدي، إن ذلك صحيح.

متى وقع نظرك عليه للمرة الأخيرة؟

رأيته في الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني/نوفمبر من السنة الماضية.

وما الذي يجعلك تتذكر هذا التاريخ بالذات؟

إن الأمر ليس مجرد مصادفة. فأنا أتذكر التواريخ عادة، والأرقام كذلك.

أومأ الرجل برأسه. كان يجلس خلف مكتبه. وكان المكتب مصنوعاً من خشب الجوز والفولاذ المصقول الذي لا يصدأ، ولم يكن ثمة شيء على ظهر المكتب. لا صورة ولا ورقة. لا شيء أبداً.

إن لدينا بندقية سائبة هنا. إننا نخسر البضائع كما ضاع منّا مبلغ من المال مؤخراً.

نعم سيدي إني أفهم ذلك.

إنك تفهم ذلك.

نعم سيدي.

شيء جيد، إنني مسرور لأنني نلتُ انتباهك.

نعم سيدي، لقد نلتَ انتباهي.

فتح الرجل دُرج مكتبه وأخرج منه صندوقاً فولاذياً وقام بفتحه وأخرج منه بطاقة ثم أغلقه وأحكم إقفاله من جديد وأعاده إلى مكانه. رفع البطاقة بين إصبعيه ونظر إلى ويلز، فتقدم ويلز إلى الأمام وتسلّمها.

إنك تقوم بالإنفاق على مصاريفك الشخصية، إذا كنت لا أزال أتذكر الاتفاق جيداً.

نعم سيدي.

إن هذا الحساب المصرفي يصلح لسحب ما لا يتجاوز الألف ومئتي دولار فقط كل أربع وعشرين ساعة.

نعم سيدي.

ما هو مدى معرفتك بتشيغور؟

أعرفه بما يكفي.

هذا ليس بجواب.

ما الذي تريد معرفته؟

نقر الرجل ببراجم أصابعه على ظهر المكتب. نظر إلى الأعلى. قال: أريد مجرد معرفة رأيك به على وجه العموم. رأيك في السيد تشيغور الذي لا يقهر.

ليس هنالك من شخص لا يقهر.

بل بعض الناس لا يقهرون.

ما الذي يدعوك إلى قول ذلك؟

هنالك في مكان ما، من هذا العالم رجل لا يقهر، تماماً مثلما يوجد في مكانٍ ما منه رجل هو الأكثر قابلية للعطب.

وهل هذا هو اعتقاد تعتقده؟

كلا، بل هو يدعى إحصاءات. كم هي درجة خطورته؟

هزّ ويلز كتفيه: مقارنة بماذا؟ هل مقارنة بمرض الطاعون الدَّبْليّ؟ إنه على درجة من السوء تكفي لقيامك باستدعائي. إنه قاتل مضطرب العقل، ولكن ماذا؟ إن هنالك الكثير من أمثاله في الجوار.

كان يشترك في اشتباك بالنيران في إيغل باس بالأمس.

اشتباك بالنيران؟

نعم، اشتباك بالنيران. وقع نتيجة له بعض القتلى في الشوارع. ألم تقرأ الجرائد.

كلا سيدي، إنني لا أقرأ الجرائد.

نظر إلى ويلز بتمعّن: لقد عشتَ نوعاً من الحياة الفاتنة، أليس كذلك يا مستر ويلز؟

أقول لك بكل صدق، إنني لا أستطيع القول إن الجاذبية والفتون قد لعبا دوراً كبيراً في حياتي.

قال الرجل: نعم، وماذا أيضاً؟

أظن أن هذا هو كل ما أردت قوله. أكان هؤلاء الرجال هم رجال بابلو؟

نعم.

هل أنت متأكد؟

ليس بالمعنى الذي تعنيه أنت. لكنني متأكد بما فيه الكفاية أنهم لم يكونوا من رجالنا. لكنه كان قد قتل رجلين آخرين منذ بضعة أيام، وقد صادف أن هذين الرجلين من رجالنا. وكل ذلك إلى جانب الذين قتلهم في تلك المذبحة الكبيرة منذ عدة أيام قبل ذلك. صحيح؟

حسناً، أظن أن هذا يكفي.

صيد ثمين، مثلما اعتدنا على القول؛ كان يا ما كان في قديم الزمان.

شكراً لك سيدي. هل لي أن أسألك سؤالاً؟

بالطبع.

إنني لن أستطيع العودة بذلك المصعد إلى هنا مرة ثانية، أأستطيع ذلك؟

كلا، ليس إلى هذا الطابق. ولكن لمَ السؤال؟

كان الأمر مجرد خاطر خطر لي. إنه الأمن، فالمسائل الأمنية تثير اهتمامي دائماً.

إن هذا المصعد يسجل نفسه بعد كل رحلة. وهو يصدر رقماً عشوائياً من خمس خانات. وهو رقم لا ينطبع في أي مكان. إني أقوم بترقيم رقم وهو يقوم بقراءة الرقم السري الذي قمت بترقيمه على الهاتف. وإني أقوم بإعطاء هذا الرقم لك فتقوم أنت بترقيمه في لوحة المصعد. هل يكفي هذا الشرح للإجابة عن سؤالك؟

شيء جميل.

نعم.

لقد قمت بعدِّ الطوابق اعتباراً من الشارع.

وبعد ذلك؟

هنالك طابق مفقود الترقيم.

سوف أنظر في هذا الأمر.

ابتسم ويلز.

قال الرجل: أتعرف طريق الخروج؟

نعم.

حسناً.

هناك شيء أخير.

ما هو؟

أتساءل عمّا إذا كان بوسعي أن أجعل بطاقة وقوف سيارتي مشروعة.

رفع الرجل رأسه قليلاً: إنني سأفترض أنك تطلب ذلك على سبيل الممازحة.

آسف إذن.

أتمنى لك يوماً طيباً يا سيد ويلز.

حسناً.

* * *

عندما وصل ويلز إلى الفندق، كانت الأشرطة البلاستيكية العازلة للمكان قد أزيلت، كما كان نثار الزجاج، وحطام الخشب، قد جرى

كنسُه من باحة الاستقبال، وأعيد وضع المكان كله في خدمة التجارة والزبائن. وكان هنالك ألواح من الخشب الرقيق مسمّرة فوق الأبواب، وفوق اثنين من الشبابيك. كما كان هناك موظف استقبال جديد يجلس إلى النضد الذي كان يجلس إليه الموظف القديم. قال الموظف الجديد: نعم سيدي.

قال ويلز: أحتاج إلى غرفة.

نعم سيدي. هل أنت بمفردك؟

نعم.

وإلى كم ليلة تحتاج إليها؟

ربما هذه الليلة فقط.

دفع الموظف استمارة الدخول نحو ويلز ليقوم بتعبئة بياناتها، واستدار لدراسة المفاتيح المعلقة على اللوحة وراءه. أكمل ويلز ملء المعلومات. قال: أعلم أنك مرهق من كثرة الأسئلة التي يطرحها الناس عليك، لكن ما الذي حصل في فندقكم هذا؟

ليس من المسموح لي مناقشة هذا الأمر.

لا بأس إذاً.

ألقى الموظف المفتاح على ظهر النضد: هل ستدفع نقداً أم بموجب بطاقة ائتمان؟

سأدفع نقداً. كم هو المبلغ؟

أربعة عشر، خلا الضريبة.

وكم هو المبلغ الإجمالي؟

ماذا تقول يا سيدي؟

قلت كم هو المبلغ الإجمالي؟ إن عليك أن تخبرني بمقداره. أعطني رقماً يشمل كل شيء.

نعم سيدي، سيكون حسابك الإجمالي؟ أربعة عشر دولاراً وسبعين سنتاً.

هل كنت هنا عندما جرى ما جرى؟

كلا يا سيدي. لقد ابتدأت عملي هنا بالأمس فقط. وإن هذه ليست سوى نوبة عملي الثانية في هذا المكان.

إذاً ما هو هذا الذي ليس من المسموح لك مناقشته؟

سيدي؟

في أي وقت تنصرف من هنا؟

سيدي؟

سوف أعيد صياغة سؤالي لك. في أي ساعة تنتهي نوبة عملك؟

كان الموظف طويلاً ونحيلاً، قد يكون مكسيكياً، وربما لا يكون. وقد جحظت عيناه قليلاً حول ردهة الفندق. كما لو أنه يفتش عن شيء ما هناك يساعده على الإجابة. قال: لقد بدأت نوبة عملي عند الساعة السادسة، وتنتهي نوبتي عند الساعة الثانية.

ومن الذي يأتي عند الساعة الثانية؟

لا أعرف اسمه. إنه موظف الاستقبال النهاري.

ألم يكن موجوداً هنا ليلة أول أمس؟

كلا، يا سيدي. كان يعمل في النهار.

والرجل الذي كان مناوباً في ليلة أمس أين هو؟

إنه لم يعد موجوداً بيننا.

هل لديك جرائد يوم أمس هنا؟

تراجع إلى الوراء ونظر إلى ما تحت النضد. قال: كلا يا سيدي، أعتقد أنهم قد قاموا برميها.

حسناً، أرسل لي بائعتي هوى، وخُمس قنينة ويسكي، وبعض مكعبات الثلج.

سيدي.

إنني أمازحك فقط. عليك بهدوء الأعصاب. إنهم لن يعودوا. أستطيع أن أؤكد لك ذلك.

أجل يا سيدي، آمل أن يذهبوا إلى الجحيم وألا يعودوا. حتى إنني لم أكن أريد هذه الوظيفة.

ابتسم ويلز، وقام بنقر غلاف قبضة المفتاح مرتين فوق الغطاء الرخامي للنضد وتوجَّه إلى الطابق العلوي.

لقد أدهشه أن يجد أن الشريط العازل الذي نصبه البوليس لا يزال يعزل الغرفتين كليهما. تابع طريقه إلى غرفته، ووضع حقيبته على الكرسي، وأخرج منها علبة الحلاقة، ودخل الحمام وأضاء النور فيه. نظّف أسنانه بالفرشاة، وغسل وجهه، وعاد إلى الغرفة، وتمدّد على السرير. بعد قليل، نهض وذهب إلى الكرسي وأدار الحقيبة إلى جانبها وفكّ سحاب حجرة في أسفلها واستخرج منها جراب مسدس مصنوع من جلدٍ مزأبر. فكّ سحاب الجراب واستخرج منه مسدساً من الفولاذ الأبيض عيار 0.357، عاد به إلى السرير، وخلع الحذاء وتمدد من جديد جاعلاً المسدس إلى جانبه.

عندما استيقظ، كان الظلام قد أوشك أن يخيّم. فنهض من السرير وذهب إلى الشباك، وأماط القماش الحريري للستارة القديمة. رأى الأنوار في الشوارع، كما رأى تشكيلات طويلة من السُّحب الحمراء الغامقة تتجمع فوق

الأفق الداكن. وضع المسدس في وسطه وسحب قميصه من تحت حزامه ليغطيه، وذهب إلى الممر خارج الغرفة، وليس في قدميه سوى الجوربين.

لم يستغرق الأمر منه سوى خمس عشرة ثانية قبل أن يتمكن من الدخول إلى غرفة موسّ وإقفال الباب خلفه دون أن يحرك شريط البوليس من مكانه. انحنى على الباب وتشمّم الغرفة. ثم وقف في مكانه مكتفياً بإلقاء نظرة على الأشياء.

أول ما كان قد فعله هو المشي في حذر فوق البساط. وعندما اقترب من الثلمة الحادثة في البساط جرّاء إزاحة السرير عن مكانه في الغرفة، فإنه ركع ونفخ فوق الغبار، ودرس زغب البساط. ثم نهض ورفع الوسائد وتشمَّمها وأعادها إلى حالها. ترك السرير على حاله ومشى إلى خزانة الملابس ففتح أبوابها، ونظر في داخلها، وأغلق الأبواب من جديد.

ذهب إلى غرفة الحمام ومرّر سبّابته حول الحوض. فوجد أن قماشة للتليُّف، ومنشفة يدٍ قد استُعمِلتا، ولكن دون استعمال صابون. مرّر أصبعه نزولاً إلى جانب الحوض ثم مسحها على طول ثنية الخياطة العائدة لبنطاله. جلس عند حافة الحوض ونقر بقدميه فوق البلاط.

أما الغرفة الثانية، فكانت هي الغرفة 227. تسلّل إلى داخلها وأغلق الباب خلفه واستدار ووقف. كان من الواضح أن أحداً لم ينم في السرير. وكان باب الحمام مفتوحاً، وثمة منشفة عليها آثار دماء متروكة على الأرض.

مشى، ودفع الباب إلى الوراء إلى أقصى مداه. كان هنالك قطعة قماش للتليّف في قاع الحوض، وكانت ملطخة بالدماء. أما المنشفة الأخرى فكانت مفقودة. كما لاحظ وجود بصمات أكفٍّ ملوّثة بالدماء. بصمة منها وُجدت عند حافة ستارة الحوض. قال: آمل ألّا تكون قد زحفت إلى جُحرٍ ما، في مكانٍ ما، فإنني متأكد من صدق رغبتي في قبض أجري عن هذه المهمة.

خرج متسكعاً في الصباح مع بداية ضوء النهار، حيث مشى في الشوارع، وسجّل ملاحظاته الذهنية في رأسه. كان رصيف المشاة قد تمّ شطفه بالماء، لكنه كان لا يزال قادراً على العثور على لطخات من الدم على خرسانة الممرات حيث كان موسّ قد أصيب. عاد إلى شارع ماين وبدأ بحثه من جديد. قطعٌ من الزجاج في المجارير وعلى طول الأرصفة. بعضه زجاج نوافذ، وبعضه الآخر نثار زجاج المصابيح الجانبية للسيارات. أما الشبابيك التي كانت النيران قد أُطلقت عليها، فقد كانت مسدودةً بألواحٍ خشبيةٍ رقيقةٍ، لكنك مع كل ذلك تستطيع أن ترى البثور في الطوب، أو شظايا الرصاص التي تناثرت عن مبنى الفندق. مشى عائداً إلى الفندق وجلس على الدرج ونظر إلى الشارع. كانت الشمس ترتفع في السماء فوق مبنى مسرح الآزتيك. لقد لفت نظره شيء ما، عند مستوى الطابق الثاني من المبنى. نهض من مكانه ومشى نزولاً، وعبر الشارع، وتسلق الدرج. كان هنالك ثقبا رصاص في زجاج الشباك. قرع الباب وانتظر. ثم إنه ما لبث أن فتح الباب ودخل.

غرفة معتمة. رائحة تعفّن خافتة. توقف عن الحركة حتى اعتادت حدقتاه على ظلمة الغرفة. وجد هنالك ردهة، وآلة أرغن إلى جانب الجدار، وخزانة ملابس ذات أدراج، وكرسياً هزّازاً إلى جانب الشباك حيث جلست عليه امراة عجوز في هيئة ملتوية.

وقف ويلز أمام المرأة يتمعّن فيها. كانت قد تلقت رصاصة في جبينها، فانحنى جذعها إلى الأمام تاركاً بذلك جزءاً من مؤخرة جمجمتها وقسماً لافتاً من مادة دماغها تلتصق على ظهر الكرسي الهزّاز وراءها. وكان في حضن المرأة جريدة، كما كانت ترتدي مبذلاً (روباً) قطنياً أبيض، عليه لطخات سودٌ من الدم المتجمد. كان الجو بارداً في الغرفة. نظر ويلز حوله. طلقة أخرى كانت قد أصابت تاريخاً على روزنامة معلقة على الحائط الواقع خلف المرأة، وكان التاريخ يشير إلى ثلاثة أيام مضت. ولم

يقوَ سوى أن يلاحظ ذلك. نظر حوله إلى بقية محتويات الغرفة. استخرج آلة تصوير صغيرة من جيب سُترته وأخذ بضع لقطات للمرأة القتيل، ثم أرجع الآلة إلى مكانها من جديد. قال مخاطباً المرأة: ليس هذا ما كان يدور في ذهنك من تصوُّر أبداً، أليس كذلك أيتها العزيزة؟

* * *

استفاق موسّ في جناح مستشفى، فوجد ستارة من القماش معلقة بين سريره والسرير الواقع إلى يساره. كما كان هنالك لغط أصوات باللغة الإسبانية. وأصوات أخرى كتيمة آتية من الشارع. صوت دراجة نارية، ونباح كلب. أدار وجهه على الوسادة ونظر إلى عيني الرجل الجالس على الكرسي المعدني إلى جانب الحائط، والذي يحمل باقة من الأزهار. قال له الرجل: كيف تشعر الآن؟

لقد شعرتُ بتحسن. من أنت؟

اسمي كارسون ويلز.

ومن تكون؟

أعتقد أنك تعلم من أنا. لقد جلبت لك بعض الأزهار.

أدار موسّ وجهه واستلقى فيما هو يحدّق في السقف: وكم هو عددكم هنا؟

حسناً، أودّ أن أقول لك إن هنالك رجلاً واحداً فقط عليك أن تقلق بشأنه في الوقت الحاضر.

أهو أنت؟

نعم.

وماذا عن الرجل الذي جاء إلى الفندق؟

نستطيع الآن أن نتحدث بشأنه.

تكلم إذاً.

إن بإمكاني إزاحته عنك.

أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي.

لا أظن ذلك.

أنت حرٌّ في رأيك.

لو لم تظهر جماعة أكوستا في اللحظة التي ظهروا بها، لا أظنّ أنك كنت ستستطيع النجاة بحالة سليمة إلى هذا المقدار.

إنني لم أخرج بحالة سليمة.

بل إنك خرجت. لقد خرجت من الموقف بحالة جيدة إلى أقصى حد.

أدار موسّ رأسه ونظر إلى الرجل من جديد: منذ متى أنت موجود هنا؟

منذ ساعة تقريباً.

وكنت تكتفي بالجلوس هناك؟

نعم.

ليس لديك عملٌ كثير، أليس كذلك؟

أحب أن أعمل عملاً واحداً في كل مرة، إذا كان هذا هو ما تقصده.

إنك تبدو كشيطان آتٍ من جهنم في جلوسك هناك.

ابتسم ويلز.

لمَ لا تضع تلك الباقة الملعونة من الأزهار عنك؟

حسناً الحق معك.

نهض وألقى باقة الأزهار على الطاولة المحاذية للسرير، وعاد إلى الجلوس على كرسيه من جديد.

هل تعرف ماذا تعني كلمة سنتيمترين؟

نعم إنها قياس متريّ.

إنها تبلغ حوالي ثلاثة أرباع الإنش.

حسناً.

هذه هي المسافة التي ابتعدت بها الرصاصة عن كبدك.

هل هذا ما قاله الطبيب لك؟

نعم، وهل تدري ما هي وظيفة الكبد؟

كلا.

إن وظيفته هي أن يبقيك حياً. هل تعرف من هو الرجل الذي أطلق النار عليك؟

قد لا يكون هو الذي أصابني. فقد تكون الإصابة جاءت إليّ من المكسيكيين.

وهل تعرف من يكون ذلك الرجل؟

كلا، أيفترض بي أن أعلم؟

إنه ليس بالشخص الذي تريد حقاً أن تعرفه. فالناس الذين يلتقي بهم يميلون لأن يكون ما تبقّى من عمرهم قصيراً جداً، بل انتهى في الحقيقة.

حسناً، هذه شهادة له.

إنك لا تصغي إلى ما أريد قوله لك. إن عليك الانتباه. فهذا الرجل لن يكف عن البحث عنك. حتى وإن قمتَ بإرجاع النقود. فهذا الأمر لن يغير

موقفه منك شيئاً. وحتى لو ذهبت إليه وقمت بإعطائه النقود فإنه سيبقى مصمماً على قتلك رغم ذلك. سيقتلك لمجرد أنك مرة لم تكن مرضياً له.

أعتقد أنني فعلتُ أكثر بقليل من مجرد عدم إرضائه.

ماذا تعني؟

أعتقد أنني قد أصبته.

وما الذي يدعوك كي تعتقد ذلك؟

لقد رشقته بطلقتين من خرطوش صيد الأيائل. وإني لا أعتقد أن ذلك قد تسبب له بالكثير من الأشياء الجيدة.

اعتدل ويلز في مقعده. تمعّن في موسّ جيداً: أتعتقد أنك قد قتلته؟

لست أدري.

ولأنك لم تقتله، فإنه خرج إلى الشارع وقام بقتل كل المكسيكيين ثم عاد إلى الفندق. كأنك قد ذهبت لإحضار ورقة أو شيء من هذا القبيل.

إنه لم يقم بقتلهم جميعاً.

لقد قام بقتل من تبقّى منهم.

أنت تريد أن تقول لي إنه لم يُصب؟

لست أدري.

إنك تقصد أن ما من داعٍ يدعوك لتخبرني.

إذا شئت أن تفهمها كذلك.

هل هو صديقك؟

كلا.

لقد خيّل إليَّ أنه قد يكون صديقك.

كلا، إنك لا تعتقد ذلك. وكيف لك أن تعرف أنه ليس في طريقه إلى أوديسّا؟

وما الذي يدعوه إلى الذهاب إلى هناك؟

ليقتل زوجتك.

لم يجب موسّ بأيّ كلمة. استلقى على سرير الكتان الخشن محدِّقاً إلى السقف. كان يقاسي من ألم، وها هو جرحه يصبح الآن أكثر إيلاماً. قال له: إنك لا تدري بحق الجحيم عمّا تتكلم.

لقد أحضرتُ لك صورتين فوتوغرافيتين.

نهض وألقى الصورتين على السرير ثم عاد إلى مكانه وجلس من جديد. نظر موسّ إلى الصورتين. قال له: ماذا يفترض بي أن أفهم من هاتين الصورتين؟

لقد قمتُ بالتقاط هاتين الصورتين في هذا الصباح بنفسي. والمرأة تعيش في شقة واقعة في الطابق الثاني من إحدى المباني التي قمتَ أنت بإطلاق النيران عليها. إن الجثة لا تزال هناك.

إنك جعبة من الهُراء.

حدّق ويلز فيه جيداً. ثم استدار ونظر إلى الشباك: إنه ليس لك أيّ شأن تفعله بكل هذه الأشياء، أليس كذلك؟

كلا.

وأنت قد عثرتَ على تلك العربات هناك بمجرد الصدفة.

لستُ أدري عمًّا تتحدث.

وأنتَ لم تستولِ على البضاعة، أليس كذلك؟

أية بضاعة؟

الهيروين. إنك لم تأخذه؟

كلا. إنني لم آخذه.

أومأ ويلز برأسه. بدا مفكراً: ربما عليّ أن أسألك ماذا نويتَ أن تفعل؟

ربما علي أن أعيد توجيه السؤال ذاته إليك.

إنني لا أنوي عملَ أيّ شيء. إذ ليس علي أن أفعل ذلك. أما أنت فسوف تأتي إليّ عاجلاً أم آجلاً. ليس لك من خيار في ذلك. إنني سوف أقوم بتزويدك الآن برقم هاتفي الجوال.

وما الذي يدعوك للاعتقاد أنني لن أختفي؟

أتدري كم استغرق الوقتُ منّي للاهتداء إليك؟

كلا.

حوالي ثلاث ساعات.

قد لا يكون الحظ حليفك إلى هذه الدرجة مرة أخرى.

كلا، قد لا أكون كذلك. لكن ذلك لن يكون خبراً سعيداً لك.

أفهمُ أنك قد اعتدت العمل معه.

من؟

هذا الرجل الذي نتحدث عنه.

نعم. لقد فعلتُ ذلك مرة.

ما اسمه؟

تشيغور.

سُكّر؟(*)

(*) كلمة "تشيغور/Chigurh"، هي تحوير لكلمة "Sugar" باللغة الإنكليزية، ومعناها: سُكّر. (المترجم)

تشيغور. أنطون تشيغور.

وما الذي يدريك أنني لن أبرم صفقة معه؟

جلس ويلز وهو يحني جذعه إلى الأمام على كرسيه، ويضع كوعيه فوق ركبتيه، وأصابعه مشتبكة. هزّ رأسه. قال: إنك لا تصغي إلى كلامي.

ربما أكون غير راغب في تصديق كلامك.

بل إنك تصدقني.

أو قد أقوم بإزاحته.

هل أنت تشعر الآن بألم شديد؟

بعض الآلام، نعم.

بما أنك الآن تشعر بألم شديد، فإنه من الصعب عليك أن تفكر جيداً. دعني أنادي الممرضة لك.

إني لا أريدك أن تقوم بتقديم أي خدمة لي.

حسناً.

ماذا يمكنه أن يكون هذا الوغد السيئ بالمطلق؟

لا أعتقد أن هذا هو الوصف الذي يمكن أن يُطلق عليه.

وكيف تصفه أنت؟

فكّر ويلز في هذا السؤال: أظن أن عليّ أن أصفه بأنه لا يملك أيّ حسٍّ بالدعابة والمزاح.

لكن هذه ليست جريمة.

ليست هذه هي الفكرة. فإنني أحاول إيصال فكرة معينة إليك.

حسناً قلها لي.

لا يمكنك عقد صفقةٍ معه. دعني أكرر لك هذا القول. فحتى لو قمتَ بإعطائه الأموال فإنه سيقوم بقتلك رغم كل ذلك. لا يوجد إنسان واحد على ظهر هذا الكوكب كان قد تبادل كلمة غاضبة معه. فإنهم جميعاً قد ماتوا. وليس هنالك من شواذات أو استثناءات. إنه شخص شديد الفرادة، وغريب الأطوار. حتى إنك تستطيع أن تقول إن له مبادئه الخاصة. مبادئ تتجاوز الأموال والمخدرات أو أيّ شيء شبيه بذلك.

إذن، لماذا تخبرني عنه كل هذه الاشياء؟

كنتَ أنت من سألني عنه.

وما الذي يدعوك إلى أن تخبرني؟

أظن أن السبب هو اعتقادي بأنني إذا استطعت جعلك تفهم هذا الموقف الذي أنت فيه، فإن ذلك سوف يجعل مهمتي أكثر سهولة. فأنا لا أعرف عنك شيئاً. لكن ما أعرفه هو أنك لم تولد لمثل هذا. إنك تظن نفسك كذلك. لكنك لست كذلك أبداً.

سوف نرى، أليس كذلك؟

أحدنا سوف يرى. ما الذي صنعته بالنقود؟

لقد صرفت حوالي مليونين على البغايا والويسكي. أما الباقي فقد جعلته يطير في الهواء هباء.

ابتسم ويلز. أسند ظهره إلى كرسيّه، ورفع رجلاً فوق أخرى. كان ينتعل حذاء ثميناً من ماركة لوكشيز، مصنوعاً من جلد التمساح.

كيف تظن أنه اهتدى إليك؟

لم يجب موسّ بأي جواب.

هل فكرت في هذه المسألة؟

أعرف كيف اهتدى إليّ وإنه لن يعرف الاهتداء إليَّ من جديد أبداً.

ابتسم ويلز، وقال: هذا جيد لك.

أجل، جيد لي.

كان هنالك إبريق ماء على صينية بلاستيكية مركونة فوق الطاولة المحاذية للسرير. لم يفعل موسّ شيئاً أكثر من إلقاء نظرة إلى الإبريق.

قال ويلز: أتريد أن تشرب؟

لو أردت أيّ خدمة منك لكنتَ أنتَ أول ابن عاهرة يعرف بذلك.

قال ويلز: إنه جهاز يدعى المستجيب (ترانسبوندر).

أعرف ماذا يدعى.

لكن هذه ليست هي وسيلته الوحيدة للعثور عليك.

أجل.

أستطيع أن أقول لك بعض الأشياء التي ستكون معرفتك بها نافعة لك.

حسناً، إني سأكرر لك ما قلته منذ قليل. لست بحاجة إلى أي خدمات شخصية منك.

ألست فضولياً حول معرفة السبب الذي يدفعني لإخبارك بهذه الأشياء؟

أعرف السبب الذي يدعوك إلى إخباري.

وما هو؟

إنك تفضل التعامل معي بدلاً من التعامل مع تشيغور.

صحيح. دعني أعطيك شربة ماء.

اذهب إلى جهنم.

جلس ويلز بهدوء وهو لا يزال يلقي رجلاً فوق أخرى. نظر موس إليه: هل تظن أنك تخيفني بهذا الشخص؟ إنك لا تدري عما تتحدث. سوف أقتلك معه إذا كان هذا هو ما تريده.

ابتسم ويلز. هزّ كتفيه قليلاً. نظر إلى رأس حذائه وقام بفك رجليه ومرَّر رأس الحذاء تحت ساق بنطاله ماسحاً غبار الحذاء به، ثم أعاد شبْك قدميه، وقال: ما الذي تعمله في الحياة؟

ماذا؟

ما هي صنعتك؟

إنني متقاعد.

وماذا كنت تعمل قبل التقاعد؟

إنني أشتغل بتلحيم المعادن.

بالأسيتيلين أم بماذا؟

بكل أنواع اللحام. فكل ما هو قابل للتلحيم يمكنني تلحيمه.

هل تستطيع تلحيم الحديد الصب؟

نعم.

لست أعني لحام النحاس.

وأنا لم أقل لحام النحاس.

وماذا عن معادن البواتق؟

ماذا قلت لكَ؟

هل خدمتَ في فيتنام؟

نعم. كنت في فيتنام.

هكذا أنا.

ماذا يفيدني ذلك؟ أأكون زميلك؟

لقد كنتُ في القوات الخاصة.

أظن أنك تخلط بيني وبين أي شخص يهمه أمر أيّ شيء من هذا الهراء الذي تهرف به حول ماضيك.

كنت برتبة مقدّم.

هراء.

لا أظن ذلك.

وما هو العمل الذي تعرفه وتتقنه أكثر من سواك؟

أتمكن من العثور على الأشخاص. أسوِّي الحسابات. وأشياء أخرى من هذا القبيل.

أأنت قاتل مأجور؟

ابتسم ويلز: قاتل مأجور، لك أن تسمّيني بما شئت، إن الأناس الذين أتعامل معهم يرغبون في البقاء في الظل. فهم لا يرغبون التورُّط، ولا في جذب الانتباه. كما أنهم لا يحبون الأشياء التي تنشر في الصحف.

إني أراهن على ذلك.

إن هذه المسألة لن تتبدّد. وحتى إن حالفك الحظ وقتلتَ واحداً أو اثنين من الناس، وهو أمر غير محتملٍ حدوثه، فإنهم سوف يرسلون شخصاً آخر في طلبك، ولن يتغير في الأمر شيء. سوف يعثرون عليك رغم كل شيء. وليس لك مكان تفرُّ إليه. ويمكنك أن تضيف ساعتئذٍ إلى متاعب حياتك حقيقة أن الأناس الذين كانوا يقومون بتسليم البضاعة لا

يملكون مكاناً يمكن لهم أن يفروا إليه، أو أن يحميهم أيضاً. وعليه، يمكنك أن تحزر من هو الشخص الذي سيجدّون في طلبه؟ هذا إذا لم نشأ ذكر قوات مكافحة المخدرات، والقوى الحكومية المختلفة المسؤولة عن تنفيذ أحكام القانون. سيكون اسمك موجوداً على رأس قائمة المطلوبين العائدة لأي جهة كانت. بل سيكون اسمك هو الاسم الوحيد على جميع القوائم. إن ما تحتاج إليه الآن هو أن ترمي عظمة أمامي. فإني الآن لا أملك في الحقيقة سبباً واحداً يدعوني إلى القيام بحمايتك.

هل أنت خائف من هذا الرجل؟

هزّ ويلز كتفيه: "قلِق" هي الكلمة التي أفضّل استعمالها.

لكنك لم تذكر بيلّ.

بيلّ، حسناً؟

أظن أنك لا تحمله على محمل الجدّ كثيراً.

إنني لا أكترث لأمره أبداً. فهو ليس سوى أحمر عنقٍ(*) في بلدة ريفية خرقاء في مقاطعة خرقاء، من ولاية خرقاء أيضاً. دعني أنادي لك الممرضة. إنك لا تبدو لي في وضع مريح. هذا هو رقم هاتفي. وإني أريدك أن تفكر في كل ما تكلمنا به، ملياً.

وقف، ووضع بطاقته على الطاولة قرب باقة الأزهار. نظر إلى موسّ: إنك تظن أنك لن تتصل بي. لكنك سوف تتصل. لكن عليك ألّا تنتظر طويلاً. تلك الأموال تعود إلى عميلي. تشيغور هو مجرد مجرم محترف. والوقت لا يجري في مصلحتك. إننا قد نسمح لك بإبقاء بعض المال معك. ولكن إذا كان علي استعادة الأموال من تشيغور، فإن الأمر سيكون قد تأخر كثيراً بالنسبة إليك. هذا إذا لم نشأ ذكر زوجتك.

(*) عبارة تحقير تطلق في جنوبي الولايات المتحدة على بعض العمال الزراعيين الأميركيين البيض المتعصّبين. (المترجم)

لم يجبه موس بجواب.

حسناً. قد يكون من الجدير بك أن تتصل بها، فهي تبدو شديدة القلق.

وعندما غادر، قلب موسّ الصورتين الفوتوغرافيتين الموجودتين قربه على السرير، مثل لاعب يقوم بالكشف عن الأوراق التي حصل عليها. نظر إلى إبريق الماء، لكن الممرضة كانت قد حضرت.

VI

ما زال أبناء الجيل الفتيّ الجديد، حسبما يبدو، يلاقون أوقاتاً صعبة أثناء نموّهم حتى سن البلوغ. لست أدري لماذا. ولعل السبب عائد إلى أن المرء لا ينمو بسرعة تتجاوز السرعة التي عليه أن ينمو بها. إنّ لي ابن عم كان قد صار رجل أمنٍ مفوضاً عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره. كما كان قد تزوج وصار والداً لطفلٍ في ذلك الحين. كما كان لي صديق نشأتُ معه كان قد رُسّم كاهناً في الكنيسة المعمدانية في العمر نفسه، وذلك بصفته راعياً لأبرشية صغيرة ريفية. وقد غادر تلك الأبرشية بعد ثلاث سنوات، لينتقل إلى لوبوك. وعندما أخبرهم في كنيسته أنه ينوي المغادرة، فإن أبناء الرعية جلسوا هنالك في الكنيسة وانتحبوا رجالاً ونساءً على السواء. لقد قام بتزويجهم، وتعميدهم، ودفنهم. وعندما كان عمره لا يتجاوز الحادية والعشرين، أو الثانية والعشرين، فإنه كان يلقي عليهم المواعظ، بينما هم يقفون في الباحة منصتين. لقد أدهشني منه ذلك، إذ إنه عندما كان لا يزال في مقاعد الدراسة، فإنه كان شديد الهدوء. لقد كان عمري لا يتجاوز الحادية والعشرين عندما التحقتُ بسلك الجندية. وكنت أكبر طلاب صفي في معسكر تدريب مجنّدي الأسطول البحري. وبعد ذلك بستة أشهر كنت قد نُقلت إلى فرنسا لأقوم بإطلاق النار على الناس من بندقية رشاشة. ولم أكن في ذلك الوقت لأفكر أن مثل هذا العمل له أيّ ميزة متفرِّدة يمتاز بها. وبعد ذلك بمدة أربع سنوات صرتُ عمدة لهذه المقاطعة. كل هذا، ولم يكن لديّ شكٌّ في أحد الأيام حول ما ينبغي لي أن أكون عليه. وقد صار الآن يستبدُّ بالناس مَيْلٌ للابتسام استخفافاً كلما ذكرتَ أمامهم شيئاً عن الذي يليق أو الذي لا يليق. لكنني لم أكن مرة في شك كبير حول أشياء مثل تلك. وإني لأرجو ألّا أصبح يوماً في شكٍّ من أمري حولها.

لقد أخبرتني لوريتا أنها كانت قد سمعت على الراديو مرة خبراً عن نسبة

معينة من الأطفال في هذه البلاد، ممن يقوم أجدادهم وجدّاتهم على تربيتهم. ولقد غاب عن ذهني الآن الرقم الذي تصل إليه هذه النسبة. لكنها نسبة لافتة في ارتفاعها حسبما بدا لي. فأمهاتهم وآباؤهم يمتنعون عن القيام بتربيتهم. وقد تكلمنا حول هذه المسألة. وما وصلنا إليه هو أنه عندما يأتي إلينا الجيل القادم ولا يكون والدا كلِّ فردٍ من أفراده راغبين في تولي تربيته فمن الذي سيتولّى تلك المهمّة ساعتئذٍ؟ فالوالدان سيكونان هما أعلى الآباء والأمهات درجة في القرابة، وهما سيرفضان تربية الولد. لم نستطع العثور على إجابة لهذا السؤال. وفي أيام حياتي الأفضل، كان هنالك شيء ما لا أعرفه، أو شيء ما أتجاهله. لكن مثل ذلك كان من النادر. إنني أستيقظ في بعض الأحيان أثناء الليل وأكون واثقاً ثقة لا تقلُّ عن يقيني بحتمية قدوم الموت يوماً ما، وأن سرعة انطلاق هذا القطار لا يمكن أن يبطئها شيء إلا إذا أراد الله ذلك. لكنني قلق رغم كل ذلك.

لا أعتقد أنك تستطيع القيام بهذه الوظيفة دون وجود زوجة لك. زوجة جميلة وغير اعتيادية في تميُّز شخصيتها. طاهية، وسجّانة، ولا أدري بعدُ ما هو غير ذلك. ولا أدري مدى حصول شباب هذه الأيام على زوجة مثلها. حسناً ربما يكون لهم ذلك. ولم يساورني قلق في يومٍ ما، حول سلامتها. لقد كان نزلاء السجن لديها يحصلون على خضار وثمار طازجة من الحديقة لقسمٍ كبير من أيام السنة. إضافة إلى خبز الذرة الفاخر، وشوربا اللوبياء. خلا عن كونها مشهورة بإعداد شطائر الهامبرغر والبطاطا المقلية. لقد كان عهدنا بهؤلاء يعودون بعد زواجهم إلينا مع زوجاتهم، وحتى أطفالهم. وهم لم يعودوا الآن لرؤية أمثالي. لطالما كنت قد رأيتهم يقومون بتقديم زوجاتهم وحبيباتهم إلينا ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى الانصراف إلى لعبة البولينغ. رجال بالغون، رجال صدر عنهم ما صدر من الأشياء السيئة. أما هي فتعرف ما تفعله. لقد كان هذا دأبها دائماً. وهكذا، فإننا نتجاوز الموازنة المخصصة للإنفاق على السجن في كل شهر. ولكن ماذا تفعل بخصوص ذلك؟ إنك لن تستطيع لذلك رداً. إن ذلك هو ما ستستمر في عمله رغم كل شيء.

تحوَّل تشيغور عن الطريق السريع عند المخرج رقم 131، وفتح دليل الهاتف، ووضعه في حُجره وبدأ بتقليب الصفحات الملطخة بالدم فيما هو يفتش عن رقم طبيب بيطري. كان هنالك عيادة بيطرية عند خراج براكتفيل على بعد نصف ساعة بالسيارة من المكان الذي هو متوقف فيه. نظر إلى المنشفة الملتفة حول ساقه. كانت قد انتقعت تماماً بالدم الذي بدأ يتسرب إلى قماش المقعد. رمى بدليل الهاتف إلى أرضيَّة السيارة وجلس واضعاً يديه في أعلى عجلة القيادة. جلس في مكانه على هذه الحال لمدة تقارب الثلاث دقائق. ثم عشَّق ترس السيارة وعاد إلى الطريق السريع من جديد.

قاد السيارة إلى أن بلغ تقاطع لابرايور، واختار الطريق الشمالي السريع المؤدي إلى أوفالد. كانت ساقه تؤلمه ألماً نابضاً هو أشبه بنبض المضخّة. وعلى الطريق السريع المذكور، وقبل وصوله إلى أوفالد، توقف أمام مخزن تعاوني، وقام بحلّ شريط الستارة الذي يحزم به المنشفة حول ساقه، وحرّر المنشفة. ثم خرج من السيارة وهو يكاد يمشي على قدمٍ واحدة ودخل إلى داخل المخزن.

اشترى كيساً مليئاً بالمستحضرات والمواد التي يستخدمها الطبيب البيطري. قطن، وشريط لاصق، وشاش، كما اشترى حقنة طبية، وقارورة من محلول الهايدروجين بيروكسايد(*)، ومقصاً، وبعض الغيارات الصالحة للتضميد من قياس أربعة إنشات، وربع غالون من البيتادين. دفع ثمن مشترياته وخرج إلى عربته الرامتشارجر وقام بتشغيل المحرك، ثم قعد

(*) سائل مؤكسِد شفاف مانع للعفونة. (المترجم)

يراقب المبنى عبر المرآة الخلفية، كما لو أنه يفكّر في أيٍّ شيء آخر يمكن له أن يكون في حاجة إليه، لكن الحقيقة لم تكن كذلك. جعل أصابع يده في داخل طرف كمِّه، وقام بمسح العرق عن عينيه بكلّ عناية. ثم قام بتعشيق ترس السيارة ورجع بها قليلاً إلى خارج فسحة الوقوف، وانطلق على الطريق السريع متجهاً نحو قلب المدينة.

قاد سيارته عبر شارع ماين، واستدار شمالاً عند محلة غيتي، ثم تحوّل من جديد شرقاً نحو محلة نوبال حيث أوقف سيارته وأطفأ محركها. كانت ساقه لا تزال تنزف. استخرج المقص من جعبته، كما استخرج الشريط اللاصق وقطع قطعة مستديرة يبلغ قطرها ثلاثة إنشات من كرتون العلبة التي تحتوي على كرات القطن. وضع كل ذلك بالإضافة إلى بكرة الشريط اللاصق في جيب قميصه. استخرج علّاقة ثياب من أرضية السيارة خلف مقعده، وقام بطيّ أطرافها لجعلها سلكاً مستقيماً. ثم انحنى وفتح حقيبته واستخرج منها قميصاً قطع منه كُمّاً واحداً بالمقص، وطوى الكمَّ ووضعه في جيبه وأعاد المقص إلى الكيس الورقي الذي جلبه من المخزن التعاوني. ثم فتح باب السيارة، وأنزل نفسه منها بعد أن قام برفع الساق المجروحة بكلتا يديه من تحت ركبته. وقف هناك مستنداً إلى باب سيارته. ثم انحنى ملقياً رأسه إلى صدره، وبقي على تلك الوضعية ما يناهز الدقيقة. ثم رفع رأسه وأغلق الباب، وشرع في السير نزولاً على الشارع.

توقف أمام صيدلية في شارع ماين، واستدار، وانحنى على سيارة متوقفة هناك. تفحّص الشارع فوجد أنه خالٍ من المارة. فكَّ غطاء خزان وقود السيارة عند مرفقه، وقام بتعليق كمِّ القميص في الشريط المستخرج من علّاقة القمصان، ثم أنزل الكمَّ إلى داخل خزان السيارة وقام بسحبه من جديد. ثم قام بتلصيق قطعة الكرتون فوق فوَّهة الخزان وكوَّر الكمَّ الذي بات الآن مشبعاً بالبنزين في فتحة الخزان وأنزله قليلاً ثم أشعله

ودخل يعرُج في اتجاه الصيدلية. لم يكن قد قطع نصف مسافة الممر المؤدي إليها، حتى انفجرت السيارة في كتلة من اللهب مدمِّرة نصف زجاج واجهة الصيدلية.

دخل إلى داخل الصيدلية من خلال البوابة الصغيرة، واتجه نحو الممرات الداخلية التي تفصل بين واجهات عرض الأدوية والمستحضرات. هنالك عثر على علبة من الحقن الطبية، وقارورة من حبوب الهايدروكودون، وخرج من ذلك الممر إلى ممر آخر وهو يبحث عن البنسلين. لم يستطع العثور على عقار البنسلين لكنه عثر على عقاري التيتراسيكلين والسُلفا. قام بحشو جيوبه من هذه المستحضرات، وخرج من وراء النَّضد إلى العبق البرتقالي للحريق، واتجه نحو ممر آخر، والتقط زوجاً من العكازات المصنوعة من الألمنيوم، وفتح الباب الخلفي، ومضى متقافزاً عبر باحة الوقوف الترابية الواقعة خلف الصيدلية. انطلق صوت صفّارة الإنذار من الباب الخلفيّ، لكن أحداً لم يلقِ إليه انتباهاً، ولم يكلِّف تشيغور نفسه حتى عناء الالتفات إلى تطور الحدث أمام واجهة الصيدلية التي بدأت النيران الآن بالتهامها.

دخل بسيارته إلى باحة فندق صغير يقع خارج هوندو، واستأجر غرفة فيه واقعة في طرف المبنى. دخل غرفته ووضع حقيبته على السرير. دسَّ المسدس تحت الوسادة، ودخل الحمام ومعه كيس مشترياته من المخزن التعاوني، ووضع المحتويات في باطن الحوض. قام بإفراغ جيوبه ووضع كل شيء على النَّضد؛ المفاتيح، ورزمة النقود، وزجاجات المضاد الحيوي، والحقن. جلس على حافة الحوض، وخلع نعليه، ومدّ يده، وقام بتثبيت سدّادة الحوض في موضعها، وفتح الحنفية. ثم خلع ملابسه وأنزل نفسه في الحوض المليء بالماء.

كانت ساقه قد غدت زرقاء سوداء، متورّمة إلى درجة سيّئة. بدت كأنها أصيبت بعضّة أفعى. قام بصبِّ الماء فوق الجروح، مستعيناً على

ذلك بفوطة الغسيل. أدار ساقه في الماء وتمعّن في المكان الذي خرجت منه الرصاصة. كان ثمة قطع صغيرة من الثياب قد علقت بالأنسجة اللحميَّة. ولقد كان الثقب من الكِبر بحيث يمكنك إدخال إبهامك فيه.

عندما خرج من الحوض كان الماء فيه قد استحال إلى لونٍ زهريٍّ باهتٍ، وكانت الثقوب في الساق لا تزال تنزُّ سائلاً من المصل الدمويِّ الشاحب اللون. أنزل فردتي حذائه في الحوض المليء بالماء. وقام بتنشيف جسده بمنشفة، وجلس على كرسي الحمام، وتناول قارورة البيتادين وحزمة الكتل القطنية، وقام بتمزيق العبوة البلاستيكية التي تضمها، بأسنانه، وفتح القارورة وبدأ بتمريخ الجراح ببطءٍ، بمحتوياتها. ثم وضع القارورة جانباً وأكبّ على العمل، منظفاً الجرح من خيطان النسيج الصغيرة العالقة به، مستعيناً على ذلك بقطع القطن والملقط الجراحي. اتخذ لنفسه فترة استراحة قصيرة في داخل الحمام فيما مياه الصنبور تجري. ثم وضع رأس الملقط الجراحي تحت مياه الحنفية، ونفض الماء عنه، واستأنف العمل على جرحه من جديد.

عندما انتهى من عمله، قام بتعقيم الجرح للمرة الأخيرة. وفتح عبواتٍ رباعية الشكل من الضماد وأطبق بها على ثقوب ساقه. ولفّها بلفافات من الشاش معدَّة لمداواة العنز والغنم. ثم نهض وملأ الكأس البلاستيكي الموجود على نضد الحوض، بالماء وشربه. ثم أعاد ملأه والارتواء من الماء من جديد. ثم عاد إلى غرفة النوم وتمدّد فوق السرير رافعاً ساقه فوق وسادة. وفي ما عدا بعض حبّات العرق الناضحة فوق جبينه، فإنه لم يبدُ عليه أيّ دليل يشير إلى أن جهوده قد كلفته أي شيء على الإطلاق.

عندما عاد من جديد إلى غرفة الحمام، فإنه فكّ غلاف واحدة من الحقن الطبية، وقام بغرز الإبرة في الغطاء البلاستيكي لعبوة التيتراسيكلين، وسحب المادة إلى باطن الحقنة الزجاجية حتى امتلأت، ثم

قام برفع باطن الحقنة إلى مصدر الضوء، وضغط عليه بواسطة إبهامه إلى أن رأى قطرات من الدواء بدأت تتسرب إلى الخارج من رأس الإبرة المثقوبة. نقر الحقنة مرتين بإصبعه، ثم انحنى وغرز إبرة الحقنة في العضلة الرباعية الرؤوس في ساقه اليمنى، ثم بدأ بحقن العقار في جسده ضاغطاً على رأس مكبس الحقنة شيئاً فشيئاً.

مكث في الفندق خمسة أيام. كان يسكع فيها على عرجٍ إلى صالة الطعام في الفندق متوكئاً على عَصوَيه المعدنيتين من أجل تناوُل وجباته والعودة إلى غرفته من جديد. ولقد أبقى جهاز التلفاز مشتغلاً طيلة الوقت بينما اكتفى بالجلوس في سريره مراقباً، وهو لم يكلّف نفسه مرة عناء تغيير القنوات، فإذا به يراقب كل شيء يمر على الشاشة من المسرحيات الموسيقية التي ترعاها الشركات التجارية على سبيل الدعاية، إلى نشرات الأخبار، إلى المقابلات الإعلامية. وقد كان يغيِّر ضماد الجرح بمعدل مرتين في اليوم، فيقوم بتنظيف الجرح بواسطة محلول الملح الإنكليزي ويتابع حَقن نفسه بالمضاد الحيوي. وعندما طرقت الخادمة باب غرفته للمرة الأولى في اليوم الأول، فإنه ذهب إلى الباب وقال لها إنه لا يجد نفسه في حاجة إلى أية خدمة سوى تزويده بالمناشف والصابون. وقد قام بنفحِها عشرة دولاراتٍ، فما كان منها سوى أن تسلَّمتها ووقفت أمامه حائرة، فأعاد عليها القول نفسه باللغة الأسبانية فأومأت برأسها إيجاباً، ودسّت المبلغ في جيب مئزرها، ودفعت عربتها وانصرفت عنه موغلة في عمق الممر، وقد وقف هو هنالك ونظر إلى السيارات المتوقفة في باحة الوقوف نظرة متفحّصة، ثم أغلق بابه من جديد.

في الليلة الخامسة، وفيما هو جالس في الصالة إذ برجلي أمن تابعين إلى مكتب عمدة مقاطعة فالديز يدخلان الصالة ويجلسان وينزعان قبعتيهما ويلقيان بهما على كرسيين فارغين ويتناولان لائحة الطعام من على السّناد المطليّ بمعدن الكروم، ويفتح كلٌّ منهما كراسته أمامه. وقد

قام أحد هذين الرجلين بإلقاء نظرة نحوه. وكان تشيغور يراقب كل ذلك دون الاستدارة أو النظر المباشر. وتكلّما، وعند ذلك ألقى الرجل الثاني نظرة نحوه. ثم جاءت الخادمة. هنا أنهى هو شرب قهوته ونهض تاركاً النقود على ظهر الطاولة ومشى مغادراً قاعة الطعام. ترك عصويه في مكانهما ومشى ببطءٍ وهو يتحاشى العَرج طيلة الممشى الممتد خارج واجهة الصالة. مرّ أمام غرفته إلى نهاية الممشى واستدار. نظر إلى عربته الرامتشارجر المركونة في طرف بقعة وقوف السيارات فوجد أنه لا يمكن لأحد رؤيتها أو ملاحظتها لا من المطعم، ولا من مكتب الدخول. عاد إلى غرفته فوضع عدة الحلاقة والمسدس في جعبته ومشى إلى الخارج عبر باحة وقوف السيارات وركب عربته وقام بتشغيل محركها وتسلق بها قافزاً فوق حاجز خرساني منخفض إلى باحة الوقوف المخصصة لمحل بيع الأدوات الإلكترونية الملاصق للفندق، ومن هنالك دخل بعربته إلى الطريق السريع.

* * *

وقف ويلز على الجسر فيما هواء النهر يعبث بشعره الرمليّ الخفيف، ثم استدار وانحنى على الحاجز ورفع آلة التصوير الصغيرة الرخيصة التي يحملها معه والتقط صورة للاشيء محدّد، ثم أنزل الآلة من جديد. كان يقف في المكان الذي كان يقف فيه موسّ قبل أربع ليالٍ. تفحّص الدماء على الممر، وحيث كان يجد أن خط آثار الدماء كان يتلاشى أو يؤدي إلى لا شيء، فإنه كان يتوقف ويرفع قامته شابكاً ذراعيه معاً ورافعاً ذقنه بطرف إبهامه. لم يكن يأبه لأخذ صورة لأن أحداً لم يكن يراقبه. نظر إلى أسفل النهر إلى حيث المياه الخضراء تنسرب ببطء. مشى عشر خطواتٍ ثم عاد. دلف إلى الطريق وعبر إلى الجانب المقابل. مرّت شاحنة. ارتجف ضوؤها على البنى الفوقية للطريق. مضى على طول الطريق ثم توقف.

وجد أمامه أثراً ضئيلاً لوقع خطواتٍ ملوّثة بالدم. آثار أكثر ضآلة من سواها. تفحّص السياج المؤلّف من حلقات مترابطة ليرى ما إذا كان هنالك أيّ آثار دماء يمكن تتبعها على الشريط. أخرج منديله من جيبه، وقام بتبليل ذيله بطرف لسانه. ثم مرَّر المنديل بين الأشكال الهندسية للسياج. ثم وقف ينظر سُفلاً إلى حوض مجرى النهر. وجد طريقاً ينساب نزولاً على طول الجانب الأميركي من الحدود. وقد لاحظ أنه يوجد بين تلك الطريق وبين مجرى النهر دغلٌ كثيف من قصب البامبو. كان القصب يتمايل بنعومة مع هبوب رياح النهر. قال في نفسه: إذا كان قد حمل النقود معه إلى المكسيك، فهذا يعني أن النقود قد ذهبت. لكنه لم يحملها معه.

وقف ويلز متراجعاً ونظر إلى آثار الأقدام من جديد. كان بعض المكسيكيين قادمين على طول الجسر وهم يحملون سلالهم ورزم أمتعتهم اليومية. استلّ آلة التصوير والتقط بعض اللقطات للسماء والنهر والمحيط من حوله.

* * *

جلس بيلّ إلى مكتبه يوقّع الشيكات المالية ويقوم بتسجيل الأرقام على آلة حاسبة يدوية. وعندما انتهى من كل ذلك. اتكأ إلى الوراء على كرسيه ونظر إلى خارج النافذة إلى حيث تقع حديقة مبنى السرايا الجرداء. قال: مولي.

لبّت نداءه واقفة في الباب.

هل وجدتِ شيئاً يتعلق بهذه العربات حتى الآن؟

أيها العمدة، لقد وجدتُ كل شيءٍ يمكن إيجاده عنها. فإن تلك العربات تحمل تسجيلاً وعناوين عائدة إلى أناسٍ أموات. فمالك عربة

البلايزر تلك قد توفي منذ عشرين عاماً. أتريدني أن أرى ماذا يمكن لي أن أجده عن العربات المكسيكية؟

لا. بحق الله لا. هذه هي شيكاتك.

تقدَّمت إلى داخل المكتب وتسلمت منه الحافظة الجلدية الصغيرة لدفتر الشيكات ووضعتها تحت ذراعها: إن العميل التابع لقسم مكافحة المخدرات قد عاد للاتصال من جديد. هل تريد التحدث إليه؟

سأحاول البقاء بعيداً عن هذا الأمر قدر استطاعتي.

لقد قال إنه سيعود لزيارة الموقع هناك، وهو يسأل عمّا إذا كنت ترغب في مرافقته.

حسناً هذا لطف كبير منه. أظن أنه يستطيع الذهاب أينما شاء. فهو عميل مجاز تابع لحكومة الولايات المتحدة الأميركية.

إنه يريد أن يعرف ما الذي تريد عمله بالعربات.

أجل، إني سأحاول القيام ببيع كل هذه الأشياء في مزاد علني. وهنالك أموال كثيرة يمكن أن تستهلكها بالوعة هذه المقاطعة. وقد نكون قادرين على توفير بعض النقود التي قد تسدّ بعض الثغرات. ألم يرِدْ أيّ شيء من السيدة موسّ؟

كلا يا سيدي.

نظر إلى الساعة المعلقة على الحائط الخارجي للمكتب: أتساءل عمّا إذا كنتِ تستطيعين الاتصال بزوجتي لوريتّا وأن تخبريها أنني قد ذهبت إلى إيغل باسّ، وأنني ربما أقوم بالاتصال بها من هناك. كان بودّي الاتصال بها لكنني أخشى أن تطلب مني الذهاب إلى البيت فأضعف أمام طلبها.

أتريد مني التريُّث في الاتصال بها إلى أن تكون قد غادرتَ السرايا؟

نعم، هو كذلك.

دفع كرسيه إلى الوراء، ونهض من مكانه، وقام بإنزال حمّالة مسدسه عن مشجب المعاطف خلف مكتبه وعلّقها على كتفه، والتقط قبعته واعتمرها: ما الذي قاله توربرت حول الحقيقة والعدالة؟

قال إننا نقوم بتجديد تكريسنا لأنفسنا في كل يوم. شيء من هذا القبيل.

أظن أنني سأبدأ بتكريس نفسي منذ الآن مرتين في كل يوم. وقد تظهر الحاجة لتكريس النفس مرة ثالثة أيضاً قبل أن ينقضي النهار. سوف أراكِ غداً صباحاً.

توقف عند المقهى واشترى قهوة للطريق، وخرج في طلب سيارته الرسمية المخصصة لأعمال الدورية، في الوقت الذي كانت فيه شاحنة مسطحة الذيل قادمة في الشارع. كانت الشاحنة مغبَّرة بغبار الصحراء الرمادي. توقف مراقباً إياها ثم صعد إلى سيارته وتحرك بها وتجاوز الشاحنة وأعطاها إشارة بوجوب التوقف إلى جانب الطريق. وعندما ترجّل من سيارته ومشى عائداً إلى الوراء نحو سائق الشاحنة فإنه وجده يجلس خلف المقود وهو يمضغ علكة ويقوم بمراقبته بنوع من العتوِّ الذي لا ينمُّ عن طبيعة سيئة.

ألقى بيلّ إحدى يديه على الشاحنة ناظراً نحو السائق. أومأ السائق برأسه وقال: مرحباً أيها العمدة.

هل ألقيتَ نظرة إلى حِملك مؤخراً؟

نظر السائق في المرآة: وما هي المشكلة أيها العمدة؟

تراجع بيلّ قليلاً عن الشاحنة. قال له: تفضّل بالنزول من شاحنتك.

فتح الرجل الباب وخرج من الشاحنة. أشار بيلّ إلى الذيل المسطح للشاحنة. قال له: إن هذه مخالفة صارخة.

مشى الرجل إلى مؤخرة الشاحنة وقام بإلقاء نظرة. قال: إن أحد الرِّباطات قد تراخى عن مكانه.

أمسك بالزاوية المتدلية للغطاء وجذبه معيداً إياه إلى مكانه على طول الذيل المسطح للشاحنة وذلك فوق الجثث المرصوفة فيها. كانت كل جثة ملفوفة وسط غلاف بلاستيكيّ أزرق مثبت بواسطة شريط لاصق. كان هنالك ثمانٍ منها. ثمانية أجساد هامدة ومنضّدة.

قال بيلّ: كم بقي هنالك منها؟

لم أُضِع ورائي أية واحدة منها أيها العمدة.

ألم يكن بإمكانكم استعمال شاحنة أكبر في هذه المهمة؟

ليس لدينا شاحنة أكبر تسير بالدفع الرباعي.

ربَط زاوية الغطاء المتدلي ووقف منتظراً.

قال بيلّ: حسناً.

إنك لن تقوم بتحرير مخالفة بحقي بسبب مخالفة قواعد سلامة الحمولة؟

كل ما عليك الآن هو أن تزيح مقعدتك من هنا وتغرب عن وجهي.

وصل إلى جسر نهر دافيلز عند وقت االغروب. وعند منتصف الجسر، أنزل سرعة سيارته إلى درجة الوقوف وأضاء كشّافات سطح العربة، وخرج منها، وأغلق الباب، ومشى مستديراً أمامها، ووقف متكئاً على أنبوب الألمنيوم الذي يخدم كدفاع للمقدمة العليا للعربة. وقف يرقب غروب الشمس خلف السدِّ الأزرق الواقع وراء جسر سكة الحديد لناحية الغرب. كان ثمة التواء في المنظر الطبيعي لناحية الغرب يأتي في شبه التفاف حول المنعرج الطويل الذي ينحدر نزولاً. وإذا بأضواء أمامية لسيارة تظهر فجأة. كان سائقها يحني رأسه إلى النافذة قليلاً بينما هو

يمر بسيارته: لا تقفز من فوق الجسر أيها العمدة، فإنها لا تستحق ذلك. ثم ما لبث أن مضى هو وسيارته جاذباً وراءه بالوعة من الهواء. كانت الشاحنة ذات محرك الديزل تدور فوق الطريق المتعدد المنحنيات فيما السائق لا ينفك عن تعشيق التروس والتبديل بينها. ابتسم بيلّ. قال لنفسه: إن جوهر هذه المسألة، هو: "هي".

* * *

بعد أن تجاوزت السيارة التقاطع بين الشارعين 481 و57، بمسافة ميلين، أصدر الصندوق الملقى على المقعد المجاور لمقعد السائق صوتاً واحداً قصيراً ثم صمت من جديد. انزاح تشيغور بسيارته إلى كتف الطريق وتوقف بها. التقط الصندوق من جانبه وأخذ يقلِّبه. قام بتعديل أزراره. لم يطرأ أيٌّ جديد. خرج من مكان وقوفه إلى الطريق السريع من جديد. صار شفق المغيب بحيرة حمراء خلف التلال الخفيضة الزرقاء الممتدة أمامه. كانت الشمس تستنزف نجيعها الأحمر شيئاً فشيئاً. وخيّم شبح باردٌ للغروب فوق الصحراء. نزع النظّارة الشمسيَّة عن عينيه ووضعها في محفظة السيارة ثم أغلق باب المحفظة، وأضاء مصابيح السيارة الأمامية. وعندما قام بذلك، بدأ الصندوق يرسل أصواتاً قصيرة بطيئة في وتيرة زمنية واحدة متناوبة.

أوقف سيارته خلف الفندق، وخرج منها وهو يعرج حولها حاملاً الصندوق المذكور وبندقية الرشّ والمسدس جميعاً في الحقيبة ذات السحّاب. ثم اجتاز باحة الوقوف، وتسلق الدرجات القليلة المؤدية إلى مدخل الفندق.

أنهى إجراءات التسجيل وتسلَّم مفتاح غرفته، وعرَج مرتقياً بعض الدرجات، ثم تقدّم في الممر نحو غرفته حيث دخل إليها وأقفل الباب خلفه. استلقى على سريره واضعاً بندقية الرشّ على صدره، ومحدّقاً نحو

سقف الغرفة. لم يخطر في باله سبب واحدٌ يبرر وجود الجهاز المستجيب في هذا الفندق. كان قد استبعد موسّ لأنه فكّر أن هذا الأخير لا بد أن يكون قد قتل. وبالتالي لا يبقى سوى البوليس. أو لعله أحد عملاء جماعة ماتا كومب بيتروليوم غروب. عميلٌ لا بدّ من أنه حسب أنه (تشيغور) اعتقد أنهم اعتقدوا بأنه اعتقد (تشيغور) أنهم أغبياء جداً. لقد فكّر في هذا الاحتمال.

عندما نهض من نومه، كان الوقت قد بلغ الساعة العاشرة والنصف ليلاً، وقد بقي مضطجعاً في مكانه في نصف عتمة هادئة. لكنه كان قد عرف الإجابة على التساؤل الذي يساوره. نهض، ووضع بندقية الرشّ خلف الوسائد، وحشر المسدس تحت حزام بنطاله. ثم خرج وهو يعرج على الدرجات نحو مكتب الدخول.

كان الموظف يجلس هناك يقرأ في مجلة عندما وقع نظره على تشيغور مقبلاً نحوه، عندها دسّ المجلة تحت النضد ونهض. قال له: نعم، سيدي.

أرغب في الاطلاع على سجلِّ النزلاء.

وهل أنت رجلُ أمن؟

كلا، إنني لستُ كذلك.

أخشى أنني لن أستطيع إجابة طلبك يا سيدي.

بل ستستطيع.

وعندما عاد إلى الطابق العلويّ، وقف مصغياً في الباحة الخارجية خارج الباب المؤدّي إلى غرفته. دخل الغرفة وأتى ببندقية الرشّ وبجهاز الاستقبال، ثم مشى إلى الغرفة المسوّرة بالشريط المانع للدخول، وقام برفع الصندوق إلى مقربة من الباب، وأدار زرّ التشغيل. ثم انتقل إلى الباب التالي وامتحن حالة الاستقبال هناك، ثم رجع إلى الغرفة الأولى وقام بفتح

الباب بالمفتاح الذي حصل عليه من مكتب الاستقبال، وتراجع قليلاً إلى الوراء، ووقف في مقابل جدار المدخل.

كان باستطاعته سماع أصوات حركة المرور في الشارع الذي يقع خلف باحة الوقوف، لكنه رغم ذلك كان يعتقد أن الشباك لا يزال مغلقاً. ذلك أنه لم يكن يشعر بأيِّ حركة لتيار هوائيّ. نظر بسرعة إلى الغرفة. كان السرير مزاحاً عن الجدار. وكان باب غرفة الحمّام مفتوحاً. تفقّد زرّ الأمان في بندقيته ثم عبَر من المدخل إلى الجانب الآخر.

لم يكن هنالك من أحدٍ في الغرفة. قام بمسح الغرفة مستخدماً الصندوق فوجد أن وحدة الإرسال والاستجابة موجودة في دُرج الطاولة المحاذية للسرير. جلس على السرير يقلِّب الجهاز في يده، جهاز معدني صغير ذو شكلٍ ألماسيٍّ ولون فضيٍّ لمّاع، لا يتجاوز حجمه حجم قطعة الدومينو. نظر من النافذة نحو باحة الوقوف. كانت ساقه تؤلمه. وضع القطعة المعدنية في جيبه وأطفأ جهاز الاستقبال ونهض مغادراً بعد أن أغلق الباب جاعلاً إياه ينقفل وراءه. وفي داخل الغرفة كان جرس الهاتف يرن. فكّر في هذا الأمر لحظة. ثم وضع جهاز الإرسال والاستجابة على عتبة النافذة في المدخل وقفل عائداً إلى ردهة الفندق.

هناك قعد ينتظر قدوم ويلز. ما من أحدٍ يفعل ذلك. جلس على كنبة من الجلد مركونة في زاوية تسمح له برؤية الباب الأمامي والطريق المؤدي إلى خلفية الفندق، معاً. وصل ويلز عند الساعة الحادية عشرة والنصف، فنهض تشيغور وتبعه إلى الطابق العلوي. كانت بندقية الرش ملفوفة بشكل فضفاض بجريدة كان يقوم بقراءتها. وعند منتصف الطريق إلى الطابق العلوي استدار ويلز ناظراً وراءه فترك تشيغور الجريدة تسقط من يده وقام برفع بندقية الرش إلى مستوى خصره. قال له: مرحباً يا كارسون.

جلسا في غرفة ويلز، جلس ويلز على السرير بينما جلس تشيغور على الكرسي المحاذي للنافذة. قال ويلز: لم يكن عليك أن تفعل ذلك، فأنا

بائع خدمات بالمفرّق، وبوسعي العودة إلى بيتي.

لقد كان ذلك بوسعك.

لكنني جعلتُ الأمر يستحق ذلك. لقد قادني الأمر إلى صرَّاف آلي، فيما اكتفى الجميع بالانصراف عن هذه المهمة. هنالك أربعة عشر ألف دولارٍ في هذه العملية.

إنه راتب نهار جيد.

أظن ذلك.

نظر تشيغور إلى خارج النافذة، وكانت بندقية الرشّ مستوية على ركبتيه. قال: إن إصابتي قد غيرتني. لقد غيَّرت وجهات نظري. لقد تحركتُ في طريقة معينة، وقد وقعت بعض الأشياء في مكان لم تكن هي فيه من قبل. ولقد كنتُ ظننتُ أن هذا هو موقِعُها ولكنه لم يكن. إن أفضل طريقة يمكن لي أن أصف الأمور بها هي القول إنني وجدتُ نفسي كأنها مسربلة بنفسي. إن هذا ليس بالأمر السيِّئ. وقد فات الأوان الآن.

ولكن النهار لا يزال نهاراً ذا راتب جيد.

إنه لكذلك. لكن الفرق كله أن الدفع سيكون بعملة خاطئة.

نظر ويلز إلى المسافة بينهما. قال: إنه أمرٌ لا طعم له. وربما أنه كان مبرراً منذ عشرين سنة خلَت، بل ربما ليس حتى منذ عشرين سنة. وعلى كل حال، قم بعمل ما ترى عمله.

جلس تشيغور مرخياً كتفيه بطريقة عرضية على الكرسي. وكان يُسند ذقنه إلى براجم أصابعه وهو يراقب ويلز. يراقب آخر أفكاره. وكان قد رآها كلها من قبلُ، كما كان ويلز قد رآها أيضاً.

قال: لقد بدأ هذا التحوّل معي قبل ذلك، لكنني لم أكن متنبِّهاً لذلك قبل الآن. وعندما ذهبتُ إلى الحدود، فإنني توقفتُ في مقهى تلك البلدة.

لقد كان هنالك بعض الرجال الذين يحتسون الجعة، وكان أحدهم يديم النظر إليّ. لكنني لم أُلقِ له بالاً. طلبتُ عشائي وتعشيت. لكن عندما مشيتُ إلى النَّضد لأدفع ثمن العشاء، كان عليّ المرور بالقرب منهم. وكانوا يضحكون. وقد قال هو كلاماً يصعب تجاهله. أتدري ما الذي فعلتُه ساعتئذٍ؟

أجل. إني أعرف ما فعلتَه.

لقد تجاهلتُه. دفعتُ حسابي، وبدأتُ أدفع الباب للخروج عندما سمعتُه يكرر قول الشيء نفسه. استدرتُ ونظرت إليه. كنت أكتفي بالوقوف هناك فيما أنا أقوم بتنظيف أسناني بنكاشة أسنان وقد قمتُ بإرسال إيماءة له برأسي كي يظهر إلى الخارج إذا كان يرغب في ذلك. ثم خرجتُ وانتظرتُه في باحة الوقوف. خرج هو، وخرج معه أصدقاؤه. وقد قمتُ بقتله هناك في باحة الوقوف، ثم ركبتُ سيارتي. وكانوا جميعاً مجتمعين حوله، ولم يعرفوا ما الذي حصل. لم يعرفوا أنه قد مات. قال أحدهم إنني قد ألقيتُ عليه سحراً منوِّماً، فصدّق الجميع على قوله. كانوا يحاولون إنهاضه إلى وضعية الجلوس. وبعد ساعة من ذلك أوقفني شرطي مساعد في دائرة العمدة خارج سونورا في تكساس فسمحتُ له بأن يقتادني إلى البلدة وأنا مقيّد المعصمين. لست واثقاً من السبب الذي جعلني أُقدِم على ذلك، لكنني أردت أن أرى ما إذا كنتُ قادراً على تحرير نفسي بعملٍ من محض إرادتي. وذلك لأنني أعتقدُ أن بإمكان المرء أن يفعل ذلك. وأن مثل هذا العمل إنما هو ممكن. لكنه كان عملاً من أعمال الحماقة. أتفهمني؟

أتسألني عما إذا كنتُ أنا أفهمك؟

نعم.

هل لديك أيُّ فكرة عن مبلغ ما أنت فيه من جنون؟

وعن طبيعة هذه المجادلة؟

بل عن طبيعتكَ أنت.

اتكأ تشيغور إلى الوراء. تأمّل وجه ويلز، وقال: أخبرني شيئاً.

ما هو؟

إذا كانت القاعدة قد قادتكَ إلى هذا المصير فماذا يكون نفعُ هذه القاعدة؟

لستُ أدري عمّا تتحدث.

إنني أتحدث عن حياتك. عن كلّ ما سيبدو لك واضحاً على الفور.

إنني لا أستسيغ هذا الهراء الذي تهرف به الآن يا أنطون.

أعتقدُ أنك تريد أن تفسّر كلامك.

لست مضطراً إلى تفسير كلامي لك.

ليس لي، بل لنفسك. وقد خُيِّل إليَّ أنه لا بد لك من أن يكون لديك كلام تريد قوله.

اذهب إلى الجحيم.

إنك تدهشني، هذا كلُّ ما في الأمر. إنني لا أتوقع أيَّ شيء مختلف عن هذا. وهو أمر يستحضر المساءلة حول الأحداث الماضية. ألا تظن ذلك؟

أتعتقد أنني أقبل بمقايضة حالكَ بحالي؟

نعم، إنني أعتقد ذلك. أنا هنا وأنتَ هنالك. وبعد دقائق قليلة فإنني سأكون باقياً حيث أنا.

نظر ويلز في اتجاه الخارج من خلال النافذة المعتمة. قال: إنني أعرف مكان وجود حقيبة الأموال.

لو كنتَ تعرف مكان وجودها حقاً لاستوليت عليها.

بل عليَّ الانتظار حتى يأتي وقت لا يكون فيه أحد حول مكان وجودها. عليَّ الانتظار إلى الليل. إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، أو شيء من هذا القبيل.

إذن أنت تعرف مكان وجود الحقيبة.

نعم.

لكنني أعرف ما هو أفضل من ذلك.

وما هو؟

أعرف المكان الذي سوف تذهب أخيراً إليه.

وأين هو ذلك المكان؟

ستأتي الحقيبة إليَّ، ويتمُّ وضعها عند قدميَّ.

مسح ويلز فمه بقفا كُمِّه: إنها لن تكلفك أيَّ شيء، فهي على مسافة عشرين دقيقة فقط من هنا.

أنت لا تعرف شيئاً عمّا سيحدث، أليس كذلك؟

لم ينطق ويلز بأيِّ جواب.

ألا تعرف؟

اذهب إلى جهنم.

أتعتقد أنك قادرٌ على إطفاء ذلك بنظرات عينيك؟

ما الذي تعنيه؟

أتعتقد أنك ما دمت قادراً على إطالة النظر إليّ فإنك تستطيع إلغاء ما سيحدث لك؟

لا لست أعتقد ذلك.

بل إنك تعتقد ذلك. وعليك أن تعترف بالموقف الذي أنت فيه. سيكون هنالك المزيد من الوقار في ذلك. وإنني الآن أحاول مساعدتك.

يا ابن السافلة.

أنت تعتقد أنك لن تغمِض عينيك. لكنك سوف تغمضهما.

لم يجب ويلز بأيّ كلمة. راقبه تشيغور. قال له: كما أنني أعرف ما الذي يدور في اعتقادك أيضاً.

بل إنك لا تملك علماً بالذي أفكّر به.

إنك تظن أنني مثلك، وأن المسألة عندي لا تعدو كونها قضية طمع. لكنني لست أُشبِهك. فأنا أعيش حياة بسيطة.

هيا، افعل ما تريد فِعله.

إنك لا تعلم. رجلٌ مثلك لا يستطيع أن يفهم.

هيا اقتلني.

قال تشيغور: أجل، كلهم يقولون ذلك. لكنهم لا يعنون ما يقولون، أليس كذلك؟

أنت قطعة من القذارة.

هذا لا يليق بك يا كارسون. إن عليك أن تلملم نفسك. فإذا كنت لا تحترمني، فما الذي تعتقده حول نفسك؟ انظر إلى المكانة التي أنت فيها.

إنك تظن أنك خارج عن نطاق كل سيطرة. لكنك لست كذلك.

لا لست خارج نطاق كل سيطرة. كلا.

إنك لست خارج دائرة الموت.

لكن الأمر لا يعني لي ما يعنيه إليك.

أتظنُّ أنني خائف من الموت؟

نعم.

اقتلني إذن. افعلها، ليلعنك الله.

قال تشيغور: ليس الأمر سيّان، لقد كنتَ تتخلّى عن أشياء كثيرة طيلة سنوات لتصل إلى هنا. ولا أعتقد أنني أستطيع حتى أن أفهم ذلك. كيف يمكن لإنسان أن يقرر الأسلوب الذي يُنهي به حياته؟ إننا نعمل كلانا في خط العمل ذاته إلى درجة ما. فهل أمكنك يوماً أن تجعلني في مثل هذا الموقف المهين الذي أنت فيه؟ وما الذي يدعوك إلى ذلك؟ وكيف تسمح لنفسك بالوصول إلى مثل هذا الموقف؟

نظر ويلز في اتجاه الشارع. قال: كم الساعة الآن؟

رفع تشيغور معصمه ناظراً إلى ساعة يده. قال له: إنها الحادية عشرة وسبع وخمسون دقيقة.

أومأ ويلز برأسه: بحسب روزنامة تلك المرأة العجوز، لا يزال أمامي ثلاث دقائق إضافية. حسناً، وبحق الجحيم، إنني أعتقد أنني قد رأيت كلَّ ذلك قادماً منذ زمن بعيد. كان ذلك أشبه بالحلم. أشبه بشيء أبصرتُه مِن قبل. نظر إلى تشيغور وقال له: إنني لا أكترث لآرائك، هيّا نفّذ ما تريد تنفيذه أيها القاتل المهووس. افعلها ولتكن جهنم مثواك.

أغمضَ عينيه. أغمضهما وأدار رأسه ورفع إحدى يديه كأنما هو يتدرّأ بها مما لا يمكنه أن يتدرًّأ منه. أطلق تشيغور النار عليه في وجهه. وهكذا، فإن كلّ ما قد عرفه ويلز، أو افتكره، أو أحبه، نزف ببطء على صفحة الجدار وراءه. وجه أمه. علاقته النسائية الحميمة الأولى، النساء اللواتي عرفهن. وجوه الرجال وهم يموتون راكعين على الركبتين أمامه. جسد ذلك الطفل الميت على مجرى ساقية بجانب الطريق في بلد غريب. اضطجع بنصف جمجمة على سريره فيما ذراعاه منبسطتين، وكان معظم

يده اليمنى قد بات مفقوداً. نهض تشيغور والتقط حبَّات الخرطوش الفارغة عن البساط، ونفخ فيها ثم ألقاها في جيبه ونظر إلى ساعة يده. لم يبقَ هنالك سوى دقيقة واحدة لابتداء يوم جديد.

رجع إلى الأسفل من خلال السلّم الخلفيّ، وقام باجتياز باحة الوقوف قاصداً سيارة ويلز، وقام بالتفتيش عن مفتاح بابها بين حزمة المفاتيح التي كان ويلز يحملها، وفتح الباب، وقام بفحص السيارة من الداخل، ومن الأمام، ومن الخلف، وتحت المقاعد. كانت عبارة عن سيارة مستأجرة، ولم يكن ثمة شيء بداخلها سوى عقدِ تأجيرها الموجود في جيب الباب. أقفل باب السيارة، وعرَج إلى وراءها حيث فتح باب صندوقها. لم يجد شيئاً. مشى حول السيارة من جانب جهة السائق وفتح الباب، وحرر غطاء المحرّك، ومشى إلى مقدمتها، ورفع الغطاء، ونظر في حجرة المحرك، ثم أقفل الغطاء ووقف ينظر إلى الفندق. وفيما هو يقف هنالك، رنّ جرس الهاتف الخلوي العائد إلى ويلز. أخرج الهاتف من جيبه وضغط على الزرّ، ووضع الهاتف بالقرب من أذنه. قال: نعم.

* * *

اتخذ موسّ طريقه في جناح المستشفى نزولاً ثم عاد من حيث أتى وهو يتوكأ على ذراع الممرضة التي كانت تقول له أشياء مشجعة باللغة الأسبانية. ثم استدارا معاً عند نهاية الفسحة بين عمودين وبدءا رحلة جديدة. كانت حبات العرق تتفصّد على جبينه. قالت له: آندال (هيا بنا)، كي بونو (شيء رائع). أومأ برأسه. قال: إن الأمر "بونو" حقاً إلى درجة ملعونة.

وفي وقتٍ متأخر من الليل، صحا من حلم مخيفٍ فتخبط في طريقه في الممر، وطلب السماح له باستعمال الهاتف. قام بطلب الرقم الهاتفي في

أوديسّا، وانحنى بثقله فوق النضد وأصغى إلى دقات الجرس. استمرّ الرنين طويلاً. وأخيراً سمع صوت والدتها تجيب.

إنني للوين.

لكنها لا تريد التحدث إليك..

بل هي تريد.

أتعرف ما هو الوقت الآن؟

لست آبه للوقت. لا تقفلي الخط.

كنتُ قد قلتُ لها ما الذي سيحدث. أليس كذلك؟ لقد أنبأتها بكل ما سيحدث لها بالضبط. وها هي قد وصلت إلى كلامي.

لا تقفلي الخط. اذهبي لاستدعائها.

وعندما التقطت سماعة الهاتف، فإنه سمعها تقول لأمها: لم يخطر ببالي يوماً أن تفعلي بي مثل هذا.

كيف حالكَ يا حبيبي؟ هل أنت بخير يا للوين؟ ما الذي حصل لوعدك؟ أين أنت الآن؟

إنني في بيدارس نيغراس.

ما الذي يُفترض بي أن أفعله الآن يا للوين؟

هل أنتِ بخير؟

لا، إنني لستُ بخير. وكيف لي أن أكون بخير والناس يسألونني عنك هنا. لقد حضر إليّ العمدة من مقاطعة تيريل. حضر إلى باب بيتي. لقد خشيتُ أن تكون قد متَّ.

كلا، إنني لم أمت. ما الذي قلتِه له؟

وماذا باستطاعتي أن أقول له؟

إنه قد يحاول إقناعكِ بالإفصاح له عن شيء ما.

إنك مصاب، أليس كذلك؟

وما الذي يدعوكِ إلى قول هذا؟

إنني أستطيع سماع ذلك من نبرة صوتك. هل أنتَ بخير؟

إنني بخير.

أين أنتَ الآن؟

لقد قلتُ لكِ أين أنا.

يبدو لي وكأنك في محطة للباصات.

كارلا جين، أعتقد أنكِ في حاجة إلى الخروج من المكان الذي أنتِ فيه الآن. الخروج من ذلك البيت.

إنك تخيفني، يا للوين. إلى أين عساي أن أذهب لو خرجتُ من هنا؟

ليس هذا هو المهم. إنني فقط أعتقد أنه لا يجب عليك البقاء حيث أنتِ. إن باستطاعتك الذهاب إلى فندق صغير.

وما الذي أفعله مع الماما؟

إنها ستكون على ما يرام.

أتقول إنها ستكون على ما يرام؟

نعم.

إنك لا تعرف ما تقول.

لم يجبها للوين بأي جواب.

أتعرف؟

إن كلَّ ما قصدتُه هو أنني أعتقد أن أحداً لن يهدّد حياتها.

أأنت تعتقد؟

إنكِ تحتاجين إلى مغادرة المكان في كل حال، قومي فقط بأخذها معك.

إنني لا أستطيع اصطحاب الماما إلى فندق. إنها مريضة إذا لم تكن قد نسيت ذلك.

ما الذي قاله العمدة لك؟

قال إنه يبحث عنك، ما الذي تعتقد أنه سيقول؟

وما الذي قاله غير ذلك؟

لم تجبه.

كارلا جين؟

بدا كأنها تنتحب.

ما الذي قاله أيضاً، يا كارلا جين؟

قال إنك تبحث عن حتفِك بظلفِك.

حسناً، هذا ما يُنتظر منه أن يقول.

بقيَت صامتة لمدة طويلة.

كارلا جين؟

للوين، إنني لا أريد نقوداً. كل ما أريده أن نعود أنت وأنا إلى الحالة التي كنا عليها.

سوف نعود.

كلا لن نعود. لقد فكرتُ في الأمر كله. إنه معبود زائف.

صحيح، لكن النقود نقود صحيحة.

تلفّظت باسمه من جديد ثم بدأت بالبكاء. حاول أن يتكلم معها لكنها لم تستطع الإجابة. وقف في مكانه مكتفياً بالإصغاء إلى صوت بكائها الهادئ في أوديسّا. سألها: وما الذي تريدينني أن أفعله؟

لم تجبه.

كارلا جين؟

أريد أن تعود الأشياء إلى ما كانت عليه.

إذا وعدتكِ بأنني سوف أجرِّب ذلك، وأنني سأقوم بمبادرة معينة، فهل تفعلين ما أطلبه منك؟

نعم سأفعل.

إن لديّ رقماً هاتفياً هنا أستطيع الاتصال به. وهنالك شخص ما مستعدّ لمساعدتنا.

آأنت تثق بهم؟

لستُ أدري. لكن لا يمكنني أن أثق بأية جهة أخرى مختلفة عن هذه الجهة أيضاً. سوف أتصل بكِ غداً. إني لا أعتقد أنهم سيتمكنون من الاهتداء إليكِ هناك، وإلا لما كنت قد أرسلتكِ إلى ذلك المكان. سوف أتصل بكِ غداً.

أعاد السماعة إلى مكانها، وقام بطلب الرقم الخلوي الذي كان ويلز قد زوده به. انفتح الخط بعد الرنّة الثانية. لكن ويلز لم يكن هو الشخص الذي يجيب. قال: أعتقد أنني قد أخطأت الترقيم.

كلا إنك لم تخطئ الترقيم. عليك المجيء لمقابلتي.

من المتكلم؟

أنت تعرف من هو المتكلم.

انحنى موسّ فوق النضد وهو يسند جبهته إلى قبضة يده.

أين ويلز؟

لم يعد باستطاعته مساعدتك الآن. ما هو نوع الصفقة التي كنتَ قد عقدتها معه؟

إنني لم أعقد أيَّ صفقة من أيّ نوع.

بل فعلتَ ذلك. كم هو المبلغ الذي كان سيعطيه لك؟

لستُ أدري عن أيّ شيء تتحدث.

أين هي النقود؟

ما الذي فعلته بويلز؟

حصل بيننا تباين في الرأي. ولست بحاجة إلى الاهتمام بشأن ويلز. لقد أزيح إلى خارج الصورة. إنك الآن بحاجة إلى التكلم معي.

لكنني لست بحاجة إلى الكلام معك.

بل أعتقد أنك بحاجة إلى ذلك. أتدري إلى أين أنا ذاهب؟

وما الذي يدعوني إلى الاهتمام بأمر الأمكنة التي تذهب إليها؟

أتدري إلى أين أنا ذاهب؟

لم يجب موسّ بأي جواب.

هل أنت لا تزال معي؟

نعم إنني هنا.

إني أعرف مكان وجودك.

حسناً؟ إذاً أين أنا؟

إنك في المستشفى في بيدارس نيغراس، لكنني لست ذاهباً إلى هذا المكان بل إلى سواه. أتدري إلى أين سأذهب؟

أجل. إني أعرف المكان الذي سوف تذهب إليه.

إن باستطاعتك تحويل كل هذا المسار.

ولكن ما الذي يجعلني أصدقك؟

لقد صدّقت ويلز قبل ذلك.

لا، إنني لم أصدّقه.

لكنك اتصلت برقمه.

إذاً أنا اتصلت به.

قلْ لي الآن، ما الذي تريدني أن أفعله؟

نقل موسّ وزنه من رجل لأخرى. وكانت حبّات العرق تتقطر فوق جبينه. ولم يستطع جواباً.

قلْ لي ما الذي تريدني أن أفعله؟ فإنني لا أزال أنتظر جوابك.

قال موسّ: قد أكون في انتظارك لدى وصولك إلى هناك أتدري؟ يمكنني استئجار رحلة خاصة بالطائرة. هل فكرت في ذلك؟

هذا سيكون أمراً جيداً، لكنك لن تفعل.

ما الذي يجعلك تعتقد أنني لن أفعل؟

لو كنت ستفعل ذلك لما أخبرتني. وعلى كل حال فإنني عازم على الذهاب.

إنك تعرف أنك لن تجد أحداً هناك.

لن يكون محل وجودهما أمراً مهماً أينما كانتا.

إذاً ما الذي يدعوك إلى الذهاب إلى هناك؟

إنك تعرف كيف سيؤول هذا الأمر، أليس كذلك؟

كلا، إنني لا أعرف. أتعرفُ أنت؟

نعم، إني أعرف. وأعتقد أنك تعرف أيضاً. لكنك لم تتقبل الحقيقة بعد. وهكذا، فإن هذا ما سأفعله. تقوم أنت بإحضار الأموال إليَّ، فأقوم أنا بإطلاق سراحها. وإلا فإنني سأضطر إلى اعتبارها مسؤولة. سأعتبرها مسؤولة مثلك أنت تماماً. لست أدري إذا كان ذلك يعني لك أيّ شيء. لكن هذه هي أفضل الصفقات التي ستعرض عليك. وإني لن أعدك بأنك سوف تنقذ حياتك بالذات لأنك لن تكون قادراً على ذلك.

قال موسّ: سوف أقوم بإحضار جزء من المبلغ إليك، حسناً، لقد قررت أن أجعلك مشروعي الخاص. وليس عليك القيام بالبحث عني أبداً.

يسعدني أن أسمع منك ذلك. لقد كنتَ قد بدأت تستثير يأسي.

لن تكون ميؤوساً أبداً.

هذا شيء جيد.

ليس لك بحق الله أن تقلق بسبب قيامي بتخييب آمالك.

غادر المستشفى قبل أن يشرق الصباح وكان لا يزال يرتدي رداء المستشفى الذي هو عبارة عن قميص فضفاض طويل، وقد ارتدى المعطف فوقه. كان ذيل المعطف متخشباً بسبب تجمُّد الدم عليه. كما لم يكن في قدميه حذاء. وكانت النقود في الجيب الداخلي للمعطف إذ كان قد طواها وخبأها فيه من قبل. كانت حزمة النقود بدورها متيبسة ودبقة بسبب تجمد الدم عليها أيضاً.

وقف في الشارع ينظر نحو الأنوار. لم يكن يعرف نفسه أين هو بالضبط. وكان صقيع الخرسانة يقرص باطن قدميه العاريتين. اتخذ طريقه نحو زاوية الطريق حيث توقف هناك وانحنى ملقياً إحدى يديه إلى جدار أحد المباني. كان لديه حبتا دواء بيضاوان في جيبه، وها هو الآن يبتلع إحداهما دون استعمال الماء. أحس أنه على وشك التقيّؤ.

وقف هنالك لمدة طويلة. كان ثمة حافة شبّاك يمكنه الجلوس عليها لو لم تكن محصّنة بالحديد المسنن لإبعاد المتسكعين. مرّت به عربة فأشار لها بيده لكنها لم تتوقف. وجد أن عليه التقدم للوقوف عند حافة الشارع، وقد فعل ذلك بعد هنيهة. وكان لا يزال يعرج هناك منذ مدة عندما مرت به عربة أخرى فأشار لسائقها بالوقوف، فتوقفت عند المنعطف.

ألقى سائقها إليه نظرة متفحّصة. انحنى موسّ على شباك السيارة. قال له: هل تستطيع العبور بي إلى ما بعد الجسر؟

أتريد العبور إلى الجانب الآخر من الحدود؟

نعم إلى الجانب الآخر.

وهل لديك نقود؟

نعم لديّ نقود.

بدا السائق متشككاً ومتردداً. قال: عشرون دولاراً.

موافق.

وعند بوابة الحدود انحنى حارس الحدود ورمقه بنظرة طويلة في مكانه في المقعد الخلفي للسيارة. قال له: ما هو البلد الذي ولدت فيه؟

الولايات المتحدة.

وماذا تجلب معك؟

لا شيء.

عاد الحارس إلى التفرّس فيه: هل تتفضل بالنزول من السيارة قليلاً؟

قام موسّ بالضغط على مقبض الباب واتكأ على سناد المقعد

الأمامي وأنزل قدميه من العربة. ووقف عند هذا الحد.

ما الذي حصل لنعليك؟

لست أدري.

إنك لا تلبس ثياباً داخلية أليس كذلك؟

بل إن عليَّ ملابس.

كان الحارس الآخر يقوم بتمرير السيارات الأخرى. أشار إلى سائق عربة موس: هل يمكنك التقدم بسيارتك إلى هذه الفسحة الجانبية هنا؟

قام السائق بتعشيق ترس السيارة.

هل يمكنك الخروج من السيارة تماماً؟

خرج موس إلى خارج البدن، وتحركت السيارة إلى الموضع المشار إليه حيث قام السائق بإطفاء المحرك، نظر موسّ إلى الحارس. بدا كأنه ينتظر منه تفسيراً للموقف لكنه بقي صامتاً.

اقتاده إلى الداخل وأجلسه على كرسي حديدي في غرفة مكتب صغيرة بيضاء. دخل رجل آخر ووقف متكئاً إلى طاولة حديدية. ألقى نظرة إجمالية عليه.

منذ متى وأنت تشرب؟

إنني لم أشرب شيئاً.

وما الذي جرى لك؟

ماذا تعني بسؤالك؟

ما الذي حصل لملابسك؟

لست أدري.

هل لديك أوراق تعريف ثبوتية؟

كلا.

لا شيء أبداً؟

كلا.

تراجع الرجل إلى الوراء وهو يطوي ذراعيه عبر صدره. ثم قال له: من الذي تعتقد أنه يحق له الدخول من خلال هذه البوابة إلى الولايات المتحدة؟

لست أدري، لكنني أعتقد أن المواطنين الأميركيين يحق لهم ذلك.

بعض مواطني الولايات المتحدة. ومن هو الشخص الذي يقرر ذلك بحسب اعتقادك.

أعتقد أنك أنت تستطيع أن تقرر.

هذا صحيح. ولكن كيف لي أن أقرر ذلك؟

لست أدري.

إنني أقوم بطرح الأسئلة. فإذا حصلتُ على إجابات منطقية فإن طالبي الدخول يدخلون. أما إذا كانت إجاباتهم غير منطقية فإنهم لا يدخلون. هل هنالك شيء مما قلتُه غير مفهوم بالنسبة إليك؟

كلا سيدي.

إذاً، ربما تكون قد صرتَ راغباً في قيامي بإعادة طرح الأسئلة عليك من جديد.

حسناً.

نريد أن نعرف المزيد عن سبب وجودك هنا دون ملابس.

لكنني ألبس معطفاً.

هل تحاول أن تمازحني؟

كلا سيدي.

لا تحاول المزاح معي. هل أنت في الخدمة؟

كلا سيدي. بل متقاعد.

في أي فرع من الخدمة كنت؟

في جيش الولايات المتحدة.

هل كنت في فيتنام؟

نعم سيدي. كنت هناك في إرساليتين.

في أي سلاح؟

في كتيبة المشاة الثانية عشرة.

متى كانت تواريخ خدمتك هناك؟

من السابع من آب/أغسطس في العام 1966 حتى الثاني من أيلول/سبتمبر 1968.

راقبه الرجل لبعض الوقت. نظر موسّ إليه ثم حوّل نظرته عنه. نظر في اتجاه الباب، إلى القاعة الفارغة. كان يجلس منحنياً إلى الأمام في معطفه وهو يسند مرفقيه إلى ركبتيه.

هل أنت في صحة جيدة؟

نعم سيدي، إنني بخير. إن لي زوجة ستأتي لملاقاتي إذا سمحت لي بالدخول.

هل تحمل أيّ نقود؟ هل لديك عملة معدنية لإجراء مكالمتك الهاتفية؟

نعم سيدي.

سمع خربشة أظافر كلب فوق البلاط. كان هنالك حارس يقف هناك وهو يمسك بلجام كلب من نوع الراعي الألماني. رفع الرجل بذقنه في اتجاه الحارس: دع أحداً يهتم بهذا الرجل. فهو بحاجة إلى دخول البلدة. هل ذهبت التاكسي؟

نعم سيدي. لقد كانت خالية من أي شيء.

أعرف ذلك. دع شخصاً ما يساعده.

نظر نحو موسّ. من أين أنت؟

إنني من سان سابا في تكساس.

أتعرف زوجتك مكان وجودك؟

نعم سيدي، لقد تكلمت معها منذ لحظات.

هل حصل أيٌّ شجار؟

شجار بين من ومن؟

بينك وبين زوجتك.

حسناً، أظن أنه قد حصل بيننا خلاف مرة. سيدي.

عليك أن تعتذر منها.

ماذا سيدي؟

قلت إن عليك أن تعتذر منها.

حسناً سيدي سوف أفعل ذلك.

حتى وإن كنتَ تعتقد أنها هي المخطئة.

نعم سيدي.

اذهب إذاً. هيّا أخرِجْ عجيزتك من هنا.

نعم سيدي.

في بعض الأحيان تكون لديك مشكلة صغيرة فتقوم بتجاهلها، وفجأة تجد أنها قد نمت إلى مشكلة كبيرة ولم تعد تافهة أبداً. هل تفهم ماذا أريد أن أقول لك؟

نعم سيدي، إنني أفهمك.

انصرِفْ.

نعم سيدي.

كان الصباح قد طلع تقريباً، وكان قد مضى وقت طويل على انصراف العربة. شرع في الاتجاه نحو الشارع. كان السائل الدموي لا يزال ينسكب من باطن ساقه نزولاً. ولم يكترث له الناس كثيراً. استدار نحو شارع آدامز وتوقف أمام مخزن لبيع الألبسة، وحدّق إلى داخله. كان ثمة إضاءة في مؤخرة المخزن. قرع الباب وانتظر قليلاً، ثم عاود القرع من جديد. وفي نهاية الأمر قام شخص ضئيل يرتدي قميصاً أبيض ويضع ربطة عنق سوداء بفتح الباب والنظر إليه. قال موسّ: أعرف أن محلكم غير مفتوح للزبائن في هذه الساعة، لكنني في حاجة ماسة إلى بعض الثياب. أومأ الرجل برأسه وفتح الباب على مصراعيه: تفضل بالدخول.

مشيا جنباً إلى جنب على امتداد الممر في اتجاه قسم الأحذية التي كانت من نوع توني لاما، جوستن، نوكونا.. إلخ. وكان هنالك بعض المقاعد الوطيئة فأراح موسّ نفسه على أحدها حيث جلس وهو يشدُّ قبضتيه على ذراعي الكرسي. قال: أحتاج إلى حذاء، وإلى بعض الملابس. إن لديّ بعض المشكلات الصحية ولا أريد التجوال في المحلِّ إلا بقدر ما أستطيع.

أومأ الرجل إيجاباً: أجل أجل، بالطبع يا سيدي.

هل لديكم أحذية من ماركة لاري ماهانز؟

كلا سيدي، ليس لدينا أحذية من هذه الماركة.

حسناً، أحتاج إلى بنطال جينز من ماركة رانغلر من قياس اثنين وثلاثين، بطول أربعة وثلاثين. كما أحتاجُ إلى قميصٍ من قياس عريض، وبعض الجوارب. كما أريدك أن تريني بعض الأحذية من ماركة نوكونا، قياس عشرة ونصف. وأحتاج أيضاً إلى حزام.

نعم سيدي، ألا تحتاج أيضاً إلى قبّعة؟

أجال موسّ أنظاره في المخزن: إن شراء قبعة لن يكون أمراً سيئاً أيضاً. أظن أن قبعة من قبعات مربّيي الماشية التي لها حواف صغيرة تفي بالغرض. ألديكم شيئاً من ماركة سبعة وثلاث ثمانيات؟

نعم سيدي لدينا. أعتقد أن لدينا ثلاث قبعات من فرو القندس قياس عريض من طراز رازيستول، كما أن لدينا طرازاً أفضل هو ستيستون من قياس عريض إذا صحّ ظني.

دعني أرى الستيستون، تلك التي لها زنار فضي.

حسناً، سيدي. وهل تعجبك الجوارب البيضاء؟

إني لا أستعمل سوى الجوارب البيضاء.

وماذا عن الملابس الداخلية؟

ربما يمكنك أن تحضر لي زوجاً من سراويل الجوكي القصيرة. قياس اثنين وثلاثين، أو قياس وسط.

بالطبع سيدي. ابقَ مستريحاً في مكانك. أأنت بخير؟

إنني بخير.

أومأ الرجل برأسه واستدار لتلبية الطلب.

قال موسّ: هل لي بأن أسألك عن شيء آخر؟

بالطبع، نعم.

أيأتيكم الكثير من الزبائن ممن هم دون ملابس سواي؟

لا يا سيدي، أظن أن هذه المرة من النوادر.

حمل كومة الثياب معه إلى غرفة القياس حيث خلع عنه المعطف وقام بتعليقه على المشجب المثبت خلف الباب، وكان هنالك طبقة من الدماء الحائلة الجافّة المتجمدة حول مجرى الدرزة، لكنها لم تكن لزجة. أراح نفسه على المقعد الخشبي ولبس فردتي الجورب وفتح علبة السراويل الداخلية، وأدخل قدميه في فتحتي السروال ورفعه فوق ساقيه إلى مستوى الركبتين، ثم وقف وأتمّ سحبه بعناية فوق جرحه المضمّد. ثم جلس من جديد وفكّ القميص من علبته الكرتونية وحرره من العدد الذي لا يحصى من الدبابيس.

وعندما خرج من غرفة القياس، كان يحمل المعطف على ذراعه. مشى جيئة وذهاباً فوق خشب الأرضية الذي كان يرسل أنيناً في الممر. وقف البائع ينظر إلى الأحذية. قال: إن الحذاء المصنوع من جلد التمساح يأخذ وقتاً أطول كي يأتلف مع القدم.

صحيح، كما أنه حارّ في أيام الصيف أيضاً. هذا الحذاء مقبول. دعنا نجرب القبعة. إنني لم أحسن هندامي مرة كهذه المرة منذ انتهاء خدمتي في الجيش.

* * *

ارتشف العمدة رشفة من فنجان قهوته وأرجعه إلى مكان الدائرة نفسها التي كان قد رسمها قعره فوق لوح الزجاج الذي يغطي وجه مكتبه. قال: إنهم يعملون على إغلاق الفندق.

أومأ بيلّ برأسه موافقاً: إن الأمر لا يثير دهشتي.

إنهم جميعاً يستقيلون من العمل. فذاك الرجل لم يستمر في عمله أكثر من نوبتين فقط. إنني ألوم نفسي. لم يخطر أبداً في بالي أن ابن العاهرة ذاك سيعود إلى الفندق من جديد. حتى إنني لم أتخيّل مجرد حصول مثل هذا الأمر.

إنه ربما لم يغادر الفندق أصلاً.

لقد خطرت تلك الفكرة أيضاً في بالي.

إن سبب عدم قيام أحدٍ بذكرِ أوصافه يعود إلى أن ضحاياه والمتعاطين معه لا يعيشون طويلاً حتى يتمكنوا من فعل ذلك.

إنه قاتل عُصابي مجنون، يا إدّ توم.

لكنني لا أعتقد أنه مجنون رغم كل ذلك.

حسناً، ماذا تسميه إذاً؟

لست أدري. متى يخططون لإقفال الفندق؟

إنه صار بحكم المقفل ما دام أن هذه الأحداث تتعاقب.

هل لديك مفتاح؟

أجل، إن لديّ مفتاحاً. فالفندق هو الآن مسرح جريمة.

لمَ لا نذهب إلى هناك ونقوم بإلقاء نظرة أكثر دقة.

حسناً، يمكننا أن نقوم بذلك.

كان أول شيء لقياه هو جهاز الإرسال والاستجابة المركون على عتبة الشبّاك الواقع في الرواق. التقطه بيلّ وأخذ يقلِّبه في يده ناظراً إلى قُرص الإدارة، وإلى الأزرار.

هذه ليست قنبلة لعينة، هل هي كذلك أيها العمدة؟

كلا، إنها ليست كذلك.

هذا كل ما نحتاج الآن إلى معرفته.

إنها آلة رصد وتتبُّع.

إذاً إن كل من كانوا يتتبعونه قد عثروا عليه.

ربما. منذ متى تمّ نصبُ هذا الجهاز حسب اعتقادك؟

لست أدري. كذلك فإنني أعتقد أنه لا يمكنني أن أحزر ماذا كانوا يتتبّعون.

قال بيلّ: ربما، ثمة شيء ما حول هذه المسألة بكاملها لا يقع موقعه الصحيح.

ليس من المفترض أن يحصل ذلك.

لقد عثرنا على جثة كولونيل سابق في الجيش، وقد طارت معظم جمجمته ولم يكن من الممكن التعرُّف على هويته سوى من بصمات أصابعه، فقط ببصمات أصابعه التي لم تطلق النار عليها. تاريخ من الخدمة العسكرية النظامية التي امتدت أربع عشرة سنة، وهو لا يحمل قطعة ورق واحدة.

لقد جرى نهب جيوبه.

صحيح.

ما هو الشيء الذي تعرفه ولا تقوم بالإفصاح عنه أيها العمدة؟

إنك تملك الحقائق ذاتها التي أملكها أنا.

إنني لا أتكلم عن الحقائق. أتعتقد أن كل هذا البلاء قد تحوَّل جنوباً؟

هزّ بيلّ رأسه: لست أدري.

وهل لديك كلب في حفلة الصيد هذه؟

ليس في الواقع. هنالك شابان من مقاطعتي ربما يكونان في ما يشبه أنهما لا يجب أن يكونا فيه.

هل تعني أنهما على شيء من التورُّط؟

صحيح.

أأنت تعني أنهما من أنسبائك؟

كلا، إنهما مجرد شخصين من أهالي مقاطعتي. شخصان من المفترض بي أن أشملهما باهتمامي.

قام بتسليم جهاز الاستقبال والاستجابة إلى العمدة: ما الذي ينبغي لي عمله بهذا الجهاز؟

إنه الآن مُلكٌ لمقاطعة مافريك. إنه قطعة دليل جرمي مأخوذة من مسرح جريمة.

هزّ العمدة رأسه. قال: إنها المخدرات.

أجل المخدرات.

إنهم يقومون ببيع هذا السم إلى تلامذة المدارس.

بل إن الأمر هو أسوأ من ذلك بكثير.

ماذا تعني؟

أعني إن تلامذة المدارس هم الذين يُقبلون على شرائه.

VII

إني لن أتكلم عن الحرب أيضاً. من المفترض بي أن أكون بطل حرب إذ كنتُ قد فقدتُ فصيلة عسكرية من الرجال بكاملها. ولهذا، فقد تمّ تقليدي وساماً. وحتى إني لست في حاجة لمعرفة رأيك في هذا الأمر. إنه لا يمرُّ يوم واحدٌ دونما أن أتذكّر ذلك الحدث. إن بعض الرجال الذين أعرفهم ممّن كانوا قد عادوا من ميدان القتال، وذهبوا إلى الجامعة في أوستن على حساب برنامج تجي آي بيل، يجدون أن في جعبتهم أشياء يصعب التحدث عنها عن أناسهم. إلا أن بعضهم كان قد فعل ذلك ناعتاً أبناء شعبه بأنهم عصبة من حمر الرقاب وما شابه ذلك من النعوت. وعبَّروا عن عدم رضاهم عن سياسات بلدهم. فتعاقُب جيلين من الناس في هذا البلد يُعتبر زمناً طويلاً. إنك تتحدث هنا عن مواطني هذا البلد الذين قد استقروا فيه فعلاً. وقد درجتُ على إخبارهم بأن تعرُّض زوجة المرء وأطفاله للقتل، وسلخَ فروة الرأس، وبَقْرَ البطن كما تُبقر بطون الأسماك، إنما له مفعول يميل ببعض الناس إلى الاضطراب، لكنهم كانوا يبدون كما لو أنهم لا يفقهون عمّا أتحدث. إني أعتقد أن أحداث فترة الستينيات التي عاشتها هذه البلاد قد جعلت البعض منهم يستفيق من غفلته. هذا ما آمل فِعلاً أن تكون قد فعلَته بهم. لقد قرأتُ في الصحف هنا منذ مدة أن بعض المعلمين قد عثروا على حملة استبيان للرأي كانت قد جرت في الثلاثينيات في عدد من المدارس في أرجاء شتى من البلاد. كانت استمارة ذلك الاستبيان تحتوي على أسئلة تدور حول المشاكل التي تعترض عملية التعليم في المدارس. وقد قام هؤلاء المعلمون بغربلة لتلك الاستمارات التي كان قد جرى مَلؤها في أنحاء مختلفة من البلاد بإجابات على الأسئلة المطروحة فيها. كانت أكبر المشاكل التي يمكن للمجيبين تسميتها هي أشياء من أمثال: التحدث في الصف، والجري في الممرات، ومضغ العلكة، ونسخ الواجب المدرسي عن الآخرين، وما أشبه ذلك. وهكذا، فإن هؤلاء المعلمين اختاروا واحدة من تلك الاستمارات كانت لا تزال فارغة وقاموا

بطباعة مجموعة منها وأرسلوها ليجري ملؤها في المدارس ذاتها بعد مرور أربعين عاماً على إرسالها إلى تلك المدارس للمرة الأولى. حسناً، إليكم الإجابات التي عادت بها أسئلة الاستمارة ذاتها: الاغتصاب، الحرائق المفتعلة، القتل، المخدرات، الانتحار. وعليه، فإنني أفكّر مليّاً في ذلك الأمر. لأنني، وفي كثير من المرات، كنتُ كلما قلت شيئاً عن تصوُّري لهذا العالم الذاهب نحو الجحيم في سلَّة يدوية، فإن الناس لا يتورّعون عن مقابلة كلامي بنوع من الابتسام، ولا يتردّدون في القول لي إنه قد بدأت تظهر عليَّ أمارات التقدُّم في السن. وأن تصوُّراتي هذه إنْ هي إلّا إحدى أعراض الشيخوخة. لكن شعوري هو أن من لا يستطيع التفريق بين الاغتصاب وبين مضغ العلكة إنما هو يعاني من مشكلة أكبر بكثير من مشكلتي. إن مدة أربعين سنة لا يمكن اعتبارها مدة طويلة أبداً. ولعل الأربعين سنة التالية ستكون كافية لجعلهم يستفيقون من سَكرة عقولهم. لكن ذلك سيكون بعد فوات الأوان.

وهنا، منذ سنة أو سنتين مرّتا، كنت قد ذهبت مع لوريتّا لحضور مؤتمر في كوربوس كريستي، وقد جلستُ بالقرب من امرأة يبدو أنها زوجة أحد ذوي الشأن. لم يكفّ لسانها مرة عن الكلام عن الجناح اليميني هذا، وعن الجناح اليميني ذاك. ولم أكن في الحقيقة متأكداً مما تريد الذهاب إليه من وراء حديثها كله. فالناس الذين أعرفهم هم في غالبيتهم الكبرى من الناس العاديين؛ بسطاء كتراب الأرض، حسْبَ جاري القول. وقد صرَّحتُ لها بذلك، فنظرت إليَّ نظرة استهجان واستخفاف. واعتقدَت أنني أتناول هؤلاء الناس بالسوء، مع أن العكس هو الصحيح، إذ إن هذه العبارة تُعتبر مجامَلة كبرى في تلك الزاوية من العالم الذي أنتمي إليه. وبقيَت تردَحُ وتردح إلى أن قالت لي أخيراً: إنني لا أحبّذ السياسة التي تُقاد بها هذه البلاد. فإني أريد لحفيدتي أن تكون حرة في الحصول على الإجهاض. فقلت لها ساعتئذٍ: حسناً يا سيدتي، خفّفي عنكِ، فأنا لا أظن أن عليك أن تقلقي أبداً من ناحية السياسة التي تقاد بها هذه البلاد. فالطريقة التي أرى أن هذه البلاد تسير إليها لا تجعلني في شك كبير من الاعتقاد أن حفيدتك سوف لن تكون قادرة على إجهاض حملها فحسب، بل إنني أستطيع أن أؤكد لك أنها سوف تكون أيضاً قادرة على إرسالك إلى النوم. وكانت جملتي الأخيرة لها هي فصلُ الخطاب وآخر الحديث.

تسلَّق تشيغور درج الرخام البارد، وهو يجرُّ قدمه المصابة إلى الطابق السابع عشر حتى انتهى إلى الباب الفولاذي عند الأعلى حيث أطلق طلقة من بندقية التخدير أطاحت بأسطوانة القِفل. ثم فتح الباب ودخل إلى باحة الدخول وأقفله خلفه. وقف متكئاً على الباب خلفه فيما هو يحمل بندقية الرشّ بكلتا يديه مصيخاً السمع. كان تنفُّسه ليس فيه من الجهد الذي يصيب شخصاً قام بالنهوض عن كرسيّه. مشى في الرواق والتقط أسطوانة القِفل المسحوقة عن الأرض ودسّها في جيبه وتابع طريقه نحو المصعد ووقف إزاءه مصغياً من جديد. خلع نعليه وأسندهما إلى جانب باب المصعد وتابع سيره في الرواق وهو حافي القدمين إلّا من جواربه. كان يمشي بتؤدة جاعلاً معظم العناء على رجله السليمة.

كانت أبواب المكتب مفتوحة إلى الرواق. توقف. فكَّر في أن الرجل قد لا يكون لاحظ ظله وهو ينعكس على جدار الرواق الخارجي، ذلك أن الظلّ كان موجوداً رغم وضوحه. لقد خُيِّل إلى تشيغور أن هذه مغالاة مفرطة في السهو من جانب عدوّه، لكنه أيقن أن خوف العدوّ قد يعمي الرجال عن مخاطر أخرى، مخاطر ليس أقلها سوى الهيئة التي يتخذونها لأنفسهم في هذا العالم. أنزل الحزام عن كتفه وأخفض قارورة الهواء إلى الأرض. درس الإيقاع من خلال حركة الظلِّ الذي كان يرسمه الرجل هناك تحت الضوء المتسرب من الزجاج المضبّب الواقع خلفه. سحب دفَّاع بندقية الرشّ قليلاً إلى الوراء مستعيناً بعقب كفه وذلك من أجل الكشف عن الطلقة المخزونة في بيت النار، ثم حرَّر قِفل الأمان.

كان الرجل يرفع مسدساً صغيراً عند مستوى خصره. دلف تشيغور إلى الرواق وأطلق النار عليه في الحنجرة مستعملاً طلقة من عيار عشرة.

وهو العيار الذي يستعمله هواة جمع أصناف الطيور. وقع الرجل إلى الوراء متعَثراً بكرسيّه الدوّار ومتسبباً بسقوطها. ثم انهار إلى الأرض ينتفض متغرغراً بدمه. التقط تشيغور خرطوشة بندقية الرشّ، التي كانت لا تزال تدخِّن، عن البساط ووضعها في جيبه، ومشى في الغرفة التي كان الدخان الحائل لا يزال يتصاعد في جوّها من العلبة المثبتة في نهاية الماسورة المبتورة. مشى إلى خلف الطاولة ووقف ينظر إلى الأسفل نحو الرجل الملقى على ظهره ويضع إحدى يديه على عنقه، لكن الدم كان لا يزال يتدفق باستمرار من خلال أصابعه ويتسرب إلى البساط، وكان وجهه مليئاً بالثقوب الصغيرة. لكن عينه اليمنى بدت غير مصابة بأذى. وكان ينظر منها إلى تشيغور ويحاول التكلم إليه من خلال فمه المزبد. هبط تشيغور إلى إحدى ركبتيه واتّكأ على بندقية الرشّ ونظر إليه. قال له: ما الأمر؟ ما الذي تحاول أن تقوله لي؟

حرّك الرجل رأسه، فتغرغرت الدماء في حنجرته.

قال تشيغور: هل تسمعني؟

لم يجب.

إنني الرجل الذي كنت قد أرسلت كارسون ويلز ليقتله. هل هذا هو الذي أردت أن تعرفه؟

راقبه جيداً. كان يرتدي بذلة جَرْي من النايلون الأزرق وحذاء جلدٍ أزرق. وكان الدم قد بدأ يكوّن بركة حول رأسه. كما كان يرتجف كما لو أنه مصاب بالبرد.

إن السبب الذي دعاني إلى استعمال خرطوشة طائر لقتلك هو حرصي على عدم كسر الزجاج خلفك، خوفاً من أن أمطر المارة في الشارع بشظايا الزجاج. أشار برأسه في اتجاه الشباك الذي كانت قد ارتسمت عليه آثار الخردق السوداء عند المستوى الذي كان يحيط بظلٍّ

رأس الرجل على زجاجه. نظر إلى الرجل نظرة جديدة. كانت يده قد بدأت تتراخى عن حنجرته، وكان الدم قد أبطأ في نزيفه. نظر إلى المسدس الملقى هناك. نهض، وأعاد تأمين بندقية الرش ومشى بمحاذاة الرجل قرب الشباك وتفحّص الندوب التي أحدثها اصطدام الخردق به. وعندما جدّد النظرة إلى الرجل، كان الأخير قد فارق الحياة. عبَر الغرفة ووقف عند الباب منصتاً. ثم خرج إلى الرواق حيث استعاد قارورة الهواء وبندقية التخدير، وانتعل فردتي حذائه العالي ورفعهما إلى ساقيه. ثم مشى في الممر وخرج من خلال الباب المعدني، وهبط نزولاً على الدرجات الخرسانية إلى المرأب حيث كان قد ترك سيارته.

* * *

عندما وصلتا إلى محطة الحافلات، كان ضوء النهار لا يزال في بدء انتشاره، فالصباح لا يزال أغبر بارداً، وكان هنالك رذاذٌ بسيط. انحنت إلى الأمام فوق المقعد ودفعت للسائق، وناولته دولارين على سبيل الإكرام. خرج من وراء المقود واستدار إلى ما وراء عربته، وفتح الصندوق، وأخرج الحقائب، وقام بوضعها تحت السقيفة، وأحضر العُكّاز إلى الجانب الذي تجلس فيه أمها وفتح لها الباب. استدارت الأم وبدأت تكافح للخروج تحت المطر الخفيف.

ماما، أتنتظرين قليلاً؟ إنني أحتاج إلى الاستدارة إلى الجهة الأخرى.

كنت أعرف هذا المصير الذي سينتهي بي الحال إليه. لقد قلت لك ذلك منذ ثلاث سنوات.

إنها ليست ثلاث سنوات.

إنها كلمات أقولها منذ البداية.

انتظري فقط حتى أستدير وأساعدك.

قالت أمها: تحت المطر. رفعت نظرها نحو سائق العربة، وقالت له: إنني مصابة بالسرطان، والآن انظر إلى حالنا. لا يوجد لي حتى بيت ألجأ إليه.

نعم سيدتي.

إنك ذاهب إلى إيل باسو في تكساس. أتعرف كم هو عدد الأناس الذين أعرفهم هناك؟

كلا سيدتي.

توقفت ملقية ذراعها إلى الباب ورفعت يدها ورسمت بإبهامها وسبابتها علامة الصفر: هذا هو عدد الأناس الذين أعرفهم هناك.

نعم سيدتي.

جلستا في المقهى محاطتين بحقائبهما وطرودهما وحدّقتا إلى هطول المطر وإلى حركة الحافلات المتكاسلة. وعند وضوح معالم ذلك النهار الرمادي، نظرت إلى أمها وقالت: أتريدين المزيد من القهوة؟

لكن المرأة العجوز لم تجب.

أراك لا تريدين الكلام.

لا أدري عن أيٍّ شيء يمكنني أن أتكلم.

حسناً، وكذلك أنا أيضاً لا أدري.

بصرف النظر عن كل ما قد تكونا فعلتماه معاً. فإنني لا أدري ما هو السبب الذي يدعوني أنا إلى الفرار من وجه القانون.

نحن لسنا فارّتين من وجه القانون ماما.

ومع كل ذلك فإنك لا تستطيعين الاستنجاد برجال القانون لمساعدتك. أليس ذلك صحيحاً؟

أستنجد بمن؟

بالقانون.

كلا إننا لا نستطيع ذلك.

إن هذا هو ما اعتقدتُه.

عدَّلت العجوز من شأن بدلة أسنانها الاصطناعية بإبهامها وحدَّقت نحو واجهة المقهى. بعد لحظات قدِمت الحافلة. قام سائق الحافلة بإيواء العُكّاز العائد لها في حجرة الأمتعة الواقعة تحت أرضية الحافلة، كما ساعدها الآخرون على تسلُّق درجات الحافلة والاستقرار في مقعدها في الصف الأمامي. أخبرت سائق الحافلة فور صعودها: إنني مصابة بالسرطان.

قامت كارلا جين بتوضيب حقائبهما في الحجرة المتاخمة لسقف الحافلة، وجلست في مكانها. لم تنظر المرأة العجوز إليها. قالت لها: منذ ثلاث سنوات، لم يكن لكِ أن تحلمي بهذا الأمر. ولم يكن الأمر مسألة نبوءة ولا أيَّ شيء من ذلك. إنني لا أعطي نفسي أي ميزة خاصة. فلقد كانت النتيجة واضحة من الأساس لكل من يريد أن يراها.

حسناً، أنا لم أسألكِ عن ذلك.

هزت المرأة العجوز رأسها وهي تنظر من النافذة إلى الأسفل نحو الطاولة التي أفرغتاها منذ قليل. قالت: إنني لا أعطي نفسي أية ميزة خاصة، ما كنتُ سوى آخر من يوافق على مثل هذا الزواج في الدنيا.

* * *

توقف تشيغور بسيارته عند الجهة المقابلة من الشارع وأطفأ المحرك. ثم أطفأ جميع الأنوار وجلس يراقب المنزل المعتم. كانت الأرقام المضيئة

لساعة السيارة تشير إلى الواحدة وسبع عشرة دقيقة بعد منتصف الليل. جلس في مكانه مدة خمس دقائق كاملة، ثم تناول المصباح اليدوي الكشّاف من علبة القفازات وخرج من السيارة وأغلق الباب وراءه وعبر الشارع متجهاً نحو المنزل.

فتح بوابة المنزل الشبكية ودخل ثم أغلق الباب وراءه ووقف منصتاً. كان ثمة ضوء يأتي من المطبخ. سار في الممشى حاملاً المصباح اليدوي بيد وبندقية الرش باليد الأخرى. وعندما وصل إلى المدخل توقف وأنصت من جديد. كان ثمة ضوء يأتي من مصباحٍ عارٍ في مؤخرة الشرفة. دخل إلى المطبخ.

كان ثمة طاولة من خشب الفورمايكا ومن معدن الكروم في وسط الغرفة، عارية سوى من علبة فيها بعض المكسَّرات فوقها. وكان ظل شباك المطبخ يرتمي فوق الأرضية المكسوَّة بمشمع من اللينوليوم. عبر الغرفة وفتح باب البرَّاد متفحِّصاً جوفه. وضع بندقية الرش في طيّة ذراعه، وتناول علبة من صودا البرتقال، وقام بفتحها، ووقف يشربها وهو يصغي إلى أيِّ شيء يمكن أن يستثيره صوت انفتاح علبة الصودا. شرب ثم وضع العلبة نصف الفارغة على النضد وأغلق باب البراد. مشى خلال غرفة الطعام، ثم دخل إلى غرفة الجلوس حيث جلس على كرسيٍّ ليِّنٍ في الزاوية، ونظر إلى الخارج نحو الشارع.

وبعد هنيهة، نهض، وعبر الغرفة ثم صعِد الدرج. وقف هناك مصغياً. وعندما دخل غرفة المرأة العجوز استطاع أن يشم الرائحة العفنة الناتجة عن المرض، وقد فكر للحظة أنها قد تكون هناك مضطجعة على سريرها. أضاء المصباح الكشاف اليدوي وذهب إلى الحمام. وقف يقرأ أسماء العقاقير على رفّ المستحضرات. نظر من النافذة إلى الشارع في الأسفل فرأى النور الباهت لمصابيح الشارع يبدده الجوُّ الشتوي. كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل. وكان المطر قد توقف، لكن

البرد ما زال شديداً. وكان الصمت مطبقاً. خرج متجهاً عبر الممر إلى غرفة النوم الصغيرة الواقعة في الجهة الخلفية من البيت.

قام بإفراغ أدراج الخزانة الخفيفة فوق السرير وبدأ بتصنيف محتوياتها، رافعاً شيئاً من الأشياء بين آونة وأخرى ومدققاً به تحت الضوء الأزرق الآتي من مصباح الباحة الخارجية. كان ثمة فرشاة شعر بلاستيكية، وأسوارة مشتراة من سوق بازار موسميّ. كان يقوم بوزن هذه الأشياء في يده كما يقوم وسيط روحاني بالتكهُّن حول بعض الحقائق المتعلقة بمالك الشيء. جلس يقلّب صفحات حافظة للصور الفوتوغرافية؛ أصدقاء المدرسة. العائلة. كلب. منزل غير هذا المنزل. صورة رجلٍ قد يكون هو والدها. وضع صورتين من صورها في جيب قميصه.

كان هنالك مروحة معلَّقة في السقف فوقه. نهض وجذب سلسلة تشغيل المروحة واستلقى على السرير ملقياً بندقية الرش إلى جانبه، ومراقباً الشفرات الخشبية للمروحة وهي تدور في بطء تحت الضوء المتسرب من النافذة. وبعد هنيهة نهض وجذب الكرسي من قرب الطاولة في الزاوية وأماله تحت مسكة الباب ثم جلس على السرير وخلع نعليه وتمدّد فوقه ونام.

وعند الصباح، مشى خلال البيت من جديد في الطابق العلوي والسفلي ثم عاد إلى الحمام الواقع في نهاية الرواق للاستحمام. ترك ستارة حوض الحمام مفتوحة فيما المياه ترسل بعض القطرات الشاردة إلى الأرض، كما ترك باب الحمام المطل على الرواق مفتوحاً، وترك بندقية الرش على نضد التزيُّن على بعد قدم واحدٍ منه.

قام بتنشيف الضمادة على ساقه مستعيناً بمجفف الشعر، وحلق ذقنه، ولبس ثيابه، ونزل إلى المطبخ، وتناول زبدية من رقائق الذرة مع الحليب متمشياً في البيت أثناء تناول فطوره. وفي غرفة الجلوس توقف ونظر إلى الرسائل البريدية الملقاة من خلال الفتحة النحاسية في أسفل

الباب الأمامي. وقف هناك وهو يمضغ طعامه ببطء. ثم وضع زبديته وملعقته على المنضدة، وعبر الغرفة وانحنى والتقط رزمة البريد، ووقف وهو يقوم بتصنيف الرسائل. ثم جلس على كرسيٍّ إلى جانب الباب، وفتح فاتورة الهاتف وكوّر المغلَّف على شكل كوب ونفخ فيه.

ألقى نظرة على لائحة المكالمات الهاتفية المجراة. وفي وسطها كان هنالك مكالمة مع دائرة العمدة في مقاطعة تيريل. طوى الفاتورة وأعادها إلى الغلاف ودسّه في جيب قميصه. ثم دقق في بقية الرسائل من جديد. نهض وذهب إلى المطبخ والتقط بندقية الرش عن الطاولة وعاد إلى الوقوف في موضعه السابق. قطع المسافة إلى طاولة الماهوغاني الرخيصة. وقام بفتح الدُّرج الأعلى منها. كان هذا الدُّرج مليئاً بالرسائل البريدية. ألقى بندقية الرش وجلس على كرسي واستخرج الرسائل من الدُّرج وقام بتكديسها على الطاولة. وبدأ بمراجعتها.

* * *

أمضى موسّ نهاره في فندق رخيص عند طرف البلدة وهو ينام عارياً على سريره معلّقاً ثيابه الجديدة على علّاقة ثياب في الخزانة. وعندما استفاق كانت الظلال قد تطاولت في باحة الفندق، فناضل للجلوس على حافة سريره. كان هنالك بقعة دموية حائلة اللون على مفرش السرير. وكان هنالك كيس ورقي على النَّضد المجانب للسرير يحتوي على الأشياء التي كان قد اشتراها من صيدلية في البلدة. حمل الكيس معه وعرَج إلى الحمام حيث اغتسل، وحلق ذقنه، ونظّف أسنانه بالفرشاة للمرة الأولى منذ خمسة أيام. ثم جلس على حافة الحوض ووضع شاشاً جديداً فوق جراحه. ثم نهض وارتدى ثيابه وطلب سيارة تاكسي.

كان يقف أمام مكتب الفندق عندما وصلت عربته. تسلق إلى المقعد الخلفي والتقط أنفاسه ثم مدّ يده وأغلق باب السيارة. نظر إلى وجه

السائق الذي كان يستطيع رؤيته من خلال المرآة. وجّه سؤاله إلى السائق: أتريد الحصول على بعضٍ من المال؟

بالطبع، إنني أرغب في الحصول على بعض المال.

أخذ موسّ خمساً من أوراق النقود من فئة المئة دولار وقام بتمزيق كل منها إلى نصفين ومرّر خمسة أنصاف تلك الأوراق إلى السائق. قام السائق بعدّ الأوراق ووضعها في جيبه، ثم نظر نحو المرآة وانتظر.

ما اسمك؟

قال السائق: اسمي بّول.

إنك تملك أسلوب تصرف صحيح يا بّول، وأنا لا أريد لك التورُّط في أية متاعب، بل كل ما أريده منك هو ألا تتركني في أماكن لا أحبِّذ أن أُترك فيها.

حسناً.

هل لديك كشاف كهربائي يدوي؟

أجل إنَّ لديَّ واحداً.

أعطني إياه.

مرّر السائق الكشاف الكهربائيَّ إلى المقعد الخلفي.

قال موسّ: أنت هو الرجل المناسب.

وإلى أين نحن ذاهبان؟

نزولاً على الطريق المحاذي للنهر.

إنني لن أقوم بالتقاط أحد عن الطريق؟

لا، إننا لن نقوم بالتقاط أحدٍ معنا.

راقبه السائق من خلال المرآة: وليس هنالك مخدرات بالموضوع؟

لا، ليس هنالك مخدرات.

انتظر السائق.

إنني سأقوم بالتقاط حقيبة أوراق تعود إليّ. ويمكنك النظر إلى محتوياتها إذا شئت، ولن يكون فيها شيء غير قانوني.

أأستطيع أن أنظر إلى محتوياتها؟

نعم تستطيع.

آمل ألا تقوم بجرجرتي إلى المتاعب.

كلا، لن يحصل ذلك.

إنني أحبُّ الحصول على المال، لكن الأمر الذي أحبُّه أكثر من ذلك هو مجرد البقاء بعيداً عن بوابة السجن.

قال موسّ: وإنني أشاطرك أيضاً هذه الرغبة.

قادا سيارتهما ببطء على الطريق المتجهة نحو الجسر. انحنى موس إلى الأمام فوق المقعد، وقال: أريدك أن توقِف السيارة تحت الجسر.

حسناً.

سأقوم بحلّ المصباح الكهربائي لسقف السيارة عن مكانه.

قال السائق: إنهم يقومون بمراقبة هذه الطريق على مدار الساعة.

أعرف ذلك.

خرج السائق عن الطريق وأطفأ المحرك والأنوار ونظر نحو موسّ من خلال المرآة. أخرج موس مصباح سقف السيارة عن مكانه وألقاه في داخل الغطاء البلاستيكي وناولهما إلى السائق عبر المقعد، وقام بفتح الباب. قال له: يُفترض بي أن أعود إليك بعد دقائق قليلة.

كانت عيدان القصب مغبرَّة وسيقانها كثيفة المنابت، شق طريقه من

خلالها بعناية وهو يحمل المصباح الكشاف مضاء عند مستوى ركبتيه فيما أنامله تخيّم بشكل جزئي فوق العدسة.

كانت الحقيبة منغرسة في أجمة القصب كالسكين بحيث كان جانبها الأيمن يتجه إلى الأعلى، كما كانت لا تزال على حالها سالمة كما لو أن أحدهم كان قد دسَّها هنالك في ذلك الوضع بكلٍّ بساطة. أطفأ المصباح الكشاف والتقط الحقيبة واتخذ طريقه عائداً في الظلام، مستدلّاً على الاتجاه من قنطرة الجسر فوقه. وعندما وصل إلى العربة، فتح الباب وأجلس الحقيبة على المقعد، وصعد إلى مكانه بعناية، وأقفل الباب. أعاد المصباح الكشاف إلى السائق، وأسند ظهره إلى الوراء في مقعده، وقال للسائق: لننطلق

قال السائق: ما الذي يوجد في باطن هذه الحقيبة؟

نقود.

نقود؟

نعم نقود.

أدار السائق محرك السيارة وانطلق بها إلى الطريق.

قال له موسّ: أشعل أنوارك.

قام السائق بإضاءة النور.

كم هو المبلغ الموجود في الحقيبة؟

مبلغ كبير. ما هو الأجر الذي تطلبه مني لقاء إيصالي إلى سانت أنطونيو؟

فكّر السائق في الأمر: تعني المبلغ الإضافي إلى الخمسمئة؟

نعم.

ما قولك في جعلِ المبلغ الإجمالي ألف دولار؟

تعني كل شيء؟

نعم.

لك ما شئت.

أومأ السائق إيجاباً: إذاً ماذا عن أنصاف الأوراق النقدية التي معي.

أخرج موسّ الأنصاف الأخرى من جيبه، وناولها إلى السائق عبر المقعد الخلفيّ.

ماذا لو قامت دوريات مراقبة الحدود بإيقافنا؟

قال موسّ: لن يقوموا بإيقافنا.

وما الذي يدريك؟

هنالك الكثير من المشاكل التي ما يزال عليَّ التعامل معها. ولن تتوقف الأمور على هذه المسألة فحسب.

آمل أن تكون عارفاً بما تفعل.

قال موسّ: ضع ثقتك بي.

قال السائق: إنني أكره سماع هذه الكلمات، لقد كرهتُ ذلك دائماً.

وهل حدث لك وأن قلت مثل هذه الكلمات؟

صحيح، لقد سبق لي أن قلت مثل هذه الكلمات. ولهذا فإنني أعلم ما تعنيه.

قضى ليلته في فندق للمسافرين واقع على الطريق السريع 90 في غربي البلدة تماماً. وفي الصباح، نزل من غرفته واشترى جريدة وتسلق بكل عناء عائداً إلى غرفته. لم يكن ليستطيع شراء مسدس من تاجر عميل بسبب أنه لا يحمل أية أوراق ثبوتية، لكنه كان يستطيع شراء مسدس بواسطة

إعلانات الجريدة، وقد فعل ذلك. كان المسدس من طراز تاك 9، ومعه مخزنان إضافيان وصندوقاً ونصف الصندوق من الخرطوش. وقد قام المعلِنُ عن المسدس بتسليمه إلى موسّ عند باب غرفته، كما قبض ثمنه نقداً. أدار موسّ قطعة السلاح في يده. كان بدن المسدس مطلياً بطبقة واقية خضراء من فوسفات الحديد. قال له: متى أطلقت النار منه للمرة الأخيرة؟

إنني لم أحاول أن أطلِق النار منه مرة.

وهل أنت متأكد أنه صالح لإطلاق النار؟

ولِمَ لا يكون صالحاً؟

لست أدري.

حسناً، وأنا أيضاً لست أدري.

بعد أن غادر الرجل، خرج موسّ إلى المرج الواقع خلف الفندق ومعه إحدى الوسائد العائدة للفندق تحت ذراعه. وهنالك قام بلفٍّ الوسادة حول ماسورة المسدس وأطلق منه ثلاث طلقات ثم وقف في ضوء الشمس السقيم يراقب تناثر الريش المحشوّ في الوسادة وهو يغزل عبر الدغل الرماديّ، بينما هو يتأمل في مصير حياته، ما مضى منها وما سيأتي. ثم استدار ومشى في بطءٍ عائداً إلى الفندق تاركاً وسادة الريش فوق الأديم.

استراح في بهو الفندق، ثم صعد إلى غرفته من جديد. استحمّ في الحوض، ونظر إلى مخرج الرصاصة في أسفل ظهره، مستعيناً على ذلك بمرآة الحمّام. بدا الجرح في حالة سيئة جداً. كان هنالك نزف من كلا الجرحين. همّ بتنظيفه، لكنه لم يفعل ذلك. قام بإماطة الضمادة التي على ذراعه، ونظر إلى الثلم العميق الذي أحدثته الرصاصة فيه، ثم ما لبث أن أعادها إلى مكانها من جديد. لبس ثيابه، وحشى المزيد من أوراق النقود في جيب سرواله الجينز، ووضع المسدس ومخازنه في الحقيبة وأقفلها

وطلب عربة. التقط حقيبة النقود ونزل إلى الطابق الأرضي.

اشترى شاحنة من ماركة فورد طراز 1978 ذات دفع رباعي، ومحرك 460، وذلك من معرض مكشوف لبيع السيارات واقع في نورث برودواي، ودفع للبائع الثمن نقداً. ثم قام بتوثيق البيع في دائرة كاتب عدلٍ محلية، ووضع عقد التمليك في جعبة السيارة وقادها عائداً إلى الفندق حيث أجرى ترتيبات الخروج وغادر جاعلاً المسدس تحت مقعد السائق، وحقيبة النقود وكيس ثيابه على أرضية المقعد المحاذي لمقعده.

عند ناصية الطريق السريع في بورين كان ثمة فتاة تسافر متطفلة فتوقف موسّ بسيارته وأطلق لها البوق وأخذ يراقبها من خلال المرآة. بدأت تجري في إثر سيارته بينما هي تعلق حقيبتها النايلون على أحد كتفيها. صعدت إلى شاحنته ونظرت إليه. كان عمرها يتراوح بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، ولها شعر أحمر. قالت له: كم المسافة التي أنت مسافر إليها؟

أتحسنين القيادة؟

أجل، إني أحسن القيادة. وهذه شاحنة ليس لها ناقل سرعة يدوي، أليس كذلك؟

كلا ليس لها. انزلي واستديري لناحية مقعد القيادة.

تركت حقيبتها على مقعد المسافرين ونزلت من الشاحنة وعبرت الطريق من أمامها. دفع موسّ بالحقيبة المشار إليها إلى أرض الشاحنة وأزاح نفسه من مقعده إلى المقعد المجاور، وصعدت هي إلى مقعد القيادة وقامت بتعشيق الترس وأقلعت بالسيارة إلى الطريق السريع.

كم هو عمرُكِ؟

ثماني عشرة.

هراء، ما الذي تفعلينه هنا؟ ألا تعرفين أن السفر تطفُّلاً هو أمر خطِر عليك؟

أجل، أعرف ذلك.

خلع قبعته ووضعها على المقعد بالقرب منه وأسند ظهره متكئاً وأغمض عينيه. قال لها: لا تتجاوزي المعدل الأقصى للسرعة، فإذا تسببتِ بقيام رجال الشرطة بإيقافنا فإنك ستجدين أنك قد أوقعتِ نفسك وأوقعتني في مأزق قذر.

حسناً.

إنني جادٌّ في ما أقوله لكِ. فإذا تجاوزتِ الحد الأقصى للسرعة المسموح بها، فإنني لن أتردد في قذف مقعدتكِ من شاحنتي إلى قارعة الطريق.

حسناً.

حاول النوم لكنه لم يقوَ على ذلك. فقد بدأ يشعر بالكثير من الآلام. وبعد لحظة اعتدل في جلسته، ورفع قبعته عن المقعد واعتمرها، وقام بالتحديق في مؤشر السرعة.

قالت: هل أستطيع أن أوجّه إليك سؤالاً.

تستطيعين أن تسألي ما تشائين.

هل أنتَ هارب من وجه العدالة؟

أرخى موسّ نفسه في مقعده وتطلّع إليها، ثم نظر إلى الطريق السريع: ما الذي يدعوك إلى طرح مثل هذا السؤال؟

أطرحه استناداً إلى ما كنتَ قد قلته لي من قبل حول الورطة التي يمكن أن تحصل إذا قام البوليس بإيقافنا.

وماذا إذا قلت إنني هارب من القانون؟

عند ذلك أعتقدُ أنه ينبغي علي الخروج من شاحنتك هنا.

لا أعتقد أنك ستفعلين ذلك. لكن كل ما تريدينه هو مجرد معرفة الأرض التي تقفين عليها.

نظرت إليه من طرف عينها. تأمّل موسّ في مناظر الطريق الذي تعبره السيارة: إذا لازمتِني مدة ثلاثة أيام فإنني أستطيع أن أجعلكِ من أصحاب محطات المحروقات. وعليك ألّا تتلاعبي معي أبداً.

رشقته بنصف ابتسامة عابثة: هل هذا هو ما تعمله في الحياة؟ تسطو على محطات المحروقات؟

كلا، ليس هذا ما أفعله. هلْ أنتِ جائعة؟

إنني على ما يرام.

متى تناولتِ شيئاً من الطعام لآخر مرة؟

لا أحب قيام الآخرين بطرح مثل هذه الأسئلة عليّ.

حسناً، ولكن متى تناولتِ طعاماً لآخر مرة؟

لقد عرفتُ أنك حمار نكي منذ لحظة صعودي إلى شاحنتك.

حسناً، اخرجي عن الطريق السريع عند أول منعطف، أعتقد أنه على بعد أربعة أميال. وناوليني المسدس الآلي من تحت مقعدك.

* * *

قاد بيلّ سيارته ببطء عبر الطريق المسيَّج منعاً لعبور الماشية ثم خرج منها وأغلق البوابة خلفه، وعاد إلى سيارته من جديد وقادها عبر المرعى وتوقف عند بئر الماء، وخرج ومشى إلى الخزان. وضع يده في الماء وأخرج حفنة منه وأفلتها من راحة كفه من جديد. خلع قبعته ومسّد شعره براحة كفه المبلّلة، ونظر نحو طاحونة الهواء. نظر إلى الشكل الإهليلجيّ الذي تتخذه شِفارُ المراوح السوداء التي تدور ببطء بين الأعشاب الجافة المائلة مع الريح.

كان هنالك دولاب خشبي خفيض تحت قدميه. اكتفى بالوقوف في مكانه وهو يداعب حافة قبعته بأطراف أنامله. كان يقف وقفة رجلٍ ربما يكون قد دفن شيئاً ما منذ قليل. قال لنفسه: لست أدري أيَّ شيءٍ عن هذه الدوّامة.

عندما رجع إلى البيت كانت زوجته في انتظاره بعدما أعدَّت العشاء. رمى بمفاتيح شاحنته البيك أب في دُرج المطبخ وذهب إلى الحوض ليغسل يديه. وضعت زوجته قصاصة من الورق فوق النضد ووقفت تنظر إليها.

هل قالت لك شيئاً عن مكان وجودها؟ إن هذا الرقم عائد إلى منطقة غربي تكساس.

لقد اكتفت بالقول إن اسمها كارلا جين وقد أعطتني هذا الرقم.

ذهب إلى صوان السفرة وأجرى الاتصال بالرقم. كانت هي وجدَّتُها تقيمان في فندق صغير في ضاحية بلدة إيل بّاسّو. قالت له: إني في حاجة إليكَ لتعلمني عن شيء ما.

حسناً.

قالت له: هل تتكلم الصدق والصراحة؟

نعم.

حتى معي؟

إني أودُّ التأكيد لكِ أن كلمتي صريحة صادقة بشكل خاص معك.

كان بوسعه سماع صوت حركة المواصلات الآتية من مسافة بعيدة.

أيها العمدة؟

نعم سيدتي.

إذا أفصحتُ لكَ عن المكان الذي اتصل بي منه، هل تعدني بأنّ أيّ أذىً لن يناله؟

إني أعدُكِ أن أيَّ ضررٍ لن يطاله من ناحيتي أنا، هذا ما أستطيع أن أضمنه لكِ.

وبعد هنيهة قالت: حسناً.

* * *

أنهى الرجل الجالس إلى الطاولة الحائطية المصنوعة من الخشب المعاكَس والمستنِدة إلى مُرتكَز مفصليّ كتابة ما كان يكتبه على قطعة من الورق، ثم نزع جهاز الاتصال عن رأسه وألقاه على الطاولة أمامه، ومرَّر أصابع كلتا يديه على جانبي شعره الأسود. ثم استدار ونظر إلى مؤخرة المنزل المؤلف من مقطورة متحركة حيث كان هناك رجل آخر يتمدد على السرير. قال له: ليستو؟

هبّ الأخير جالساً وطوَّح بقدميه إلى الأرض. جلس هنيهة ثم نهض واتجه إلى الأمام.

هل تمكنتَ من الحصول عليه.

نعم، لقد حصلت عليه.

نزع الورقة عن وجه الكرّاسة وقام بتسليمها إليه، فقرأها وطواها ووضعها في جيب قميصه. ثم مدّ يده وفتح إحدى خزائن المطبخ وأخرج منها رُشيشة آلية مموّهة وزوجاً من المماشط الاحتياطية، ثم فتح الباب وأغلقه وراءه. عبر فوق الحصى إلى أن وصل إلى سيارة بلايموث باراكودا سوداء ففتح بابها ووضع الرُّشيشة عند أقصى المقعد وأغلق الباب وأشعل المحرِّك. قام بحقن دوّاسة الوقود بضع مرات ثم انطلق حتى وصل إلى الشارع المعبّد، وأشعل الأنوار، وحرَّك ناقل السرعة إلى الغيار الثاني، وأخذ بالتصعيد في الطريق حيث كانت السيارة تقعي على عجلتيها الخلفيتين الكبيرتين، فيما ذيلها يتأرجح وعجلاتها تئنُّ وترسلُ غمامات من دخان المطاط خلفها.

VIII

لقد فقدت الكثير من أصدقائي خلال السنوات الماضية ولم يكونوا جميعهم ممن هم أكبر مني سناً. إن إحدى الأشياء التي تتيقّن منها عندما يتقدم بك العمر هو أن كثيراً من أترابك لن يستمروا معك في مسيرة العمر، ولن يتقدموا معك في السن. وإنك لتحاول مساعدة الناس الذين يقومون بدفع راتبك، ولكن، وبالطبع، إنك لن تستطيع سوى أن تفكر في نوع السجل الذي تتركه وراءك. إن هذه المقاطعة لم تشهد أي جريمة غير محلولة من جرائم القتل طيلة واحدٍ وأربعين سنة. وها نحن الآن نشهد تسعة جرائم من هذا النوع كل أسبوع. ترى هل ستُحَلُّ مثل هذه الجرائم؟ لست أدري. فكل يوم يمرُّ إنما يمرُّ ضدّك. وليس الزمن بجارٍ في مصلحتنا. ولست أدري ما إذا كان ثمة أيُّ مجاملة لك في القول إنك قد عُرفتَ من قبل عصبة من مروِّجي المخدرات. فالأمر لا يتوقف فقط عند حدود أنهم لم يعودوا يأبهون لذكرك أو معرفتك، بل إنهم لا يكترثون للقانون ذاته أصلاً. فالمسألة ليست مسألة مخالفة جزئية للقانون بل هي مسألة عدم اعتراف به وخروج كاملٍ عليه. وبالطبع لا ننسى أنهم هنا في سان أنطونيو قد أقدموا على قتل قاضٍ فدراليّ. إذ لعله أثار قلقهم واهتمامهم. أضفْ إلى ذلك أن بعض المسؤولين عن حفظ الأمن عبر هذه الحدود ممن قد أثروا بسبب المخدرات. وهذه معلومة مؤلمة. أو على الأقل معلومة مؤلمة عندي. إني لا أصدِّق أن مثل ذلك قد كان معلوماً حتى منذ عشر سنوات. فالضابط المسؤول عن حفظ الأمن، والذي يكون سيئ السلوك إنما هو رجسٌ ملعون. هذا هو كل ما تستطيع أن تصفه به. إذ إنه أسوأ من المجرم العادي بعشر مرات. إن هذه الظاهرة ليست في طريق الزوال. هذا ما هو الأمر سائر إليه بحسب علمي، فكيف يمكن أن يكون المصير؟

قد يبدو لك تصريحي هذا ضرباً من الغباء والجهالة، لكن أسوأ ما في الأمر

هو أن أعرف أنني ربما لم أبق على قيد الحياة إلا بسبب وجيه هو عدم احترامهم لي وعدم اهتمامهم لأمري كرجلٍ مولجٍ بحفظ القانون. وهذا شعور مؤلم، مؤلم حقاً. لقد تفاقمت الأمور في سوئها هنا إلى ما يتعدى كل حدٍّ من حدود التصور حتى بضع سنوات خلت فقط. فهنا تمّ العثور منذ مدة ليست بطويلة على طائرة من طراز دي. سي. فور في مقاطعة بريزيديو. كانت الطائرة المذكورة في الصحراء. كانوا قد حضروا إلى المكان في ليلة من الليالي وأنشؤوا لها نوعاً من المدرج المؤقت للهبوط، وقد استعملوا من أجل ذلك مجموعة من براميل الغاز التي صُفَّت في صفوف لتقوم مقام الإضاءة. لكن لم يكن هنالك من سبيل لإعادة تحليق تلك الطائرة من مكانها هناك. لقد كانت منهوبة حتى جدرانها، ولم يبق في داخلها سوى مقعد الطيار. إنك لتستطيع اشتمام رائحة حشيشة الكيف في داخلها، دونما حاجة إلى استخدام كلب بوليسي لهذه المهمة. حسناً، وإن العمدة هناك ـ لن أسميه ـ أراد أن يضع الأمور في نصابها وأن يقوم بضبط أولئك الناس عندما عادوا إلى تلك الطائرة. وأخيراً قام أحدهم بإفهام العمدة أن هؤلاء الناس ليسوا هملاً مهملاً، وأنهم لم يكونوا كذلك يوماً. وعندما فهم العمدة ما يريدون إفهامه له، فإنه استحال إلى شخص هادئ ثم استدار، ورَكِب سيارته، ولم يعد.

عندما كانت الحرب ناشبة بين عصابات المخدرات عبر الحدود، لم يكن بوسع أحدٍ شراء وعاء من طراز مرطبان ماسون (وعاء كاظم للهواء) الذي يستعمل لحفظ الأطعمة. إذ إنه عندما كانت تلك الحرب ناشبة، فإنهم درجوا على استعمال تلك الأوعية من أجل حفظ القنابل اليدوية فيها. ذلك أنك لو حلّقت فوق بيت أحدهم وقمتَ بإسقاط القنابل اليدوية فوقه، فإن هذه القنابل قد تنفجر في الفضاء قبل اصطدامها بالأرض. لهذا، فإنهم درجوا على حشو هذه القنابل بعد سحب إبرتها في جوف هذه الجِرار وحشرها معاً. ثم يعيدون الإغلاق المحكم لها. وبذلك، وعندما تصطدم الجرّة بالأرض فإنها تنكسر ويتحرر اللسان الماسك لنبّاض القنبلة. لقد درج رجال تلك العصابات على شحن صناديق من هذه العبوات، ويصعب على المرء أن يصدِّق أنهم كانوا يطيرون بها أثناء الليالي في طائرات خفيفة لإلقائها على أعدائهم، لكنهم قد فعلوها.

إني أعتقد أن المرء لو كان شيطاناً يُجهد دماغه طيلة الوقت للتفكير في طريقة تؤذي الجنس البشري وتجعله يركع أمام قدميه، لما توصل على الأغلب إلى فكرة

تكون أنجح من استخدام المخدرات لغرضه ذاك. ولربما يكون الشيطان قد استخدم ذلك الأسلوب فعلاً. كنت قد أفضيت بتلك الخاطرة يوماً إلى بعضهم في مناسبة على مائدة فطور، فما كان منهم سوى أن سألوني عمّا إذا كنت من المؤمنين بوجود الشياطين. قلت لهم: حسناً، ليس هذا هو جوهر هذه الفكرة. لكنهم قالوا: نعلم ذلك، ولكن هلى تؤمن بوجود الشياطين؟ وعندها كان عليّ أن أفكر في الجواب. قلت: أظن أنني كنت أؤمن بوجودها عندما كنت لا أزال صغيراً. وعندما صرت في منتصف عمري فإن إيماني بوجودها قد تضاءل ونوى قليلاً. أما الآن، فإنني بدأت أتعلّم النظرية الأولى من جديد لأنها تقدّم تفسيراً للشرور التي لا تفسير لها. أو على الأقلّ للشرور التي لا يستطيع عقلي بالذات أن يجد لها مبرّراً أو تفسيراً.

وضع موسّ الحقيبة في الركن الذي انتقاه في المطعم، ثم حشر نفسه وراءها. رفع لائحة الطعام عن المنصب الموضوع على الطاولة، المصنوع من أسلاك معدنية والذي يضمُّها مع ما يضمُّه من أوعية للخردل والكتشاب. بينما انسلّت هي بسرعة إلى الجانب المقابل من الركن ذاته. لم ينظر إليها. قال لها: ما الذي ستأخذينه؟

لست أدري، فإنني لم أنظر بعد إلى لائحة الطعام.

أدار لائحة الطعام وألقاها أمامها واستدار ناظراً إلى النادلة.

قالت له الفتاة: وماذا أنتَ؟

تعنين ماذا سأختار؟

كلا، بل ماذا أنتَ. أأنتَ ممثِّل؟

تأملها جيداً: حسب علمي أن الأناس الوحيدين الذين يعرفون من هو الممثل إنما هم الممثلون أنفسهم.

قد لا أكون سوى رفيقة سفر.

رفيقة سفر؟

نعم.

حسناً، ها أنتِ الآن رفيقة سفر.

إنك مصاب، أليس كذلك؟

وما الذي يدعوك إلى قول هذا؟

إنك لا تكاد تمشي سوى بصعوبة.

قد لا يكون الأمرُ يعدو إصابة حربٍ قديمة.

إنني لا أظن ذلك. إذاً، ما الذي جرى لك؟

تعنين في المدة الأخيرة؟

أجل، في المدة الأخيرة.

إنكِ لا تحتاجين إلى معرفة ذلك.

ولِمَ لا؟

لا أريدكِ أن تقلقي بسببي ولا أن تهتاجي عليّ.

وما الذي يدعوك إلى الاعتقاد بأنني قد أهتاج عليك؟

لأن الفتيات الأشقياء هن أشبه بالشباب الأشقياء. ما الذي ستطلبينه من طعام؟

لستُ أدري. ما الذي حصل لك؟

منذ ثلاثة أسابيع كنت لا أزال مواطناً مطيعاً للقانون يعمل في وظيفة من التاسعة حتى الخامسة، أو من الثامنة حتى الرابعة في أي حال. لكن الأشياء تحدث للمرء عندما يقدَّر لها أن تحدث. فهي تأتي دون سؤاله أولاً، إذ إنها ليست في حاجة إلى أيّ استئذان.

قالت: هذه هي الحقيقة لو كنت مرة في حاجة إلى من يخبرني بها.

لو بقيتِ قريبةً منّي لسمعتِ المزيد عنها.

أتظن أنني من فتيات السوء؟

بل أظن أنكِ ترغبين في أن تكوني كذلك.

ماذا يوجد في حقيبة الملفات تلك؟

يوجد فيها ملفات.

بل ماذا يوجد فيها؟

بوسعي أن أخبرك، إلا أنِني قد أضطر بعد ذلك إلى قتلك.

لا يفترض بك أن تحمل مسدساً في مكان عام، ألا تعلم ذلك؟ خاصة مسدساً من هذا النوع.

دعيني أسألكِ سؤالاً.

هيا اسأل.

عندما يبدأ إطلاق النار أيجدر بك أن تكوني مسلّحة أم أن تكوني مطيعة للقانون؟

لا أرغب أن أتواجد في مكان يحصل فيه إطلاق للنار.

بل ترغبين. إنه لأمر مكتوب عليكِ. بل إنك فقط لا تريدين أن تُقتلي. ما الذي ستأخذينه؟

وأنتَ، ما الذي ستأخذه؟

أريد أن آخذ شطيرة بيرغر بالجبنة، وشوكولا مع الحليب.

قدِمَت النادلةُ، فأوصياها على طلباتهما. أوصت هي على شطيرة من لحم البقر الساخن مع البطاطا المهروسة بصلصة المرق. قالت له: إنك حتى لم تسألني إلى أين هي وجهة سفري.

أعرف ما هي وجهتكِ.

أين أنا ذاهبة إذاً؟

إنكِ ذاهبةٌ على امتداد الطريق.

إن هذا ليس جواباً.

بل إنه أكثر من مجرد جواب.

إنكَ لا تعرف كلَّ شيء.

كلا، إنني لا أعرفِ.

هل قمتَ بقتل أيٍّ .إنسان؟

قال لها: نعم، وأنتِ؟

بدت مرتبكة: أنت تعرف أنني لم يسبق لي وأن قتلتُ أحداً.

لم أكن أعرف ذلك.

حسناً، إنني لم أفعل مثل هذا.

إذاً، لم تقتلي أحداً.

وأنت أيضاً لم تفعل مثل ذلك. صحيح؟

لم أفعل ماذا؟

الشيء الذي ذكرته منذ قليل.

تعنين قتل الناس؟

نظرت حولها لترى ما إذا كان من الممكن لأحد أن يسمع كلامهما. قالت له: نعم.

تصعبُ عليّ إجابة هذا السؤال.

بعد حين، أحضرت النادلة لهما طبقيهما. عضّ على زاوية عبوة المايونيز وقام باعتصار محتوياتها فوق شطيرة البيرغر بالجبن، ومدّ يده إلى قارورة الكتشاب. قال لها: من أين أنتِ؟

أخذت جرعةً من كوب شايها المثلّج، وقامت بمسح فمها بالمنديل الورقي. قالت له: إنني من بّورت آرثر.

أومأ برأسه. أمسك شطيرته بكلتا يديه وقضم منها قضمة. وعاد إلى

إسناد ظهره إلى الوراء فيما هو يمضغ مُضغته: إنني لم أذهب مرة إلى بورت آرثر.

وأنا لم أرك مرة هناك.

وكيف يمكن لكِ أن تريني هناك ما دمت لم أذهب مرة؟

لا يمكنني ذلك طبعاً، لكنني كنت أقول فقط إنني لم أرك. وبهذا أكتفي بالموافقة على كلامك.

هزّ موسّ رأسه.

تابعا تناول الطعام. وكان هو يراقبها.

أظن أنكِ في طريقك إلى كاليفورنيا.

وكيف لك أن تعرف ذلك؟

إن هذا هو الاتجاه الذي تتجهين نحوه.

حسناً، أنا ذاهبة إلى ذلك المكان.

وهل تحملين أيّ نقود؟

وما الذي قد يعنيك من هذا الأمر؟

إنه لا يعنيني بأي شيء. ولكن هل لديكِ نقود؟

لديّ بعض النقود.

أنهى تناول شطيرته ومسح يديه بالمنديل الورقي، وشرب ما تبقّى لديه من الحليب. ثم مدّ يده إلى جيبه وأخرج حزمة أوراق النقود من فئة المئة دولار وأفرد منها عشر ورقاتٍ ووضعها فوق طاولة الفورمايكا، ثم دفعها نحوها، وأعاد الباقي إلى جيبه. قال لها: لنمضِ في طريقنا.

من أجل ماذا تعطيني هذه النقود؟

من أجل أن تتابعي طريقكِ إلى كاليفورنيا.

وما الذي ينبغي لي أن أعمله لك في المقابل؟

ليس من المطلوب منكِ عملُ أيّ شيء. حتى الخنزيرة العمياء تعثر على بلوطة من حينٍ لآخر. خذي المبلغ ودعينا نذهب.

دفع الحساب ومشيا نحو الشاحنة. قالت: إنك لم تكن تسميني بالخنزيرة قبل الآن، أليس كذلك؟

تجاهلها موسّ. قال لها: أعطني المفاتيح.

أخرجت المفاتيح من جيبها وسلمتها إليه. قالت له: لقد خُيّل إليّ أنك قد نسيت أنها موجودة معي.

إنني لستُ شديد النسيان.

كان بوسعي أن أخرج كما لو أنني ذاهبة إلى حمام النساء، ثم أقوم بقيادة الشاحنة والفرار بها تاركة إياك هنا.

كلا لم يكن بإمكانك أن تفعلي ذلك.

ولم لا؟

اصعدي إلى الشاحنة.

صعدا، وقام هو بوضع الحقيبة بينهما، ثم سحب المسدس من حزامه وقام بدسّه تحت مقعده.

قالت له: ولمَ لا؟

لا تكوني جاهلة طوال عمرك. فمن جهة أولى كان باستطاعتي رؤية كل الطريق إلى البوابة الخارجية، وكذلك إلى الباحة الخارجية حتى مكان وقوف الشاحنة. ومن جهة ثانية حتى وإن كنت حماراً غبياً بما يكفي لإدارة ظهري إلى الباب فقد كان بإمكاني استدعاء سيارة تاكسي

ومطاردتك، وإدراكك، وسحبك، وضربك حتى تتبرزين، ثم أقوم بإلقائك في المكان الذي أدركتكِ فيه.

ران عليها الصمت. وضع مفتاح إدارة المحرك في مكانه وقام بتشغيل الشاحنة وإخراجها من باحة الوقوف.

وهل كنتَ ستفعل بي ذلك؟

وما الذي تظنينه؟

عندما وصلا إلى فان هورن كانت الساعة قد بلغت السابعة مساء. وكانت قد نامت خلال قسم كبير من المسافة وهي متكوِّمة على نفسها ومتخذة من حقيبة الكتف العائدة لها وسادة. دخل إلى موقف السيارات وأطفأ المحرك، فانفتحت عيناها فجأة كغزال مذعور. عدّلت جلستها ونظرت إلى الخارج نحو باحة الوقوف. قالت له: أين نحن الآن؟

نحن في فان هورن. ألستِ جائعة؟
يمكنني أن أتناول بعض الطعام.
أتريدين بعض الدجاج المقلي على الديزل؟
ماذا؟
أشار إلى اللافتة المرفوعة فوقهما.

قالت له: إنني لا آكل أيّ شيء مثل هذا.

مكثت في دورة المياه المخصصة للنساء وقتاً طويلاً. وعندما خرجت أرادت أن تعرف ما إذا كان قد طلب شيئاً.

بل فعلتُ. لقد طلبتُ شيئاً من ذلك الدجاج لكِ.

قالت: بل إنكِ لم تفعل أيَّ شيء من ذلك.

طلب شريحتين من اللحم البقري. قالت له: أتحيا حياتك هكذا طيلة الوقت؟

طبعاً. عندما يغدو المرء مجرماً متهوّراً، فإن السماء تصبح هي الحدود.

ما هذا الذي أراه معلّقاً في هذه السلسلة؟

تقصدين هذا؟

نعم.

إنه ناب خنزير بري.

وما الذي يدعوك إلى تعليقه في عنقك؟

إنه لا يعود لي. بل إنني أحتفظ به من أجل شخصٍ ما.

وهل هذا الشخص سيدة؟

كلا، بل هو شخص ميت.

حضرت شريحتا اللحم. راقبها وهي تأكل. قال لها: أيعرف أيُّ شخصٍ مكان وجودكِ؟

ماذا؟

لقد قلتُ أيعرف أيُّ شخص مكان وجودكِ.

مثل من؟

مثل أيِّ شخص.

أنت فقط.

أنا لا أعرف أين أنتِ، لأنني لا أعرف من تكونين.

حسناً، هذا يجعلنا متشابهين في هذه المسألة.

ألستِ تعرفين من أنتِ؟

كلا، أيها السخيف، إنني لا أعرف من أنتَ.

حسناً لندعِ الأمور إذاً هكذا. وبذلك لن يستطيعوا أن يستخلصوا من أحدنا أيّ شيء عن الآخر. أيناسبك هذا؟

حسناً، ومن أجل ماذا تطلب مني ذلك؟

كشط موس الصلصة عن وجه شريحة اللحم قليلاً: لقد اعتقدت أن ذلك قد يكون صحيحاً. فالمسألة قد تكون ترفاً بالنسبة إليك. أما بالنسبة لي فإنها حاجة.

لماذا؟ هل لأن هنالك شخصاً ما يطاردك؟

ربما.

قالت: إنني أرغب إذاً في إبقاء الأمور على هذه الشاكلة. الحق معكَ في هذا الجزء.

لا يحتاج الأمر إلى وقتٍ طويل للتعرف على مذاق هذا الموقف، أليس كذلك؟

قالت له: كلا، إن الأمر لا يحتاج إلى وقتٍ طويل.

حسناً، ولكن الأمر ليس بتلك البساطة التي يبدو عليها. سوف ترين.

ماذا تعني؟

هنالك دائماً شخص ما، يعرف أين أنتِ. يعرف أين ولماذا. في أغلب الأحيان.

هل تتكلم عن الله؟

لا، بل إنني أتكلم عنكِ.

تابعت أكلها. قالت: حسناً، سوف تكون في مأزق إذا لم تكن تعرف أين كنت.

لست أدري. أتدرين أنتِ؟

وأنا لست أدري.

افترضي أنكِ في مكانٍ لا تدرين أين هو. فالحقيقة والحال كذلك، أنك لن تستطيعي حينئذٍ أن تعرفي أين يقع أيُّ مكانٍ آخر سواه. أو ما هي المسافة التي تفصله عنكِ. ولن تغيِّر في الأمر شيئاً معرفتُك بالمكان الذي كنتِ فيه.

فكّرت في ما سمعته. قالت له: إنني أحاول عدم التفكير في مسائل من هذا النوع.

إنك تعتقدين أنكِ ستكونين لدى وصولِكِ إلى كاليفورنيا، قادرة على بدء حياة جديدة.

هذا ما هو في نيتي.

أعتقد أن هذه يمكن أن تكون هي المسألة. هنالك طريق ذاهب إلى كاليفورنيا، كما أن هنالك أيضاً طريقاً راجعاً منها. لكن الطريقة الأفضل ستكون في مجرد المثول إلى هناك.

المثول إلى هناك؟

نعم.

تعني المثول إلى هناك دون أن تدري كيف وصلتَ؟

نعم، وألّا تعلمي كيف وصلتِ إلى هناك.

لستُ أدري كيف يمكنكَ أن تفعل ذلك.

وأنا أيضاً لست أدري. هذه هي نقطة البحث.

تابعت تناول الطعام. نظرت حولها. قالت له: أأستطيع الحصول على بعض القهوة؟

تستطيعين الحصول على كل ما تريدين. فإن لديك نقودك.

نظرت إليه. قالت: أظن أنني لم أفهم مغزى كلامك.

المغزى هو أنه ليس هنالك من مغزى.

كلا. إنني أعني ما قلته أنتَ حول معرفة أين أنتَ.

نظر إليها. وبعد هنيهة قال لها: لا يتعلق الأمر بمعرفة أين أنتِ. بل إنه حول التفكير بأنك قد ذهبتِ إلى هناك دون أن تصطحبي أيَّ شيء معك. إشارتكِ إلى فكرة قيامك بمباشرة حياة جديدة. أو قيام سواك ببدء حياة جديدة. فأنتِ لا تبدئين حياة جديدة. هذا هو مدار الحديث. فكل خطوة تتخذينها تبقى معكِ إلى الأبد. بعد ذلك لن تستطيعي محوها. لن تستطيعي محو أيٍّ منها. أتفهمين ما أقوله لكِ؟

أظن ذلك.

أعرف أنكِ لم تفهمي، لكن دعيني أحاول إفهامك مرة جديدة. فأنت تظنين أنك عندما استيقظتِ صباح اليوم الذي مضى، فإن هذا الأمر يكون قد مضى ولم يعد في الحسبان. لكن الأمس هو كل الذي يُحسب. وماذا هنالك أيضاً؟ فعمرك مصنوع من الأيام التي نسجته، ولا شيء سوى ذلك. قد تعتقدين أنك تستطعين الهرب وتغيير اسمك وإلى ما هنالك مما لا أدري أنا به. ثم تبدئين من جديد. ولكن أتظنين أنكِ في صبيحة يوم ما، قد تستيقظين وتنظرين إلى السقف، وتتساءلين عن هدية الشخص الذي ينام آنئذٍ على السرير وينظر إلى السقف؟

أومأت برأسها إشارة الموافقة.

أتفهمين الآن ما أريد قوله؟

أفهم أنني كنت هناك.

نعم أعرف أنك تفهمين.

إذاً، انت آسف لأنك قد أصبحت خارجاً عن القانون؟

إنني آسف لأنني لم أصبح كذلك من قبل. أأنت جاهزة؟

عندما خرج من مكتب الفندق قام بتسليم مفتاحٍ إليها.

ما هذا؟

إنه مفتاح غرفتك.

رفعت المفتاح بيدها كأنها تزن ثقله، ثم نظرت إليه، وقالت: حسناً، إن الأمر عائد إليك.

نعم، هو كذلك.

أظن أنك تخشى أن أكتشف موجودات الحقيبة.

بل الحقيقة هي غير ذلك.

أدار محرك الشاحنة وتقدم بها في باحة الوقوف خلف مكتب الفندق.

قالت له: أأنت شخص غريب الأطوار؟

أنا؟ نعم إنني غريب الأطوار كالساذج المغفّل.

لكن لا تبدو عليك ملامح الغباء.

هل كلامك صحيح؟ اتعرفين الكثير عن المغفلين؟

إنك لا تقوم بتمثيل ذلك حسبما أظن.

حسناً يا عزيزتي، ما الذي تريدين معرفته عن ذلك؟

لست أدري.

قوليها ثانية.

ماذا؟

قوليها ثانية. لست أدري.

لست أدري.

هذا جيد. عليك التدرب على هذه العبارة. فهي تبدو مفيدة لك.

بعد ذلك، ذهب وقاد سيارته إلى الموقف المؤقت. وعندما عاد إلى الفندق جلس هناك يستطلع السيارات في باحة الوقوف. ثم خرج.

مشى إلى غرفتها وقرع الباب. انتظر قليلاً. ثم قرع الباب من جديد. رأى الستارة تتحرك، ثم فتحت له الباب. وقفت أمامه وهي ترتدي بنطال الجينز ذاته، وكذلك القميص القصير ذاته. بدت كأنها قد صحت من النوم لتوِّها.

أعرف أنكِ لم تبلغي بعد العمر الذي يسمح لك بالشرب، لكن خطر لي أن أسألك إذا كنتِ ترغبين في شرب زجاجة من البيرة.

قالت له: نعم، أحبُّ أن أشرب زجاجة من البيرة.

رفع إليها واحدة من الزجاجات الباردة من داخل الكيس الورقي الأسمر وناولها إياها، وقال: هذه لكِ.

كان على وشك الاستدارة للانصراف عندما خرجت من باب غرفتها وصفقت الباب وراءها. قالت له: لا داعي للهرب مني بهذه الطريقة.

توقف عند الدرجة السفلى.

هل لديكَ زجاجة أخرى في داخل هذا الكيس؟

نعم، إن لديّ زجاجتين أخريين، أنوي أن أشربهما.

أعني أنه يمكنك المكوث هنا والقيام بشرب إحداهما معي.

نظر إليها نظرة شزراء: هل لاحظتِ مرة كيف أنه يصعب على الإناث أن يُوَاجَهْن بالرفض؟ أعتقد أن هذه الظاهرة تبدأ معهن منذ سن الثالثة.

وماذا عن الذكور؟

إنهم يصبحون معتادين على تقبُّل الرفض. إنهم في ذلك أفضل حالاً.

لن أقول لك كلمة، بل سأكتفي بالبقاء هنا.

لن تقولي أيَّ كلمة؟

كلا.

لكن هذه هي كذبة بحدّ ذاتها.

حسناً، إنني لن أقول أيَّ شيء. سأكون هادئة تماماً.

جلس على إحدى الدرجات واستلَّ إحدى الزجاجتين من داخل الكيس، وفتح غطاءها، وأمال القارورة وشرب منها، بينما جلست هي على الدرجة الثانية وفعلت مثلما فعل.

قال لها: إنك تكثرين من النوم.

إنني أنام كلما آنست فرصة لذلك. هذا صحيح. وماذا عنك؟

إنني لم أنم ليلة كاملة منذ أسبوعين. لا أدري كيف يكون مفعول ذلك. وإني لأظن أن تاثير ذلك قد بدأ يجعلني غبياً.

إنك لا تبدو غبياً في نظري.

حسناً، هذا من وجهة نظرك.

وماذا يعني قولك هذا؟

لا شيء. إنني أكايدكِ فقط. وسوف أتوقف عن ذلك.

ليس لديك مخدرات في تلك الحقيبة، أليس كذلك؟

كلا، لماذا؟ أأنتِ تتعاطين المخدرات؟

أرغب في تدخين بعض الحشيشة إذا كان لديك شيء منها.

حسناً، ليس لديّ شيء من ذلك.

لا بأس.

هزّ موسّ رأسه، وتابع الشرب.

كلّ ما عنيته أنه لا بأس بالأمر، ويمكننا الاكتفاء بالجلوس هنا وشرب البيرة.

حسناً، إنني مسرور لأن أسمع منكِ أنه لا بأس بذلك.

وإلى أين وجهتك؟ إنك لم تذكر لي شيئاً عن ذلك.

يصعب القول.

ومع ذلك فإنك لستَ ذاهباً إلى كاليفورنيا، أليس كذلك؟

كلا، إني لست ذاهباً إلى هناك.

لم يخطر ذلك ببالي.

إنني ذاهب إلى إيل باسّو.

ظننت أنك تائه لا تدري إلى أين تذهب.

قد أكون قررت ذلك الآن فقط.

لا أظن ذلك.

لم يجبها موسّ بجواب.

قالت: جميل الجلوس هنا.

أظن أن الأمر يؤخذ قياساً على المكان الذي كنتِ تجلسين فيه.

إنكَ لستَ هارباً من أحد السجون أو ما شابه ذلك، صحيح؟

لقد هربتُ من سجن المحكومين بالإعدام. لقد قاموا بحلاقة شعر رأسي وبإعدادي للجلوس على الكرسي الكهربائي. وبإمكانك رؤية المكان الذي عاد فيه شعري الحليق إلى النمو من جديد.

لكنك مليء بالشعر الغزير.

لكن الأمر سيكون مضحكاً لو كانت روايتي صحيحة، أليس كذلك؟

هل تقوم العدالة بمطاردتك؟

كل من في الأرض يطاردني.

ولكن ما الذي ارتكبته؟

لقد كنتُ ألتقطُ الفتيات المسافرات مجاناً، ثم أقوم بدفنهن في الصحراء.

هذه مسألة لا يُمزح بها.

أنتِ على حق. إنها مسألة لا تحتمل المزاح. لقد كنتُ أحاول فقط أن أخادعكِ.

لكن سبق وأن قلتَ أنك ستكفّ عن ذلك.

ولسوف أفعل.

هل تعدني بقول الحقيقة؟

أجل. سأقول لكِ الحقيقة.

إنك رجل متزوج، أليس كذلك؟

صحيح.

ما اسم زوجتك؟

كارلا جين.

هل هي موجودة في إيل باسّو؟

نعم.

هل هي تعلم ما هي طريقتك في كسب عيشك؟

نعم، إنها تعرف. فأنا لحّام معادن.

راقبته جيداً لترى ما سيضيفه إلى قوله من كلام. لكنه لم يقل شيئاً. قالت: إنك لست لحّام معادن.

لِمَ لا أكون؟

ما الذي يدعوك إلى حمل هذا المسدس الأوتوماتي؟

لأن هنالك بعض الأشرار الذين يطاردونني.

وما الذي كنتَ قد فعلته لهم؟

سلبتهم بعض الأشياء التي تخصهم، وهم يريدون استردادها مني.

إن هذا لا تبدو له علاقة بتلحيم المعادن بالنسبة إلي.

كلا ليس له علاقة، أليس كذلك؟ أعتقد أنني لم أفكر في هذه النقطة من قبل.

تابع شرب البيرة وهو يحمل الزجاجة من عنقها جاعلاً إياه بين سبّابته وإبهامه.

وهذا الشيء هو ما تحرزه في تلك الحقيبة، أليس كذلك؟

يصعب قول ذلك.

هل أنت لصٌّ يسطو على الخزنات؟

لص يسطو على الخزنات؟

نعم.

وما الذي دعاك إلى هذا الاعتقاد؟

لست أدري؟ ولكن هل أنت لصٌّ خزنات؟

كلا.

حسناً، ولكنك شيء ما. أليس كذلك؟

كل امرئ هو شيء ما.

هل ذهبت مرة إلى كاليفورنيا؟

نعم، سبق لي أن ذهبت إلى كاليفورنيا. إن لي أخاً يعيش هناك.

وهل تعجبه الحياة فيها؟

لست أدري. لكنه يعيش هناك.

ومع ذلك، فإنك لا تحب العيش فيها، أليس كذلك؟

كلا.

أتعتقد أنه يجدر بي الذهاب إلى هناك؟

نظر إليها نظرة ثم أشاح عنها من جديد. مدّد ساقيه فوق الإسمنت ووضع قدماً فوق أخرى ومدّ نظره إلى الطريق السريع: عزيزتي، كيف لي بحق جهنم أن أعلم إلى أين ينبغي لكِ أن تذهبي؟

نعم، حسناً، إنني أشكرك من أجل إعطائي ذلك المبلغ من المال.

أهلاً وسهلاً بكِ.

لم يكن المطلوب منك أن تفعل ذلك.

لقد ظننت أنك لن تتكلمي.

حسناً، لكن هذا المبلغ يبقى كبيراً كثمن لسكوتي رغم كل ذلك.

إنه لا يساوي نصف ما تعتقدين أنه يساوي. سوف ترين.

إنني لن أقوم بتبذيره. فأنا بحاجة إلى النقود للحصول على مأوى يأويني.

ستكونين على خير ما يرام.

آمل ذلك.

إن أفضل الأشياء للعيش في كاليفورنيا، هو أن تكوني آتية إليها من مكان آخر غريب عنها. وربما أفضل الأشياء هو أن تكوني قادمة إليها من كوكب المريخ.

آمل الا اكون كذلك. لأنني لست آتية من المريخ.

ستكونين على خير ما يرام.

هل لي بأن أسألك سؤالاً؟

حسناً، اسألي ما طاب لكِ.

كم هو عمرك؟

ست وثلاثون.

هذا عمر كبير، لم أدرِ أنك في هذه الدرجة من العمر.

أعرف ذلك. وهو أمر يدهشني أحياناً.

لقد أتاني شعور بوجوب الاحتراس منك. لكنني لا أخشاك.

حسناً، لا أستطيع تقديم النصيحة لكِ في هذه المسألة أيضاً. إن معظم الناس يهربون من أحضان أمهاتهم لمعانقة الموت. فهم لا يطيقون انتظاراً لملاقاته.

أظن أنك تعتقد أن هذا هو ما أقوم الآن بفعلهِ.

إنني لا أريد حتى أن أعرف ما الذي تفعلينه.

أتساءل أين كان يمكنني الآن أن أكون لو لم ألتقِ بك في هذا الصباح.

لست أدري.

لقد كنتُ محظوظة على الدوام في مثل هذه المسائل، وفي لقاءاتي مع الناس.

حسناً، هذا الحظ قد لا يسعفك طويلاً.

لمَ؟ أتراك تخطط للقيام بدفني في الصحراء؟

كلا، ولكن هنالك الكثير من سوء الحظ في الطرق. فإذا تلبَّثتِ طويلاً نالك من سوء الحظ ما ينالك.

أظن أنه قد نالني منه بعض الشيء. وإني أعتقد أنه قد آن لي أن أنال تغييراً. بل قد يكون استحقاقي للتغيُّر قد بلغ ذروته.

حسناً، كلا لستِ كذلك.

وما الذي يدعوك إلى قول ذلك؟

نظر إليها: دعيني أقول لكِ شيئاً أيتها الرفيقة الصغيرة. إذا كان هنالك من شيء على وجه هذا الكوكب لا يشبهك، فإنما هو حزمة من الحظ السعيد الذي يطوف في الجوار.

هذا قول بغيض توجهه إليّ.

كلا، إنه ليس قولاً بغيضاً. بل إن كل ما أطلبه منك هو أن تكوني حذرة حريصة. فعند وصولنا إلى إيل باسّو فإنني سأقوم بإنزالك من شاحنتي عند محطة الحافلات. إن لديك الآن نقوداً. ولستِ بحاجة بعد ذلك إلى متابعة السفر مجّاناً.

حسناً.

حسناً.

هل كنتَ فعلاً ستنفِّذ ما قلته لي سابقاً في حال قيامَي بالفرار بشاحنتك؟

ماذا تعنين؟

أعني ما قلته من أنك كنت ستقوم بضربي إلى أن تُخرج البراز من أحشائي.

كلا لم أكن لأفعل بكِ هذا.

وأنا أيضاً لا أصدِّق أنك كنتَ ستفعل بي هذا.

هل تريدين تقاسم زجاجة البيرة الأخيرة معي؟

حسناً.

سوف أذهب لإحضار كوب. وسأعود إليك بعد هنيهة.

حسناً. ولعلك قد غيّرت رأيك، أليس كذلك؟

أغير رأيي حول ماذا؟

أنت تعرف حول ماذا.

ليس من عادتي أن أغير رأيي. أحبُّ أن أقول كلمتي النهائية الصحيحة منذ البداية.

نهض وشرع في المشي في الممر. وقفت هي عند بابها. قالت له: أودُّ أن أخبرك قولاً كنت قد سمعته من أحد الأفلام.

توقف واستدار نحوها: وما هو هذا القول؟

هنالك الكثير من الباعة الجيدين في الجوار وقد يغريك ذلك لشراء شيء ما، بعد كل شيء.

حسناً يا عزيزتي لقد تأخرت كثيراً. لأنني قد اشتريت ما أودُّ أن أشتريه. وأعتقد أنني سأبقى راضياً بما سبق لي وأن اشتريته.

تابع طريقه في الممر، وتسلق الدرج، ودخل إلى غرفته.

* * *

توقفت سيارة الباراكودا في داخل موقف للسيارات في ضواحي بالمورهيا، ودخلت إلى داخل المسرب المؤدي إلى مغسل السيارات القريب. خرج السائق من السيارة وأقفل الباب ونظر إليها. كان ثمة آثار دماء ومواد أخرى عالقة على الزجاج وعلى البدن. مشى وحصل على الفكة المعدنية وعاد ليضع قطع النقود في الفتحة المخصصة لذلك في ماكنة الغسيل ثم تقدّم بسيارته بعد ارتفاع المخلعة وغسلها وشطفها بالماء، وعاد إلى الخروج بها من جديد إلى الطريق السريع المتجه غرباً.

* * *

غادر بيلّ منزله عند السابعة والنصف متخذاً سيره على الطريق السريع رقم 285، المتجه شمالاً نحو فورت ستوكتون. وكان لا يزال يفصله مسافة مئتي ميل عن فان هورن، وقد أيقن أن بإمكانه قطع هذه المسافة في مدة تقلّ عن ثلاث ساعات. أضاء أنوار سطح سيارته الرسمية. وعند حوالي مسافة عشرة أميال إلى الغرب من ستوكتون، وبالضبط عند المخرج آي عشرة إلى الولاية، مرّ بالقرب من سيارة تشتعل عند جانب الطريق السريع. كان ثمة سيارات بوليس عند موقع الحادث، وكان أحد مسارب الطريق مغلقاً أمام المرور. لم يتوقف لكن هذا المشهد قد سبب له شعوراً بعدم الارتياح. توقف في بالمورهيا وأعاد ملء قارورة قهوته. ودخل إلى الطريق المؤدي إلى فان هورن عند الساعة العاشرة والثلث.

لم يكن يدري عمّا يبحث، لكن لم تكن به حاجة لذلك. ففي فسحة الوقوف في الفندق كانت هنالك سيارتا دورية تابعتان لدائرة َالعمدة في مقاطعة كالبيرسون، كما كان هنالك سيارة شرطة أخرى تابعة لشرطة الولاية، وكانت أنوارها جميعاً مضاءة. كان الفندق محاطاً بالأشرطة الصفراء المانعة للمرور. دخل وأوقف سيارته تاركاً أنوارها أيضاً مضاءة.

لم يتعرف عليه الشرطي المعاون إلا أن العمدة كان قد عرفه، كانا يستجوبان رجلاً يجلس في قميصه الداخلي عند الباب الخلفي المفتوح لإحدى سيارات الدورية. قال العمدة: اللعنة إن لم تكن الأخبار الرديئة تسافر سريعاً، ما الذي تفعله هنا أيها العمدة؟

ما الذي جرى هنا يا مارفن؟

لقد حصل اشتباك محدود بالنيران. هل لديك أي معلومات مفيدة عنه؟

لا، ليس لديّ أيّ شيء من ذلك. وهل لديكم ضحايا؟

لقد تمّ إخلاء الإصابات من هنا منذ نصف ساعة في سيارة إسعاف. رجلان وامرأة. كانت المرأة قد فارقت الحياة وأعتقد أن أحد الرجلين لن يعيش، بينما ربما يعيش الثاني.

هل عرفتم الهويات؟

لا. إن أحد الرجلين مكسيكي. إننا في انتظار بيانات تسجيل سيارته الواقفة هناك. لم يكن أيٌّ منهم يحمل أوراقاً ثبوتية لا في ثيابه ولا في غرفته.

وماذا قال هذا الرجل؟

لقد قال إن المكسيكي كان هو البادئ بأعمال العنف. إذ إنه قام بجرٍّ المرأة إلى خارج غرفتها، فخرج إليه الرجل الآخر وهو يشهر مسدساً.

لكنه عندما رأى كيف أن المكسيكي يصوب فوّهة المسدس إلى رأس المرأة، فإنه ألقى المسدس من يده. وما إن فعل ذلك حتى دفع المكسيكي المرأة بعيداً عنه وأطلق النار عليها، ثم استدار وأطلق النار عليه أيضاً. كان يقف أمام الغرفة 117 إلى اليمين هناك. أطلق النار عليهما من بندقية رشاشة لعينة. ووفقاً لهذا الشاهد، فإن الرجل وقع على الدرجات ثم عاد والتقط مسدسه من جديد وأطلق النار على المكسيكي بطريقة لستُ أدري كيف استطاع أن يفعلها. لقد مزّقه الرصاص تمزيقاً. ويمكنك رؤية الدماء على طول الممر هناك. لقد كان لدينا استجابة مثالية من ناحية سرعة حضورنا إلى موقع الجريمة، إذ لم يستغرق كل ذلك منا سوى سبع دقائق حسبما أعتقد. ولقد فارقت الفتاة الحياة على الفور.

ألم يتم العثور على أية هويات أو بطاقات شخصية؟

كلا. لكن شاحنة الرجل الآخر تحمل ملصقاً بالشعار التجاري لمعرض بيع سيارات عليها.

أومأ بيل برأسه ناظراً إلى الشاهد. طلب الشاهد سيجارة، فأعطي، فأشعلها وبدأ بتدخينها. بدا في غاية الراحة من أمره. كما بدا أنه معتاد على الجلوس في المقعد الخلفي لسيارات الشرطة من قبل.

قال بيلّ: هل كانت المرأة من أصلٍ إنكليزي؟

نعم، لقد كانت من أصل إنكليزي. وكان لها شعر أشقر مائل إلى الحمرة.

هل عثرتم على أيٍّ مخدرات؟

ليس حتى الآن. إننا لا نزال نبحث.

هل عثرتم على أيٍّ مبالغ نقدية؟

لم نجد شيئاً حتى الآن. لقد حُجز للمرأة في الغرفة رقم 121.

ولديها حقيبة زاد تُحمل على الظهر وهي تحتوي على بعض الملابس والحوائج الشخصية، وهذا هو كل شيء.

نظر بيلّ إلى صف أبواب الغرف في الفندق. كان الناس يتحلقون في جماعات صغيرة وهم يتحدثون. نظر إلى سيارة الباراكودا السوداء.

هل هنالك من شيء في تلك السيارة لفكٍّ عجلاتها؟

أستطيع القول إن هنالك عِدَّة جيدة جداً من أجل ذلك. إذ يوجد في السيارة تحت غطاء المحرك علبة تحتوي على جهاز 440، وعلى منفاخ أيضاً.

تحتوي على منفاخ؟

نعم.

لكنني لا أرى شيئاً.

إنه وراء إحدى الدفاعات الجانبية. وهو مغطى بغطاء المحرِّك تماماً.

وقف بيلّ ينظر إلى السيارة. ثم استدار ونظر إلى العمدة: هل تستطيع مغادرة هذا المكان لبرهة من الزمن؟

أستطيع ذلك. ولكن ما هو الشيء الذي يدور في ذهنك؟

لقد خطر للتوِّ في بالي أن أصطحبك بسيارتي إلى العيادة.

حسناً إذاً، ولكن لنذهب بسيارتي أنا.

سيكون ذلك أمراً جيداً. دعني فقط أوقف سيارتي في مكان أفضل.

تباً، إنها في مكان لا بأس عليه.

دعني أقوم بتحريكها بعيداً عن طريق الناس. فالمرء لا يستطيع أن يحسن التقدير دائماً حول سرعة عودته عندما يذهب إلى مكان ما.

وعند نضد الممرضات، تكلم العمدة مع الممرضة المناوبة أثناء الليل، مسمياً إياها باسمها. نظرت نحو بيلّ.

قال العمدة: لقد جاء معي للتعرف على الإصابات.

أومات برأسها إيجاباً، ونهضت من مكانها واضعة القلم بين صفحات كتابها الذي كانت تطالع فيه. قالت: اثنان من الإصابات وصلا إلى المستشفى بعد أن فارقا الحياة، وقد قاموا بإخلاء ذلك المكسيكي من هنا بواسطة الطوّافة منذ عشرين دقيقة. ولعلك تكون قد عرفت ذلك من قبل.

قال العمدة: لا أحد أخبرني بشيء يا عزيزتي.

تبعاها في الدهليز. كان ثمة شريط رفيع من الدماء فوق الأرضية الإسمنتية. قال بيل: لن يكون التعرّف على شخصياتهم أمراً عسيراً، أليس كذلك؟

كانت هنالك إشارة حمراء في نهاية الرواق كتب عليها كلمة "مخرج". وقبل وصولهم إليها، استدارت وأدارت مفتاحاً في قفل باب حديدي إلى اليسار، ثم فتحته وقامت بإضاءة النور. كانت الغرفة كلها تشكّل جسماً واحداً من الإسمنت العاري، ولم يكن بها أية نوافذ، وكانت فارغة سوى من ثلاث طاولات معدنية ذات عجلات. وكان على اثنتين من الطاولات جثة واحدة على كل منهما، مغطاة بغطاء من البلاستيك. وقفت وهي تدير ظهرها إلى الباب المفتوح بينما دخل الرجلان من أمامها.

إنه ليس صديقاً لك يا إد توم، أهو؟

كلا.

لقد أصيب بطلقتين في وجهه، وهكذا، فإنني لا أعتقد أنه سيكون في صورة تسهل التعرف على شخصه. هذا فضلاً عن أنني لم أشهد ما هو أشنع من هذه الإصابة. إن ذلك الطريق السريع هناك قد غدا منطقة حرب ملعونة، ولا أكون مبالغاً إذا قلت ذلك.

رفع الغطاء البلاستيكي. مشى بيل مستديراً نحو نهاية الطاولة. لم تكن هنالك وسادة تحت عنق موسّ. ولذلك، فإن رأسه كان منكفئاً إلى

جانبه. كانت إحدى عينيه نصف مفتوحة. لقد بدا كرجل قذر مخمور على قارعة الطريق. كانوا قد امتصّوا الدماء عنه بالليفة، لكن كان ثمة ثقوب في وجهه، وكانت أسنانه قد تطايرت.

هل هو رجُلك؟

أجل، إنه هو.

يبدو وكأنك كنت تتمنى ألا يكون هو.

لقد بات عليّ إخبار زوجته.

إنني آسف للموقف الذي أنت فيه.

أومأ بيلّ برأسه.

قال العمدة: حسناً، لم يكن في يدك شيء تفعله.

قال بيلّ: كلا، لكنك دائماً تحب أن تعتقد أن ثمة أشياء تستطيع عملها حول المسائل.

قام العمدة بإعادة الغطاء فوق وجه موسّ، ثم مدّ يده ورفع الغطاء عن الطاولة الأخرى ناظراً إلى بيلّ. هزّ بيلّ رأسه.

لقد قاما باستئجار غرفتين، أو بالأحرى هو الذي قام بذلك. دفع الإيجار نقداً. وقد تعذّر علينا قراءة الاسم على السجل. فالخط أشبه بالخربشة.

إن اسمه موسّ.

حسناً. سوف نأخذ المعلومات منك في المكتب. وجه فتاة متسيبة قذرة.

صحيح.

غطّى وجهها من جديد. قال: أجزم بأن زوجته سوف لا تستسيغ هذا الجزء من الحكاية أيضاً.

كلا، إني لا أتوقع أن يعجبها ذلك.

نظر العمدة إلى الممرضة. كانت لا تزال واقفة وهي تتكئ على الباب. سألها: كم هو عدد الإصابات في جسدها؟ أتعرفين؟

كلا، إني لست أدري أيها العمدة. لكن يمكنك استطلاع ذلك إذا شئت. فأنا لا مانع لديَّ، كما أعرف أنها لن تمانع أيضاً.

ليس ذلك بأمر شديد الأهمية، وهو أمرٌ سيتَّضح بعد إجراء التشريح. آأنت جاهز يا إدّ توم؟

نعم. كنت جاهزاً قبل المجيء إلى هنا.

جلس في مكتب العمدة وحده فيما الباب مقفل، وحدّق بالهاتف على الطاولة. أخيراً، نهض وخرج. نظر المعاون إليه.

لقد ذهب إلى بيته، حسب اعتقادي.

قال المعاون: نعم سيدي، هل أستطيع مساعدتك بشيء أيها العمدة؟

كم هي المسافة من هنا إلى إيل بّاسّو؟

إنها حوالي مئة وعشرين ميلاً.

قل له إنني أشكره وسوف أتصل به بالهاتف غداً.

نعم سيدي.

توقف وتناول بعض الطعام في طرف البلدة، وجلس في الركن يرتشف قهوته ويقوم بمراقبة أضواء السيارات على الطريق السريع. هناك خطأ ما، وها هو لا يستطيع حلَّ لغزه. نظر إلى ساعة يده فإذا بها تشير إلى الواحدة وعشرين دقيقة. دفع حسابه ومشى إلى الخارج وارتقى إلى سيارة الدورية وجلس وراء المقود. ثم قادها إلى التقاطع، واستدار شرقاً، وعاد إلى الفندق من جديد.

* * *

نزل تشيغور في فندق عند شرقي الطريق الدائري، ومشى إلى الخارج عبر الحقل المكشوف للرياح، في عتمة الليل، وراقب المجال الطبيعي عبر الطريق السريع من خلال منظاره. بدت له الشاحنات الكبيرة في عدستي المنظار وهي تبتعد. أقعى على كعبيه ملقياً مرفقيه فوق ركبتيه وهو يراقب، ثم ما لبث أن عاد إلى فندقه.

جعل منبه الإيقاظ جاهزاً لإيقاظه عند الساعة الواحدة، وعندما استيقظ أخذ حماماً، ولبس ثيابه، وخرج إلى شاحنته حاملاً كيسه الجلدي الصغير الذي قام بوضعه خلف المقعد.

أوقف سيارته في موقف الفندق، وبقي جالساً فيها لبعض الوقت وهو يسند ظهره إلى الوراء في مقعده مراقباً من خلال مرآة الرؤية الخلفية. لم يلحظ أيّ شيء. كانت سيارات البوليس قد غادرت المكان منذ أمد بعيد. وكان سياج الشريط الأصفر الذي نصبه البوليس عبر الباب قد رفعته الرياح. وصارت السيارات الشاحنة تئن في طريقها عائدة إلى أريزونا وكاليفورنيا. خرج من سيارته ومشى إلى الباب وخلع القفل من مكانه ببندقية ضغط الهواء ودخل إلى داخل الغرفة، وأقفل الباب وراءه. كان باستطاعته رؤية محتويات الغرفة جيداً تحت تأثير الضوء المنسرب من الشبابيك. وكان هنالك تسربات صغيرة للضوء من خلال الثقوب التي أحدثتها الرصاصات في الباب المصنوع من الخشب المعاكس. سحب الطاولة الصغيرة المحاذية للسرير إلى قرب الجدار ووقف عليها، وأخذ مفك البراغي من جيبه، وبدأ بحلِّ البراغي عن الغطاء الفولاذي لأنبوب الهواء. وضع الغطاء على الطاولة، ومدّ يده وسحب الحقيبة ونزل إلى الأرض. مشى إلى الشباك ونظر من خلاله إلى باحة الوقوف. ثم سحب المسدس من وراء حزامه وفتح الباب وخرج بعد أن أغلقه وراءه، وانحنى من تحت الشريط، ومشى إلى شاحنته وارتقى وراء مقعدها.

وضع الحقيبة على أرضية السيارة ومدّ يده إلى المفتاح وهمّ بإدارة

المحرك عندما رأى سيارة دورية تابعة لدائرة العمدة في مقاطعة تيريل تدخل إلى داخل باحة الوقوف في الفندق على بعد مئة قدم منه. أرخى يده عن مفتاح المحرك، وأسند ظهره إلى الوراء. دخلت سيارة الدورية إلى فسحة الوقوف، ثم انطفأت أنوارها. ثم انطفأ المحرك. بقي تشيغور منتظراً، وكان المسدس جاهزاً في حضنه.

عندما نزل بيلّ من سيارة الدورية، ألقى نظرة حوله في باحة الوقوف، ثم مشى إلى باب الغرفة رقم 117 وحاول فتح الباب. كان الباب غير مقفل. انحنى تحت الشريط المانع للدخول ودفع الباب، ثم وصل إلى المفتاح في الجدار وأضاء المصباح الكهربائي.

كان أوّل شيء شاهده هو شبكة غطاء أنبوب التهوية والبراغي الملقاة فوق الطاولة. أغلق الباب وراءه، ووقف هناك. تقدم إلى الشباك، ونظر من خلال حاشية الستارة إلى باحة الوقوف. بقي واقفاً هنالك لبعض الوقت. لم يتحرك أيّ شيء. شاهد شيئاً ما، ملقى على الأرض فتقدم إليه ورفعه، لكنه علم فوراً ماهيّة هذا الشيء. قام بتقليبه في يده، ثم مشى وجلس على السرير، ووزن قطعة النحاس الصغيرة في راحة كفه، ثم ألقى بها في منفضة السجائر الموجودة على ظهر الطاولة المحاذية للسرير. رفع سماعة الهاتف لكن الخط كان مقطوعاً. أعاد السمّاعة إلى مكانها. أخرج مسدسه من قِرابه وفتح المخزن، وتفقّد الحبّة الموجودة في بيت النار، ثم أغلق المخزن بإبهامه، وجلس والمسدس مستريح على ركبته.

قال لنفسه: إنك لا تدري على وجه اليقين ما إذا كان لا يزال هنا في الخارج.

أجاب نفسه أيضاً: بل أنت تعرف أنه هنا. لقد عرفتَ ذلك في المطعم. ومن أجل ذلك عدت أدراجك إلى هنا.

سأل نفسه من جديد: وما الذي تنوي الآن أن تفعله؟

نهض، ومشى إلى مفتاح الكهرباء وأطفأ النور. ظهرت خمس ثقوب من أثر الرصاص في الباب. وقف والمسدس في يده، فيما إبهامه تعلو مطرقة المسدس المسننة، ثم فتح الباب وخرج.

مشى إلى سيارة الدورية متفحصاً السيارات الموجودة في الباحة. كانت في معظمها من شاحنات البيك آب. إن بإمكانك أن ترى شهاب النار ينطلق من فوّهة الماسورة أولاً. ولكن ليس قبلُ بما يكفي. أيمكنك أن تستشعر وجود شخصٍ ما، يترصَّدك؟ ثمة الكثير من الناس يعتقدون ذلك. وصل إلى سيارة الدورية وفتح بابها بيده اليسرى فانبعث ضوء مصباح السقف. دخل إلى جوفها وأغلق بابها وألقى المسدس على المقعد المجاور لمقعده، ثم أخرج مفتاحه وأداره في موضع تشغيل المحرك، ثم تراجع بسيارته من المساحة التي تتوقف فيها وأضاء الأنوار واستدار خارجاً من باحة الوقوف.

عندما بات خارج مجال النظر من الفندق، توقف عند كتف الطريق، وأخرج ميكروفون الاتصال من كلّابه، وقام بالنداء على مكتب العمدة. فأرسلوا له سيارتين. أقفل الميكروفون، وأبقى سيارته دونما تعشيق. وتراجع بها قليلاً إلى الوراء على حافة الطريق السريع حتى وصل إلى علامة الفندق. نظر إلى ساعة يده فإذا بها تشير إلى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة. وجد أن الدقائق السبع التي عليه انتظارها لا بد لها من أن تجعل الوقت عند الواحدة واثنتين وخمسين دقيقة. انتظر. لم يتحرك شيء في الفندق. وعندما بلغت الساعة الواحدة واثنتين وخمسين دقيقة رآهم قادمين على الطريق السريع بالتتابع فيما أنوار السيارتين ساطعة، وأبواقها ملعلعة. أبقى أنظاره على الفندق. عزم على إخراج كل سيارة تخرج من باحة الوقوف في الفندق عن مسارها في الطريق.

عندما دخلت سيارتا الدوريّة إلى باحة الفندق قام بإدارة سيارته وأضاء أنوارها وحوّل اتجاهها تماماً وعاد في الطريق التي سلكها، ولكن

بعكس اتجاه السير هذه المرة، ودخل إلى باحة الوقوف وخرج من سيارته.

بدؤوا تفتيش السيارات المتوقفة في باحة الوقوف، سيارة بعد أخرى، فيما هم يضيئون المصابيح الكشافة اليدوية، ويشهرون المسدسات، ثم يعودون من جديد. كان بيلّ هو أول من عاد واستند إلى سيارته. أومأ إلى مساعديه. قال لهم: أيها الزملاء، أعتقد أننا قد خُدعنا وأفلت المجرم منا.

أعاد كلٌّ منهم سلاحه إلى قرابه. وتقدّم هو وكبير مساعديه إلى الغرفة حيث أطلعه بيلّ على قِفل الباب وعلى قناة التهوية وعلى أسطوانة قفل الباب المخلوعة عن موضعها.

قال المعاون فيما هو يحمل أسطوانة قِفل الباب في يده: كيف استطاع أن يفعل ذلك أيها العمدة؟

قال بيلّ: إنها رواية طويلة، إنني آسف بسبب إحضاري إياكم إلى هنا دون طائل.

ليس في الأمر أية مشكلة أيها العمدة.

قل للعمدة إنني سأتصل به من إيل باسّو.

نعم سيدي، بالطبع سوف أقول له ذلك.

بعد ساعتين من ذلك نزل في فندق رودواي الواقع في الجانب الشرقي من البلدة، وحصل على مفتاح غرفته، وذهب إليها، ثم أوى إلى الفراش. استيقظ عند السادسة على جاري عادته، فنهض وأغلق الستائر وعاد إلى السرير، لكنه لم يقوَ على النوم. أخيراً، نهض واستحمّ ولبس ثيابه ونزل إلى المقهى وتناول فطوره وقرأ الجريدة. كان من المبكر جداً ظهور شيء ما عن موسّ وفتاته في الصحف. وعندما جاءته النادلة بالمزيد من القهوة فإنه سألها عن موعد وصول الجرائد المسائية إليهم.

قالت: لست أدري، لقد توقفتُ عن مطالعتها.

لست ألومكِ على ذلك، كنتُ سأفعل مثلك لو كنت أستطيع.

لقد توقفتُ عن مطالعة الصحف، كما جعلتُ زوجي يتوقف أيضاً عن مطالعتها.

هل ما تقولينه صحيح؟

لست أدري لمَ يطلقون عليها لقب جريدة أنباء، لأنني لا أستطيع أن أسمي تلك المواد التي تنشرها تلك الجرائد بأنها أنباء.

كلا، هي ليست أنباء.

متى كانت المرة الأخيرة التي قرأت فيها شيئاً عن يسوع المسيح في الصحف؟

هزّ بيلّ رأسه. قال لها: لست أدري، أظن أن علي القول إن ذلك الأمر لم يحدث لي منذ مدة طويلة.

قالت: وأظن أنه لن يحدث لكَ بعد الآن سوى في مدد طويلة أيضاً.

قرع على الأبواب الأخرى التي توحي بنوع الرسالة ذاتها التي لم تكن جديدة إلى درجة كبيرة بالنسبة إليه. رأى ستارة الشباك تتحرك قليلاً، ثم انفتح الباب ووقفت هي له فيه قليلاً ببنطالها الجينز، وذيل قميصها المندلق فوقه وهي تنظر إليه. لم يكن هنالك ثمة تعبير على وجهها، بل كان هنالك مجرد ترقُّب وانتظار. خلع قبعته فانحنت إلى جانب الباب وأشاحت بوجهها.

قال لها: إني آسف يا سيدتي.

قالت: يا إلهي. ثم ترنحت إلى الوراء نحو عمق غرفتها وترامت إلى الأرض وهي تدفن وجهها بين ساعديها فيما يداها فوق رأسها. بقي بيلّ هنالك واقفاً وهو يمسك قبعته. لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل. لم

يستطع أن يلمح وجود أيّ أثرٍ للجدة العجوز. كان هنالك خادمان إسبانيان يقفان في باحة الوقوف. وقد كانا يتساران معاً. دلف إلى داخل الغرفة وقام بإغلاق الباب وراءه.

قال لها: كارلاجين.

قالت: يا إلهي.

إنني آسف إلى أبعد حدود الأسف.

يا إلهي.

وقف هنالك. وكانت قبعته لا تزال في يده. قال لها: إنني آسف.

رفعت رأسها ونظرت إليه بوجهها المكفهرّ. قالت له: لعنة الله عليك، إذا استمريت واقفاً مكانك وقلت لي مرة أخرى أنك آسف. إن زوجي قد مات. أتفهم معنى ذلك؟ فإذا قلت لي مرة جديدة أنك آسف فإني أقسم بالله أن أمسك بمسدسي وأرديك.

IX

لم يكن لي بدٌّ سوى الأخذ بكلامها. إذ ليس ثمة الكثير مما كان بوسعي أن أعمله. ولم أرها مرة أخرى. كان بودّي لو استطعت أن أخبرها أن الروايات الصحفية لم تكن صحيحة حوله وحول الفتاة التي قُتلت معه. فلقد تكشَّف الأمر عن أنها قاصر في الخامسة عشرة من عمرها. إني لا أصدِّق أنه قد تعاطى معها بشيء. وإني أكره أن تكون زوجته قد اعتقدت ذلك مثلما تعلمون. لقد حاولتُ الاتصال بها عدداً من المرات لكنها كانت دائماً تقفل السمّاعة في وجهي. ولست ألومها على ذلك. ثم، وعندما قاموا بالاتصال بي في أوديسّا وأخبروني بالذي جرى، فإنه صعُب عليّ كثيراً تصديق ذلك. فالأمر ليس فيه أي منطق. لقد قدتُ سيارتي إلى هناك، لكن لم يكن ثمة ما يمكن للمرء أن يعمله. حاولت أن أرى ما إذا كان في إمكاني الحصول على بعض البصمات له من قاعدة البيانات لدى مكتب التحقيقات الفيديرالي (إف.بي.آي) لكن تبيّن لي أنهم لا يملكون عنه شيئاً. لقد أردت أن أعرف اسمه الحقيقي، وما الذي كان قد فعله وما شابه ذلك. لكنك تنتهي كالأحمق إلى لا شيء. إنه مجرد شبح. لكنك تعلم أنه هناك ولا يمكنك أن تصدّق أنه يمكنه البقاء يسرح ويمرح على تلك الشاكلة. إنني باقٍ في انتظار لسماع شيء جديد. ربما يحصل لي ذلك رغم كل شيء. وربما أيضاً أن هذا الشيء لن يحصل. إذ من السهل على المرء مخادعة نفسه بأن يقول لها ما يريد أن يسمع. أنت تصحو من نومك في الليل، وتساورك الأفكار. ولم أعد الآن واثقاً مما أريد سماعه. وقد تقول لنفسك إن هذا الملف قد طوي أمره، لكنك تعلم أنه لم يطوَ أبداً. ويبقى لك أن تتمنى ما شئت أن تتمنى.

لقد كان والدي يخبرني على الدوام بأن أكتفي بعمل أفضل ما عندي، وبالأمانة في قول الحقيقة. لقد قال لي إنه ليس هنالك من وصفة لطمأنينة عقل

المرء مثل الاستيقاظ في الصباح دون حاجة لتقرير من تكون في ضوء ما سبق من أعمالك. فإذا كنت قد عملت شيئاً خاطئاً فلا تتورع عن الوقوف والمجاهرة بأنك فعلته، وبأنك آسف على ما بدر منك، وأن تكتسب مما جرى علماً ومعرفة وفهماً. لا تدع الماضي يتجرجر حولك ويتجاذبك. أظن أن كل هذا يبدو شديد البساطة في هذه الأيام. حتى بالنسبة لواحدٍ مثلي. لكن صار هنالك المزيد من الأسباب الداعية إلى شدة التدقيق في هذه النصيحة. وهو لم يكن مكثراً في كلامه، لهذا، فإنني أحاول أن أتذكّر ما قاله لي. إني لا أتذكر أنه كان يملك الكثير من الاصطبار لقول الأشياء مرتين. لذلك، فقد تعلمتُ وجوب الاستيعاب من المرة الأولى. لقد كان بوسعي أن أبعد عني الكثير مما حصل لي إبّان الشباب، لكنني عندما اهتديت من جديد إلى تلك الجادّة فإنني قد قررت إلى درجة كبيرة ألّا أحيد عنها مرة، ولقد التزمت بذلك. إني لأعتقد أن الحقيقة هي دائماً بسيطة وواضحة. وهي لها الكثير مما يبرر ذلك. فالحقيقة ينبغي لها أن تكون على درجة من البساطة، بحيث يستطيع إدراكها حتى الأطفال. وإلّا فإن الأمر يكون قد تأخر كثيراً. ففي الوقت الذي تكون فيه قد أصبحت ناضجاً مدركاً للحقيقة، يكون الأوان قد فات، ومضى الذي مضى.

وقف تشيغور عند مكتب الاستقبال وهو يلبس بذلة وربطة عنق. وضع الحقيبة علىِ الأرض بموازاة قدميه وأجال نظره حول المكتب.

قالت له: كيف تتهجّأُ هذا الاسم؟

قام بتهجئة الاسم لها.

أهو يتوقع قدومك؟

كلا، إنه لا يتوقع حضوري. لكنه سيسرٌّ لقدومي كثيراً.

لحظة واحدة من فضلك.

قامت بطلب رقم هاتف المكتب الداخلي من هاتفها. وكان ثمة فترة من الانتظار. ثم أقفلت السماعة. قالت له: تفضّل بالدخول.

فتح الباب ومشى إلى الداخل، فوقف له الرجل الجالس خلف المكتب ونظر إليه. ثم استدار من وراء المكتب ومد له يده. قال: إنني أعرف هذا الاسم.

جلسا على أريكة في زاوية المكتب، وقام تشيغور بوضع الحقيبة على طاولة صغيرة وأومأ برأسه إليها. قال: إنها لك.

وما الذي فيها؟

فيها بعض النقود التي تعود إليك.

جلس الرجل ينظر إلى الحقيبة. ثم نهض وانحنى على المكتب وضغط على أحد الأزرار. قال: أوقفي جميع المكالمات.

استدار واضعاً كفّي يديه على جانبي المكتب الذي كان يقف أمامه،

وأرخى ظهره إلى الخلف متفرّساً في وجه تشيغور. قال: كيف عثرتَ عليّ؟

وما هو الفارق الذي يترتب على ذلك؟

إن الأمر يرتب فارقاً كبيراً بالنسبة إلي.

ليس عليك أن تقلق. ما من أحدٍ غيري سيأتي.

وما الذي يدريك؟

لأنني أنا نفسي ممسك بزمام من يأتي ومن لا يأتي. وأعتقد أن علينا مواجهة الأمر هنا. إنني لا أريد أن أصرف وقتاً طويلاً فيما أنا أحاول تهدئة ذهنك وتطمينك. وإني أعتقد أن ذلك سيكون في الوقت نفسه عديم الجدوى ولا يستوجب الشكر. دعنا نتحدث مباشرة عن النقود.

حسناً.

إن بعض المبلغ قد فُقِد. وهو مبلغ يقارب المئة ألف دولار. بعضه سُرِق وبعضه الآخر ذهب لتغطية بعض النفقات. ولقد تجشّمتُ بعض الآلام في سبيل استعادة أموالك. لذلك أرجو ألّا أعامل على أنني نوع من نقلة الأخبار السيئة في هذا المكان. هنالك مليونان وثلاثمئة ألف دولار في هذه الحقيبة. وإني آسف لأنني لم أستطع استرداد المبلغ إليك بكامله، ولكن هذا هو الموقف الآن.

لم يتحرك الرجل قيد أنملة. وبعد هنيهة قال: من أنت بحق الجحيم؟

اسمي أنطون تشيغور.

أعرف ذلك.

إذن لمَ تسألني؟

ما الذي تريده مني؟ أظن أن هذا هو السؤال.

حسناً، أودُّ أن أقول إن سبب زيارتي لك هي بكل بساطة من أجل

تأسيس علاقة ثقة بيننا، ومن أجل أن أقدّم لك نفسي كشخص خبيرٍ في حقلٍ بالغ الصعوبة، وكشخصٍ يمكن الثقة به والاعتماد عليه وعلى أمانته بصورة مطلقة. علاقة تقوم على شيء مثل هذا.

تعني شخصاً أستطيع أن أجري علاقات عملٍ وتعامل معه؟

نعم.

أأنت جادّ في عرضك؟

نعم، بالكامل.

راقبه تشيغور. راقب التوسُّع في حدقتي عينيه، والنبض في شريان رقبته. ومعدل سرعة نَفَسه. إذ عندما وضع راحتي يديه وراءه على المكتب، كان يبدو شخصاً هادئاً نوعاً ما. كان لا يزال يقف الوقفة نفسها، لكنه لم يعد يبدو هادئاً كما كان من ذي قبل.

هل هنالك قنبلة في هذه الحقيبة الملعونة؟

كلا. لا توجد أية قنبلة.

فكّ تشيغور أحزمة الحقيبة، وحرّر لسان القفل النحاسي وفتح الغطاء الجلدي، ودفع الحقيبة إلى الأمام.

قال الرجل: نعم، دع هذا الشيء جانباً.

أقفل تشيغور الحقيبة. وقف الرجل ناهضاً من وضع الاتكاء الذي كان يتخذه فوق المكتب. مسح فمه بقفا كفّه.

قال تشيغور: أعتقد أن ما عليك اتخاذه في الحسبان، هو كيف أنك قد فقدت هذه الأموال في الدرجة الأولى. من الذي قمت بالاستماع إليه، ومن كان موجوداً ساعتذاك.

نعم، لا يمكننا التحدث في هذا المكان.

أفهم ذلك، ومن جهتي، فإنني لا أتوقع منك أن تستوعب كل شيء في جلسة واحدة. سوف أتصل بك في مدة يومين.

حسناً.

نهض تشيغور عن الأريكة. أومأ الرجل نحو الحقيبة. قال: كان بإمكانك القيام بالكثير من الأعمال التجارية بذلك المبلغ على حسابك الخاص.

ابتسم تشيغور. قال: إن لدينا الكثير مما يمكننا الكلام عنه، وسوف يكون تعاملنا مع أشخاص جددٍ الآن. ولن تكون هنالك أية عقبات.

وما الذي حصل للأناس القدامى؟

لقد انتقلوا إلى أحوال أخرى. فليس كلُّ أحدٍ يلائم هذا النوع من العمل. إن احتمال توسُّع حجم الأرباح يقود الناس إلى المبالغة في تقدير قدراتهم. ففي أذهانهم الخاصة يزعمون لأنفسهم أنهم يسيطرون على الاحداث في الوقت الذي قد لا يكونون فيه كذلك. فوقوف المرء على أرضيّة غير واثقة هو الأمر الذي يثبّط الأعداء من حوله.

وأنت؟ ماذا عن أعدائك؟

ليس لي من أعداء. إنني لا أسمح بوجود أعداء لي.

نظر حوله في أرجاء الغرفة. قال: إنه مكتب جميل، هيئة مقتصدة. ثم أومأ برأسه إلى اللوحة المعلّقة على الجدار: هل هي لوحة أصلية؟

نظر الرجل إلى اللوحة، وقال له: كلا، إنها ليست اللوحة الأصلية. لكنني أملك الأصلية أيضاً. إني أحفظها في قبوٍ في مصرف.

قال تشيغور: شيء رائع.

* * *

جرى المأتم في يوم عاصف باردٍ من أيام آذار/مارس. وقفت إلى جانب شقيقة جدتها بينما جلس زوج تلك الشقيقة أمامها في كرسيه المتحرك مسنداً ذقنه إلى راحة يده. بدا أن للمرأة المتوفاة من الأصدقاء ما قد فاق حسبانها. وقد أدهشها ذلك. لقد جاؤوا ووجوههم مقنّعة بالسواد. وضعت يدها على كتف عمها فمدّ هو يده عبر صدره وربت على يدها. كان قد خيّل إليها أنه قد يكون غارقاً في النوم. وخلال الوقت كله الذي كانت فيه الرياح تعصف، والكاهن يرتّل، كان ينتابها شعور بأن شخصاً ما يقوم بمراقبتها. حتى إنها وجدت نفسها تتلفّت حولها.

كان الظلام قد خيّم عندما رجعت إلى بيتها. ذهبت إلى المطبخ، وأدارت غلاية القهوة، وجلست إلى جانب طاولة المطبخ. لم تشعر برغبة في البكاء من قبل. أما الآن فلا. خفضت وجهها ووضعته بين راحتي يديها. قالت: آه يا أمي.

عندما صعدت إلى الطابق العلوي وأضاءت النور في غرفة نومها، كان تشيغور يجلس على المقعد الصغير في انتظارها.

وقفت عند الباب، ألقت يدها ببطء عن مفتاح المصباح في الحائط. لم يتحرك مطلقاً. بقيت واقفة في وجوم وهي تحمل قبعتها.

أخيراً، قالت له: لقد عرفتُ أن هذا الأمر لم ينتهِ.

فتاة ذكية.

لكنني لم أحصل عليه.

لم تحصلي على ماذا؟

أحتاج إلى الجلوس.

أومأ إليها تشيغور بالجلوس على السرير. جلست ووضعت قبعتها إلى جانبها على السرير. ثم التقطت القبعة من جديد وقرّبتها منها.

قال تشيغور: لقد فات الأوان.

أعرف.

ما هو الشيء الذي لم تحصلي عليه؟

أعتقد أنك تعرف عمّا أتحدث.

كم نلتِ من المبلغ؟

لم أنل شيئاً منه. لقد أُعطيتُ حوالي سبعمئة دولار صُرفت كلها منذ وقتٍ طويل، وتتوجب الآن عليَّ فواتير كثيرة. لقد قمت بدفن أمي في هذا اليوم ولم أدفع تكاليف دفنها أيضاً.

هذا أمر لا يهمني.

نظرت إلى الطاولة المحاذية للسرير.

قال لها: إنه ليس هناك.

جلست مترنحة إلى الأمام وهي تمسك قبعتها بين ذراعيها. قالت له: ليس لديك من سبب يدعوك إلى إنزال الأذى بي.

أعرف ذلك. لكنني سبق وأن قلت كلمتي.

كلمتك؟

نعم. إننا هنا تحت رحمة الموتى. وفي هذه الحالة نحن تحت رحمة زوجك.

ولكن هذا منطق لا يستقيم.

أخشى أنه يستقيم.

إنني لا أحرز النقود. وأنت تعلم أنها لم تقع تحت يدي.

أعرف ذلك.

هل أعطيت كلمتك لزوجي بأنك ستقوم بقتلي؟

نعم.

لكنه مات. لقد مات زوجي.

نعم، ولكنني لم أمت.

لكنك لا تكون مديناً بشيء للموتى.

رفع تشيغور رأسه قليلاً. قال لها: كلا.

وكيف يمكنك أن تكون مديناً للموتى؟

بل كيف يمكنني ألا أكون مديناً لهم؟

إنهم موتى.

نعم. ولكن كلمتي لم تمت. ولا شيء يمكن له أن يغيِّر ذلك.

بل تستطيع أنت تغييرها.

لا أظن ذلك. فحتى اللامؤمن قد يجد من المفيد له أن يماهي نفسه مع الله. إنه أمر شديد النفع في الحقيقة.

إنك لست سوى مجدّف عند الله.

هذه كلمات جارحة. لكن ما قُدِّر لا يمكن الرجوع عنه. وأظن أنكِ تفهمين ذلك. وقد يثير حزنك أن تعلمي أن زوجك قد أعطيَ فرصة لإزاحتك عن طريق الأذى، لكنه اختار ألا يفعل شيئاً. لقد أعطي الخيار له لكن جوابه جاء بالنفي. وإلا لما كنتِ قد وجدتني في هذا المكان في هذه اللحظة.

هل عزمت على قتلي؟

وإني آسف لذلك.

وضعت قبعتها على السرير، واستدارت، ونظرت من خلال النافذة. رأت النماء الأخضر الجديد على قباب الشجر تحت ضوء مصباح الشارع، وهو يتماوج انخفاضاً ثم ارتفاعاً تحت وطأة رياح المساء. قالت: لست أدري ما الذي جنيته، إنني حقيقة لا أدري.

أومأ تشيغور برأسه. قال لها: بل ربما تدرين، هنالك سبب يقف وراء كل شيء.

هزت رأسها نافية: كم من مرة كررتُ لك الكلمات نفسها، لذلك فإنني لن أعيدها عليكَ.

لقد عانيتِ من خيبة إيمانكِ.

لقد عانيتُ من الخيبة في كل شيء كان لي. أيكون زوجي قد أراد قتلي؟

نعم. هل هذا هو كل ما أردتِ قوله؟

لمن؟

إنني الإنسان الوحيد الموجود الآن معك.

ليس لديّ أيّ قولٍ أقوله لكَ.

ستكونين على ما يرام. حاولي ألا تقلقي بشأن ذلك.

بشأن ماذا؟

قال لها: إنني أرى نظراتك، ولا يغيّر في الأمر شيئاً أيُّ نوعٍ من الناس أنا، فأنتِ تعرفين. يجب ألا يزداد خوفك من الموت لمجرد اعتقادك بأنني رجل شرير.

قالت له: لقد عرفتُ أنك شخص مجنون عندما وجدتكَ جالساً هناك،

ولقد عرفتُ بالضبط ما تخبّئه الأقدار من مصير حتى وإن لم أكن قادرة على قول ذلك بالكلام.

ابتسم تشيغور. قال لها: إنه أمر يصعب فهمه، لقد رأيت الناس يتصارعون معه. رأيت النظرة التي تعلو وجوههم. وهم يقولون الشيء نفسه دائماً.

وما الذي يقولونه؟

يقولون لي: ليس لك أن تفعل هذا.

فعلاً ليس لك أن تفعل.

مع أنه كلام ليس فيه أيّ نفع، أليس كذلك؟

كلا.

إذاً، لمَ تقولينه أنت؟

إني لم أقله لأحدٍ من قبل.

كلكم؟

قالت له: أمامك هنا أنا فقط، وليس هنالك من أحدٍ سواي.

نعم، بالطبع.

نظرت إلى المسدس. استدارت بوجهها عنه. جلست مطرقة برأسها إلى الأرض. وكان كتفاها يرتجفان. قالت: رحماك يا أمي.

لم يكن الذنب ذنبكِ؟

هزت رأسها، وهي تبكي.

إنكِ لم تفعلي شيئاً، بل كان الأمر مجرد حظ سيئ؟

أومأت برأسها إيجاباً.

تابع مراقبتها، وكانت ذقنه تستند إلى راحة كفه. قال لها: حسناً، هذا هو أفضل ما يمكنني أن أفعله لكِ.

مدّ ساقه وأدخل يده في جيبه، وسحب بعض القطع النقدية المعدنية، وأفرد قطعة منها ورفعها. وعرضها عليها لترى أنها قطعة نقدٍ صحيحة. أمسك القطعة بين سبابته وإبهامه ووزنها ثم نقفها عالياً في الهواء وهي تدور، ثم التقطها وصفقها نزولاً عند معصمه. قال لها: احزري.

نظرت إليه عند معصمه المغطى. قالت له: أحزر ماذا.

احزري صورة وجه القطعة.

لن أفعل ذلك.

بلى، إنك ستفعلين. احزري.

إن الله لا يطلب مني أن أفعل ذلك.

بالطبع إنه يطلب ذلك منكِ. إن عليك أن تحاولي إنقاذ حياتك. هيا احزري. إن في ذلك فرصتك الأخيرة.

قالت: طُرَّة.

رفع يده عن القطعة، فإذا بها تُظهر النقشة.

أنا آسف.

لم تجبه بشيء.

قد يكون هذا في مصلحتك.

أشاحت بنظرها عنه: إنك تريد أن تجعل الأمر يبدو كما لو أن قطعة النقد هي المسؤولة. لكن الحقيقة تشهد بأنك أنت المسؤول.

قد تدار هذه المسألة على أيّ وجهٍ من الوجهين.

لكن قطعة النقد ليس لها قولٌ تقوله. لقد كان كل القول قولك أنت.

ربما، لكن عليكِ النظر إلى هذه المسألة على طريقتين. لقد جئت أنا إلى هذا المكان بالطريقة نفسها الذي استراحت عليه قطعة النقد هذه.

جلست تبكي بصمت، ولم تجبه بجواب.

إن للأشياء ذات القدر الواحد مساراً واحداً وليس من السهل علينا دائماً أن نرى ذلك، إلا أنه موجود.

قالت: إن كلّ ما اعتقدته وفكرتُ به قد أتى على شكل مخالف، وليس هنالك أيٌّ شيء، مهما قَلَّ، في حياتي مما صدق ظني به، لا في هذا الأمر، ولا في أيِّ شيء سواه.

أعرف ذلك.

ألا يمكنكَ تركي وشأني بأيّ وسيلة؟

ليس أمامي مِن بُدّ في هذه المسألة. إن كل لحظة في حياتك هي لحظة تحوّل وكل دقيقة منها هي موقف اختيار. إذ في مكانٍ ما، لا بد من أنك قد حدّدت خيارك، وكل ما يأتي بعد ذلك يكون تبعاً لذلك الخيار. إن الحساب لشديد الدقة، والمصير مرسوم، وليس من حرف واحد يمكن محوه. ليس لديّ اعتقادٌ أنك يمكن أن تؤثري في قطعة النقد كي تنصاع لكِ. كيف لكِ ذلك؟ فإن مصير الإنسان في هذه الدنيا قلّما يتغير بسرعة. إن شكل مصيرك كان واضحاً منذ البداية.

جلست تبكي، وهي تهزّ رأسها.

ولكن، ومع أنني كنت أستطيع أن أخبرك منذ البداية كيف سينتهي كل ذلك، إلا أنني اعتقدت أنه ليس بالكثير عليكِ إذا سمحتُ لكِ بأن تسألي بأن تكون لك بارقة أملٍ أخيرة في هذا العالم يكون من شأنها رفع معنويات قلبك قليلاً قبل أن يهبط عليه الكفن الأسود والظلمة، أتفهمين؟

قالت: يا إلهي، يا إلهي.

إني آسف.

نظرت إليه نظراتها الأخيرة. قالت: ليس لكَ أن تتأسف لي، ليس لك، ليس لك.

هزّ رأسه: إنكِ تطلبين مني أن أجعل نفسي حساساً غير حصين وهذا ما لن يكون. إن لدي طريقة واحدة لأحيا. طريقة لا مجال فيها للحالات الخاصة ولا للاستثناءات. وربما قد أرمي بقطعة نقد أستفتيها. إني أقوم بذلك في هذه الحالة من أجل هدف صغير. إن معظم الناس لا يستطيعون التصديق بوجود شخص مثلي. يمكنكِ أن تتخيلي كم أن هذا الاعتقاد يشكل مشكلة كبيرة بالنسبة إليهم. وكيف يمكنك أن تتفوقي على من لا تعترفين بوجوده. أتفهمين كلامي؟ عندما أتيتُ إلى حياتك، كانت حياتك قد انتهت. فلحياتك بداية، ووسط، ونهاية. وهذه هي النهاية. وقد يمكنك القول إن الأشياء قد آلت إلى مآل مختلف. وإنه كان من الممكن لها أن تنتهي إلى نهاية مختلفة. ولكن ما معنى كل ذلك؟ إنه ليس هنالك من شيء يدعى نهاية مختلفة. فأنتِ تسألينني أن أعيد النظر في مسار الدنيا. أترين؟

قالت له وهي تنتحب: نعم، إنني أفعل ذلك. إنني فعلاً أفعل ذلك.

قال: حسناً، هذا إقرار جيد. ثم أطلق النار.

* * *

كانت السيارة التي صدمت سيارة تشيغور عند التقاطع على بعد ثلاثة مبانٍ من المنزل، سيارة من طراز بويك، عمرها عشر سنوات، وكانت قد تجاوزت إشارة مرور حمراء. لم يكن هنالك كاسرات للسرعة عند تلك الإشارة. ولم يأبه سائق سيارة البويك لأن يحاول فرملة سيارته، أو

التخفيف من سرعتها. ولم يسبق لتشيغور مرة أن لبس حزاماً للأمان عندما يقود سيارته في داخل المدينة، احترازاً لمثل هذه المخاطر. وبالرغم من أنه كان قد رأى للسيارة المندفعة نحوه مباشرة، وقام برمي نفسه إلى الجانب الآخر من سيارته، إلا أن قوة الصدمة تشببت بتقويس الباب المحاذي لمقعد السائق في سيارته، وبدفع بدن هذا الباب نحوه، الأمر الذي تسبب له على الفور بكسر ذراعه في مكانين وبتحطم بعض أضلاعه وذلك إلى جانب إصابته بجرح في رأسه، وآخر في ساقه. زحف خارجاً من سيارته من الباب المحاذي لمقعد المسافرين، ثم ترنح فوق رصيف المشاة، وجلس على العشب في حديقة أحدهم، ونظر إلى ذراعه. كان العظم ينفر عن مكانه من تحت الجلد. إصابة غير محمودة. جرت إليه امرأة في ثياب القيلولة وهي تولول.

تتابع نزيف الدم من الجرح في رأسه لينسكب فوق عينيه. وقد حاول هو في هذا الموقف أن يستجمع أفكاره. أمسك ذراعه المكسورة بيده الأخرى وحاول أن يرى درجة رداءة الإصابة والنزيف. حاول أن يقدّر ما إذا كان الشريان الوسطيّ قد انقطع. لكنه اعتقد أن ذلك لم يحدث له. وكان يشعر بطنين في رأسه رغم عدم شعوره بالألم. إذ إن الألم كان لمّا يحتدم عليه بعد.

وكان ثمة صبيّان مراهقان يقفان هنالك وهما ينظران إليه.

أأنت بخير يا سيد؟

قال: أجل، إنني بحالٍ طيبة. اتركاني فقط لأرتاح هنا قليلاً.

هنالك سيارة إسعاف قادمة، إذ قد ذهب أحد الرجال لاستدعائها.

حسناً.

هل أنت متاكد من أنك في حالٍ طيبة؟

نظر تشيغور إليهما. قال لأحدهما: ما هو الثمن الذي تطلبه لهذا القميص؟

نظر كل منهما إلى الآخر: أي قميص؟

أي قميص ملعون. كم تطلبان؟

مدّ ساقه ووصل بيده إلى جيب بنطاله وأخرج منها حزمة من الأوراق النقدية. أريد شيئاً ألفُّه حول رأسي، وآخر أستعمله رباطاً أحمل بواسطته ذراعي.

بدأ أحد الصبيين بفكّ أزرار قميصه: تباً يا سيدي، لمَ لم تفصح لنا عن سبب حاجتك إلى القميص؟ أنا أعطيك قميصي.

تناول تشيغور القميص وعضّ عليه حتى مزّقه إلى نصفين ابتداء من أسفل ظهره. لفَّ رأسه بعصبة، وطوى النصف الآخر من القميص على شكل علّاقة مفتولة مستطيلة.

قال: اعقُد هذه العصبة لي.

نظر كل منهما إلى الآخر.

اربطها فقط.

تقدم الولد الذي يرتدي قميصاً قصيراً إلى الأمام، وانحنى، وقام بعقدِ العصبة. قال: هذه الذراع لا تبدو في حالٍ جيدة.

سحب تشيغور بإبهامه ورقة مئة دولار من رزمة النقود ثم أعاد الرزمة إلى جيبه. ثم تناول الورقة من بين أسنانه ووقف على قدميه ومدّ يده بها إلى الولد.

تباً يا سيدي. لا مشكلة عندي إذا قمتُ بمساعدة أحد الناس. ثم إن هذا المبلغ كبير.

خذها، خذها وتذكّر أنك لا تتذكر شيئاً عن هيئتي. هل سمعتني؟

تناول الولد الورقة. قال: نعم سيدي.

شاهداه ينصرف على رصيف المشاة ممسكاً بالعصابة التي على رأسه، ويعرج قليلاً. قال الولد الآخر. إن قسماً من هذه الورقة المالية يعود لي.

لكنك ما زلت تحتفظ بقميصك اللعين.

هذا المبلغ لم يكن ثمناً لقميصك فقط.

مشيا إلى الشارع حيث كانت العربتان لا تزالان ساخنتين. وكانت مصابيح المساء قد استضاءت. كان هنالك بركة من محلول تبريد المحركات الأخضر، المانع للتجمد، تتجمع في قناة تصريف المياه. وعندما مرّا بالقرب من الباب المفتوح لشاحنة تشيغور، توقف الصبي الذي يرتدي قميصاً قصيراً، وأوقف الصبيّ الآخر بيده. قال له: أترى الذي أراه؟

قال الآخر: تباً.

أما ما رأياه، فقد كان مسدس تشيغور مطروحاً في أرضية الشاحنة. ثم ما لبثا أن بدآ يسمعان أبواق سيارة الإسعاف قادمة عبر المسافة البعيدة. قال الولد الأول: خذه، هيا خذه.

ولمَ آخذه أنا؟

ليس لديّ قميص داخلي أخبئه تحته. هيّا، أسرع.

تسلّق الدرجات الخشبية الثلاث إلى الشرفة، وقرع الباب في رفقٍ بقفا أنامل يده. خلع قبعته، وضغط كمّ قميصه فوق جبهته ثم أعاد قبعته إلى قبة رأسه من جديد.

ناداه صوت من الداخل: ادخل.

فتح الباب ودلف إلى داخل الغرفة البارد المظلم: إيليس؟

لقد عدتُ إلى هنا. تعالَ عدْ إليّ.

مشى في العمق إلى المطبخ. كان الرجل العجوز يجلس قرب الطاولة على كرسيّه. وكان جوُّ الغرفة يعبق برائحة شحم الخنزير القديم وبالرائحة المستوطنة لدخان خشب الموقد، وفوق كل ذلك، كانت تعلق في الجو رائحة خافتة للبول. رائحة تشبه رائحة القطط رغم أنها ليست رائحة القطط فحسب. وقف بيلّ في الرواق أمام الباب وخلع قبّعته. رفع الرجل العجوز أنظاره إليه. كانت إحدى عينيه مبيضّة بسبب شوكة شولّا أصابتها على إثر قيام جواد بطرحه عن سرجه منذ سنوات خلت. قال له: أهلاً، يا إدّ توم، لم أدرِ أولاً من الذي طرق بابي.

كيف تمشي الحياة معك؟

كما ترى عيناك. هل أنت وحدك؟

نعم، سيدي.

تفضل واجلس. أتريد بعض القهوة؟

نظر بيلّ إلى الآنية المضطربة على ظهر الطاولة التي يغطيها مفرش متصالب النقوش. قوارير دواء، فتات خبز، مجلات فصلية عن الخيول: شكراً لك، كلا، أقدِّر لك حسن ضيافتك.

وردتني رسالة من زوجتك.

تستطيع التكلم عنها باسمها لوريتّا.

أعرف أنني أستطيع ذلك. أكنتَ تعرف أنها تراسلني.

أظن أنني عرفتُ أنها قد كتبت إليك مرة أو مرتين.

إن الأمر يتعدى المرّة والمرتين. إنها تكتب لي بكثير من الانتظام. وهي تحيطني علماً بأخبار العائلة.

حسبما أعلم ليس هنالك أي أخبار من العائلة.

قد يدهشك ذلك.

إذاً، ما هو الشيء الخصوصي المتعلق بهذه الرسالة الآن؟

لقد اكتفت بالقول لي إنك تفكر باعتزال الوظيفة، هذا كل شيء. اجلس.

لم يتوقف الرجل العجوز لمراقبة ردّة فعله على النبأ، أو لمعرفة ما إذا كان فعلاً سيعتزل أم لا، بل إنه انهمك في لفِّ سيجارة من كيس للتبغ المفروم موضوع بالقرب من مرفق يده. برم اللفافة وألصقها بواسطة لعابه، ثم أشعل طرفها من ولّاعة زيبّو قديمة العهد، وبالية حتى النحاس. شرع يدخن سيجارته ممسكاً بها كإمساكه بقلم رصاص بين أصابعه.

سأله بيلّ: هل صحتك بخير؟

إنني بخير.

دفع بعجلات كرسيه المتحرك قليلاً إلى الجانبين، وراقب بيل من خلال سحابة الدخان. قال له: يتهيأ لي أن التقدم في العمر صار يبدو على ملامحك.

إنني بالفعل أتقدم في العمر.

أومأ الرجل العجوز. سحب بيلّ كرسياً، ثم جلس عليه، وألقى قبعته على الطاولة.

قال: دعني أسألك سؤالاً.

تفضّل.

ما هو الأمر الذي تأسف له أشدَّ الأسف في حياتك؟

نظر الرجل العجوز إليه معايراً السؤال. قال: لست أدري، لم يكن لدي الكثير من الأمور التي أندم عليها. أستطيع أن أتخيل الكثير من الأشياء التي بإمكانك القول إنها كانت ستجعل المرء أكثر سعادة. وأظن أن القدرة على المشي في الجوار قد تكون واحدة منها. إن بإمكانك أن تكون لك لائحتك الخاصة بك من مثل هذه الأشياء. كما قد تكون لديك لائحة. أعتقد أنك عندما تغدو كبيراً فإنك ستكون سعيداً بقدر ما. ستكون لك أوقات سعيدة وأوقات تعيسة، لكنك في نهاية المطاف تكون سعيداً أو حزيناً بالقدر الذي كنت فيه سعيداً أو حزيناً من ذي قبل. وقد عرفت أناساً ممن لم يُحسنوا الاهتداء إلى هذا المبدأ.

أعرف ما تعنيه.

أعرف أنك تعرف.

تابع الرجل العجوز تدخينه: إذا كان ما تسألني إياه هو ما الذي جعلني الأكثر تعاسة، فإنني أعتقد أنك تعرف الجواب.

نعم سيدي.

وهذا السبب هو غير وجود المرء في هذا الكرسيّ المتحرك، وهو غير هذه العين القطنية.

نعم سيدي، إنني أعرف ذلك.

إنك تحجز للاشتراك في رحلة على ظهر جواد ربما تعتقد أنها

ستكسبك على الأقلّ بعض الانطباع عمّا ستؤدي إليه هذه الرحلة. لكنك قد لا تدري. أو قد تشعر أنك قد كنت مخدوعاً. وربما لن يلومك أحدٌ بعد ذلك إذا ما اعتزلت. ولكن إذا تكشّفت الأمور عن أن النتيجة قد جاءت أكثر وعورة مما قد تخيلته في ذهنك، حسناً، فإن ذلك سيكون شيئاً آخر.

أومأ بيل برأسه إيجاباً.

أظن أن بعض الأشياء يجدر ألا توضع موضع الاختبار.

أظن أنك على صواب.

ما الذي يمكن أن يجعل لوريتّا تفرّ؟

لست أدري. أحسب أنها تفرُّ مني إذا أقدمت على عملٍ شنيع جداً.

إلا أنني متأكد جداً من أنها لن تفرّ مني لمجرد أن الأشياء سارت معنا سيراً خشناً إلى حدٍّ ما. وإنها قد بقيت إلى جانبي في مناسبة من هذا النوع أو مناسبتين.

أومأ إيلّيس إيجاباً. نفض رماد سيجارته في منفضة فخار على الطاولة. قال: سوف أثق بكلامك حول ذلك الأمر.

ابتسم بيلّ. نظر حوله: ما هو مدى جِدّة هذه القهوة؟

أظن أنها مقبولة. أعتقد أنني أطبخ على وجه العموم غلّاية من القهوة الجديدة كلّ أسبوع حتى ولو كان لا يزال هنالك بعض البقايا.

ابتسم بيل من جديد ونهض وحمل الغلاية إلى النضد وأوصلها بزرّ الكهرباء العائد لها.

جلسا إلى الطاولة يشربان القهوة من فناجين البورسلان المجزّعة نفسها التي كانت موجودة في ذلك البيت منذ عهد يسبق ولادته هو. نظر بيل إلى فنجانه وأجال بنظره حول المطبخ. قال: حسناً، أظنُّ أن بعض الأشياء تتغيّر.

قال الرجل العجوز: مثل ماذا؟

تباً، إنني لست أدري.

وأنا أيضاً لست أدري.

كم لديك من القطط؟

لدي العديد منها. والأمر يعتمد على ما تقصده في سؤالك بكلمة "لديك". فبعض قططي نصف بريّة، أما الباقي فهي مجرد فارّة من العدالة. لقد هربت جميع القطط إلى خارج الباب عندما سمعت هدير شاحنتك.

وهل سمعتَ أنتَ هدير الشاحنة؟

وكيف يمكن ذلك؟

لقد قلت هل..... أأنت تمازحني؟

ما الذي أعطاك هذا الانطباع؟

وهل سمعت؟

كلا. لكنني شاهدت القطط وهي تهرب.

أتريد المزيد من هذا؟

لقد نلت كفايتي.

إن الرجل الذي أطلق النار عليك قد مات في السجن.

في أنغولا. نعم.

ما الذي كنت ستفعل لو أطلق سراحه؟

لست أدري. ربما لا شيء. إذ إنه لن يكون هنالك من جدوى لهذا الأمر. لن يكون هنالك معنى. أيّ نوع من المعنى.

إنني شِبه مندهش لسماع ذلك منك.

إنك مع الأيام تبلى يا إدّ توم. وكلما صرفت وقتاً من أوقاتك محاولاً العودة إلى ما سُلب منك ستجد أن المزيد مما تحرزه يتسرب منك إلى خارج الباب. وبعد فترة، فإنك تكتفي بمجرد وقف النزف. إن جدَّك لم يطلب مني أن أعمل معه مساعداً. لقد فعلتُ ذلك من تلقاء نفسي. تباً، لم يكن لديَّ آنذاك عملٌ آخر أعمله. والوظيفة كانت تدرّ ما تدره مهنة الكاوبوي. وفي كل حال، فإنك لا تدري ما هو الحظ العاطل جداً الذي قد وفّره عليك حظك العاطل قليلاً. لقد كنت صغيراً جداً كي أشترك في الحرب الكونية الأولى، كما كنت كبيراً جداً للاشترك في الحرب الكونية الثانية. لكنني شهدتُ نتيجتيهما. ويمكنك أن تكون متّقِداً بالعاطفة الوطنية ومع ذلك تعتقد أن بعض الأشياء تكلف أثماناً هي أكثر مما تستحق. سلْ أمهات الشهداء ما الذي دفعنه وما الذي حصلن عليه في المقابل. إنك تدفع أثماناً باهظة على الدوام. تدفعها بوجه خاصٍّ من أجل الوعود. ليس هنالك من شيء يمكن أن نسميه المراهنة على الوعود، كما سترى، أو ربما كما رأيت.

لم يُجب بيلّ بكلمة.

لقد فكرتُ دائماً أنني عندما أصبحُ كبيراً بأن الرب سوف يساعدني بشكل أو بآخر، لكنه لم يساعدني. ولست متذمّراً، فإنني أستحق ما جرى لي. فإن هذا ما قُدِّر لي، وإنني راض به.

لكنك لا تدري ما هو رأيه فيك.

بل إنني أدري.

نظر إلى بيلّ: أستطيع أن أتذكر كيف أنك أتيت مرة كي تراني بعد أن كنتم قد انتقلتم جميعاً إلى دانتون. لقد دخلتَ يومها عليّ ونظرت حولك وسألتني ما الذي أنوي أن أفعله.

حسناً.

مع أنك لا تسألني اليوم هذا السؤال. أتسألني؟

ربما لا.

لن تسألني.

ارتشف قهوته السوداء الخالية من أية إضافات.

قال بيلّ: هل فكرتَ مرة في هارولد؟

هارولد؟

نعم.

ليس كثيراً. لقد كان يكبرني بعض الشيء، إذ ولد عام 1899. إنني متأكد من ذلك. ولكن ما الذي جعلك تفكر في أمر هارولد؟

لقد كنت أقرأ بعض رسائل أمك له، هذا كل ما في الأمر. ولقد عجبتُ ما إذا كنت تتذكر بعض الأشياء عنه.

أكان هناك أية رسائل منه؟

كلا.

إنك تفكر في عائلتك وتحاول أن تجد عبرة ومنطقاً حول كل ذلك. إني أعرف ما فعل ذلك السلوك لوالدتي. فهي لم تستطع تجاوز ذلك. لا أدري ما هو المنطق والجدوى الذي يجره ذلك أيضاً. أتعرف تلك الأغنية الإنجيلية؟ أترانا سنفهمها بكاملها رويداً رويداً؟ إن ذلك يتطلب مقداراً كبيراً من الإيمان. فأنت تفكر به وهو يذهب إلى هناك ليموت في خندق في مكانٍ ما. كان عمره سبع عشرة سنة، كما تقول لي. لأنني لا أفقه شيئاً عن ذلك أبداً.

إنني أسمعك. أتريد الذهاب إلى مكانٍ ما؟

لا أريد أن يقوم أي شخص بتجشُّم أمر التنقُّل بي في الجوار. إنني أنوي مجرد البقاء هنا في مكاني. إنني بخير، يا إدّ توم.

إن الأمر لا يزعجني.

أعرف ذلك.

حسناً.

راقبه بيلّ. أطفأ العجوز عقب سيجارته في المنفضة. حاول بيلّ أن يفكر في حياته، ثم حاول ألّا يفعل ذلك: إنك لم تتحول إلى ملحدٍ أو شكاك يا عم إيليس، أليس كذلك؟

لا، لا، لم يخالجني أيٌّ شيء كهذا.

أتعتقد أن الله يدري بما يجري لنا؟

طبعاً إنه يدري.

أتظن أنه سيوقف ما يجري؟

إذا أراد.

جلسا في سكون إلى الطاولة. ثم قال الرجل العجوز: لقد ذكرت أن هنالك بعض الصور القديمة والاشياء العائلية. ما العمل حول هذا الأمر. حسناً ليس هنالك الكثير مما يمكن عمله حولها. إني لا أظن ذلك. هل هنالك من شيء؟

كلا، لا أظن أن هنالك من شيء يمكن عمله.

لقد طلبتُ منها إرسال الشعار إلى العم ماك والذي هو عبارة عن قطعة قديمة من العملة المعدنية من فئة الخمسة بيزو، وكذلك بصمة إبهامه عندما انتسب إلى فرقة الجوّالة. وإني أعتقد أنهم قد أنشؤوا متحفاً لهذه الغاية. لكنني لم أدرِ ماذا أقول لها. هنالك الكثير من هذه الأشياء هنا في الخزانة تلك. والدُّرج الأعلى منها مليء بالأوراق. أمالَ فنجانه متفحصاً قعره.

لم يقد العم ماك سيارته مرة مع إبريق من القهوة، بل هذا كله تبجُّح وتقوُّل عليه. ولست أدري من الذي ابتدأ هذه العادة. لقد أُطلقتِ النارُ عليه وأُرديَ في مدخل بيته في مقاطعة هادسبيت.

هذا ما كنت أسمعه دائماً.

كانوا سبعة، أو ثمانية، جاؤوا إلى بيته يريدون هذا الأمر ويريدون ذاك. عاد إلى منزله وخرج منه وهو يحمل بندقية رشّ، لكنهم كانوا أسبق منه إلى الرماية فأردوه قتيلاً عند عتبة بابه. وقد هرعتْ هي إليه وحاولت إيقاف النزيف. حاولت جرَّه إلى داخل المنزل. قالت إنه بقي يحاول الإمساك ببندقية الرشّ من جديد. فيما بقي أعداؤه جالسين هناك على ظهور خيولهم إلى أن غادروا المكان أخيراً. إنني لا أعرف سبب مغادرتهم لكنني أعتقد أن شيئاً ما قد أرعبهم. وقد قال أحدهم إن شيئاً ما في الداخل قد أخافهم فاستداروا جميعاً وانصرفوا ولم يعودوا إلى مهاجمة البيت من جديد. ولقد أدخلته هي إلى البيت لكنه كان رجلاً ضخماً ولم يكن بإمكانها رفعه إلى سريره. لذلك فإنها رتبت له فراشاً على الأرض ولم يكن بيدها الكثير مما تستطيع صنعه. لقد كانت تقول دائماً إنه كان عليها أن تركب وتخرج تاركة إياه طلباً للمساعدة، لكنها لم تكن تدري إلى أين يمكنها أن تذهب، وممن يمكنها التماس تلك المساعدة. ولم يكن هو ليسمح لها بالذهاب في كل حال. فهو لم يكد يسمح لها بمفارقته إلى ما هو أبعد من المطبخ. لم يكن ليسمح لها حتى بذلك. لو لم يكن يعرف عواقب منعه لها من ذلك. لقد أُطلِقت عليه النار وأصيب في رئته اليمنى. وكان ما كان حسبما يقولون.

ومتى توفي؟

توفي في العام 1879.

لا، أعني هل توفي على الفور، أم أثناء الليل، أم متى؟

أعتقد أنه فارق الحياة أثناء الليل، أو في الصباح الباكر لليوم التالي. لقد قامت هي بدفنه بنفسها. قامت بحفر القبر في تلك الأرض الكلسية القاسية. ثم، وبعد انتهائها من دفنه فإنها قامت بتحميل عربة الخيل، وربطت الأحصنة إليها، وانطلقت بها. ولم تعدْ إلى ذلك المكان من جديد. أمّا البيت فقد احترق وتهدّم في وقتٍ ما، في العشرينيات. أما الذي لم يتهدم منه فإن بوسعي أن آخذك إليه اليوم. لقد اعتادت المدخنة الحجرية على البقاء صامدة، وقد تكون لا تزال باقية إلى الآن على صمودها. لقد كان هنالك مساحة لا بأس بها من الأرض الثابتة ملكيتها، ثمانية إلى عشرة عقارات إذا أسعفتني الذاكرة. ولم تستطع بيعها. هل تتذكرها؟

كلا. لكنني رأيت صورة شمسية لها عندما كنت لا ازال حوالي الرابعة من عمري. كانت تبدو في تلك الصورة وهي تجلس على كرسيٍّ هزَّاز على شرفة ذلك المنزل وكنت أنا أبدو واقفاً بالقرب، منها. أتمنى لو كنت أستطيع القول إني أتذكرها، لكنني لا أقدر أن أقول ذلك.

وهي لم تتزوج بعد ذلك مرة ثانية. وفي السنوات التي تلت مقتل زوجها، فإنها عملت كمدرّسة في إحدى المدارس. مدرسة سان أنجلو. لقد كانت هذه البلاد قاسية على أناسها، لكن لا يبدو أنهم قد اعتبروها مسؤولة أو قاموا بمحاسبتها. وبمعنى من المعاني بدا ذلك شديد الخصوصية، أعني عدم إلقائهم اللوم على بلادهم. ويكفيك أن تفكر في الذي حصل لهذه العائلة الوحيدة فقط. إني لا أدري ما الذي لا أزال أفعله هنا متجولاً في الجوار. ونحن الجيل الأصغر منهم، جميعاً لا نكاد نعلم الأماكن التي جرى دفن نصفهم فيها. وعلينا أن نتساءل ما هو وجه الخير في كل ذلك. وهكذا، فإنني كثيراً ما أعود إلى التفكير في هذه المسألة. ما الذي يدعو أهل هذه البلاد إلى اعتبارها غير معنية بالإجابة عن الكثير الكثير من التساؤلات؟ إنهم لا يسألونها أبداً. ويمكنك القول إن البلاد هي البلاد، وكفى. فهي بالمعنى الفاعل لم تفعل شيئاً، لكن ذلك لا يعني الكثير.

وقد شاهدت رجلاً يطلق النار على شاحنته مرة من بندقية رشّ. وكان لا بدّ له من أن يكون قد اعتقد أن الشاحنة قد فعلت له شيئاً يستحق العقاب. إن هذه البلاد قد تقتل الواحد من أبنائها في رمشة عين، ومع كل ذلك يبقى الناس على محبتهم لها. أتفهم ماذا أعني؟

أظن أنني أفهمك. ولكن هل تحبها أنت؟

أظن أن بإمكانك القول عني إنني أحبُّها. لكنني سأكون أوّل من يعترف لك بالقول: إنني جاهلٌ جهلَ مكعَّب من الصخر. وعليه، لا يكون عليك الذهاب مذهبي في ما أقول.

ابتسم له. نهض، وذهب إلى حوض المجلى. ناور الرجل العجوز بكرسيّه المتحرك قليلاً بحيث صار بإمكانه أن يراه، قال له: ما الذي تفعله؟

قلت لنفسي إنه يجدر بي أن أقوم بغسلِ هذه الأطباق هنا.

تباً، لا تهتمّ لأمر هذه الأطباق يا إدّ توم. إن لوب ستكون هنا في الصباح.

لن يستغرق غسلُها مني أكثر من دقيقة واحدة.

كانت مياه الصنبور كلسيّة. ملأ الحوض بالماء وأضاف إليه حفنة من مسحوق الصابون. ثم أضاف أخرى.

لقد خيّل إليّ أنك اعتدت على اقتناء جهاز تلفاز هنا.

لقد اعتدتُ في السابق على اقتناء الكثير من الأشياء.

لمَ لمْ تقل لي شيئاً؟ إن بإمكاني أن أجلب لكَ واحداً.

لست في حاجة إلى تلفاز.

إن من شأنه أن يسليك قليلاً.

لم أنسجم معه. لقد رميت جهاز التلفزة الذي كان لدي خارجاً.

ألا تتابع الأنباء؟

كلا. وهل تتابعها أنت؟

ليس كثيراً.

قام بشطف الصحون وتركها جانباً كي تجف، ووقف ينظر من خلال النافذة إلى الحديقة الصغيرة المليئة بالأعشاب الضارّة. مشوى بالٍ للحوم. عربة ألمنيوم يجرها حصانان مرفوعة على منصة. قال له: هل اعتدت تربية الدواجن؟

قال الرجل العجوز: نعم.

جفف بيلّ يديه وعاد إلى الطاولة وجلس. نظر إلى عمه: هل سبق لك مرة أن عملت أيّ شيء سبّب لك الخجل إلى درجة تدعوك إلى اجتناب التحدث عنه مع أي شخص؟

فكّر عمُّه في السؤال. قال له: أميل إلى القول إنه قد حصلت لي أشياء من هذا النوع، كما إني أعتقد أن ما من أحدٍ إلا وتمرُّ معه أشياء من هذا القبيل.

إنني جادٌّ في سؤالي.

حسناً.

أعني أن يكون قد مرّ معك تجربة رديئة.

رديئة إلى أية درجة؟

لست أدري. رديئة إلى درجة أنها تعلق بسمعتك.

كالأعمال التي قد يؤدي اقترافنا لها إلى الذهاب إلى السجن؟

حسناً، قد تكون من الأعمال التي قد يعتقد المرء أنها لا تليق

بكرامته.

عليّ التفكير في هذا السؤال قبل الإجابة.

كلا، ليس لك أن تفكر.

ما الذي جرى لك؟ أعتقد أنه ينبغي لي ألا أقوم بدعوتك إلى بيتي مرة أخرى.

لكنك لم تدعُني للحضور هذه المرة.

حسناً، هذا صحيح.

جلس بيلّ ملقياً كوعيه على حافة الطاولة، ويداه مشبوكتان معاً. وكان عمّه يراقبه: آمل ألّا تكون تفكر بالإدلاء أمامي باعتراف رهيب. فإني قد لا أكون راغباً في الاطلاع عليه.

أتريد أن تسمع اعترافي؟

حسناً، هيا.

حسناً.

إنه اعتراف لا يتعلق بالأمور الجنسية، أليس كذلك؟

كلا.

حسناً إذاً. تابع كلامك، وقل ما عندك على كل حال.

إن اعترافي لك يدور حول كون المرء بطل حرب.

حسناً، وهل يكون هذا البطل هو أنت؟

نعم. إن هذا البطل هو أنا.

تابع كلامك.

ها أنا أحاول متابعة الكلام. وهذا هو الذي جرى معي حقيقة. وهو

الأمر الذي أدّى بي إلى الحصول على التنويه.

تابعْ.

لقد كنا في موقع متقدم نقوم فيه بمراقبة الإشارات اللاسلكية، وكنا مجحورين في بيت زراعيّ. بيت مكوّن من غرفتين حجريتين فقط. كان قد مضى على وجودنا في ذلك الموقع يومان. يومان لم تتوقف خلالهما الطبيعية عن المطر. لقد كان المطر شديد الغزارة. وفي وقتٍ ما، في منتصف النهار الثاني قام مشغِّل جهاز الراديو بنزع الجهاز عن رأسه ثم قال: استمعوا جيداً. فاستمعنا. فعندما يقول لك شخص ما في الجبهة انتبه عليك أن تنتبه. لكننا لم نسمع أيَّ شيء. وقد قلت أنا: ما الأمر؟ لكنه قال لي: لا شيء، لا شيء.

قلتُ: عن أي شيء كنت تتحدث بحق الجحيم، هل كنت تتحدث عن اللاشيء؟ قلْ لنا ما الذي سمعته؟ فقال لنا: أعني أنك لا تستطيع أن تسمع شيئاً في هذا المكان. استمعوا من جديد. وقد كان على حق. لم يكن هنالك من صوتٍ ولا حسٍّ في أيِّ مكان. حتى الأصوات التي يسمعها المرء في الحقول لم تكن موجودة. كل ما كنت تسمعه هو هطول المطر. وكان ذلك هو آخر شيء تذكرته. وعندما عدت إلى وعيي وجدتني مستلقٍ في العراء تحت المطر. لست أدري منذ متى كنت على هذه الحال. كنت مبتلاً بالماء ومقروراً. وكان ثمة طنين في أذنيّ. وعندما استطعت الجلوس، فإنني نظرت إلى البيت فإذا به قد زال عن الوجود. لم يبق منه سوى جزء جدارٍ واحدٍ واقفٍ هناك. إذ إن قذيفة مدفع مورتر كانت قد اخترقت الجدار وتسببت بتهدُّم المنزل بكامله محولة إياه إلى جحيم. حسناً، لم أستطع آنئذٍ سماع أيِّ شيء. حتى صوت المطر لم أعد أسمعه. فإذا قلت شيئاً، أسمعه من داخل رأسي، وهذا هو كل شيء. نهضتُ ومشيت إلى حيث كان موقع المنزل. كان ثمة أجزاء من السقف ترقد فوق مساحة كبيرة من أرضية البيت. وقد رأيت أحد رجالنا مطموراً بالركام والأخشاب،

حاولت إزاحة الركام لأرى ما إذا كان بإمكاني الوصول إليه. رأسي بكامله صار الآن خدِراً. وبينما كنت أقوم بذلك، فإنني نهضتُ ونظرت إلى البعيد، ولقد رأيت هنالك أولئك القناصة الألمان منتشرين عبر الحقول. كانوا يخرجون من بعض الأدغال الحرجية على مبعدة مئتي ياردة مني، كانوا يتقدمون عبر الحقل. إنني لا أزال حتى الآن أجهل ما الذي حصل بالضبط.

لقد كنت في نوع من الدوخة والذهول. فجثمتُ أرضاً هنالك بجانب الجدار. وكان أول شيء لاحظت وجوده هو رشّاش والاس، من عيار 0,30 تبرز أسطوانته من تحت بعض الأخشاب. وكان ذلك السلاح بارداً بفعلِ الهواء، وكان موصولاً إلى زنارٍ من الخرطوش يمتد إلى داخل صندوق من الذخيرة ويتغذى منه. وقد جال في ذهني أنني إذا سمحتُ للألمان بالتقدم نحوي قليلاً فإنني سأتمكن من فتح النار عليهم في الحقل المكشوف ولن يستطيعوا طلب تدخل أسلحتهم الثقيلة لأنهم سيكونون قريبين مني جداً. قمت بالبحث حولي وتمكنت أخيراً من استخراج ذلك السلاح، وقمت بوضع الركيزة الثلاثية القوائم. وحفرت المزيد وخرجت بصندوق ذخيرة له، وتحصنت وراء الجدار هناك وسحبت الأقسام إلى الوراء وحررت جهاز الأمان ودار ما دار بيننا.

لقد كان من الصعب علي تتبُّع المكان الذي يصيبه رصاص رشاشي لأن الأرض كانت موحلة. لكنني كنت على ثقة من أنني كنت أحقق بعض الإصابات. أفرغتُ ما يعادل قدمين من مخزن الرشاش، وتابعتُ مراقبة الحقل أمامي. وبعد أن هدأ إطلاق النار لدقيقتين أو ثلاث، قام أحد الكرواتيين بالقفز ومحاولة الهرب إلى داخل الغابة، لكنني كنت جاهزاً لمثل ذلك. وهكذا أبقيت البقيّة الباقية من جنودهم مسمّرين في أماكنهم، وكنت طيلة الوقت أسمع أنين بعض رجالنا. ولم أكن على ثقة مما يمكنني عمله عند هبوط الظلام. وهذا هو السبب الذي جعلهم يقررون منحي الميدالية

البرونزية. كان الضابط الذي رشحني لهذا التنويه برتبة رائد. وهو الذي كان قد وضعني في ذلك الموقع. كان يدعى ماك أليستر، وهو من أصل جورجيّ. قلتُ له يومها إنني لا أريد الوسام. لكنه اكتفى بالجلوس في مكانه وهو يرمقني بنظراته. وأخيراً، قال لي بصورة مباشرة: إنني في انتظار قيامك بشرح الأسباب التي تدعوك إلى رفض تنويه عسكري. وهكذا فإني أخبرته. وعندما أنهيت قول ما لديّ، قال لي: أيها الرقيب، سوف تقوم بقبول التنويه. وأعتقدُ أن من قدّم لك التنويه إنما أراده أن يبدو في صورة جيدة. وأن يكون قد قُدِّم إليك لقاء شيء جليل. لقاء عدم خسارة الموقع. ثم قال لي: سوف تقبل هذا التنويه، وإذا قمت بالمزيد من الثرثرة هنا وهنالك أو إذا قمت بالعودة إلى تكرار هذه الرواية التي رويتها لي، ولا بدّ لها حين ذاك من الوصول إلى مسامعي، وعندما يحصل مثل ذلك الأمر فإنك سوف تتمنى أن يكون ظهرك مكسوراً في قاع جهنم. هل فهمت ما قلته لك؟ قلت له يومها: نعم سيدي. قلت ذلك بلهجة اجتهدت أن أجعلها واضحة كلّ الوضوح. وكان ما كان.

وهكذا، فإنك الآن تحاول أن تقول لي ما الذي فعلته حقّاً.

نعم.

عندما خيم الليل.

عندما خيم الليل، نعم.

ما الذي فعلتَه؟

لقد لذتُ بالفرار.

فكّر الرجل العجوز في ما أدلى به. وبعد هنيهة قال: لقد افترضتُ أن تلك الفكرة فكرة صائبة في ذلك الوقت.

قال بيل: صحيح.

لقد برهنت فكرتُك عن صوابها. إذ ما الذي كان سيحدث لو أنك

صمدتَ في موقعك؟

كانوا سيأتون إليّ في الظلام ويرشقونني بالقنابل اليدوية. أو لربما كانوا سينسحبون إلى حيث كانوا في الغابات، ويرجمون الموقع بزخة أخرى من المورتر.

صحيح.

جلس بيل هناك وهو يشبك كفيه فوق قماش الطاولة. نظر إلى عمه. قال الرجل العجوز: لستُ واثقاً عمّا تسألني.

وأنا أيضاً.

لقد تركتَ رفاقك وراءك وتخلّيت عنهم.

صحيح.

ولكن لم يكن لديكَ من خيار.

بل كان لدي خيار. لقد كان باستطاعتي البقاء.

لكن بقاءك معهم ما كان ليساعدهم بشيء.

ربما لا. وقد فكرتُ في القيام بنقل ذلك الرشاش إلى مسافة مئة قدم أو سوى ذلك، ومن ثم انتظارهم إلى أن يكونوا قد فرغوا من رمي قنابلهم اليدوية أو ما شابه ذلك. ثم أسمح لهم بالتقدم. وهكذا، كان باستطاعتي القيام بقتل المزيد من عناصرهم حتى في الظلام، ولست أدري. جلستُ في مكاني وراقبتُ قدوم الظلام. وكان الغروب جميلاً. وكانت السماء قد انقشعت عند ذلك. ثم توقف هطول المطر. وكان ذلك الحقل قد بُذر بحبوب الشوفان، وكانت هنالك السيقان فقط في خريف تلك السنة. راقبتُ هبوط الظلمة ولم أسمع أيّ صوتٍ يأتي من الركام لفترة من الزمن. إذ قد يكونون ساعتذاك قد فارقوا الحياة جميعاً. لكنني لم أكن متأكداً من ذلك. وحالما خيم الظلام فإنني لم أتأخر في النهوض من مربضي ومغادرة

المكان. حتى إنه لم يكن معي بندقية، خلا عن أن أكون قد اصطحبتُ معي الرشّاش المتوسط. كانت آلام رأسي قد هدأت قليلاً. وعاد إليّ بعضُ سمعي. وقد توقف هطول المطر، لكنني كنتُ منتقِعاً تماماً، كما كنتُ مقروراً وأسناني تصطكُّ. لقد استطعتُ الاهتداء بمكانِ وجود نجم الدبّ الأكبر في السماء، وقمتُ بالاتجاه غرباً بالقدْر الذي كنت أستطيعُه من اتخاذ خط سيرٍ مباشر، وهكذا فإنني تابعتُ سيري. وقد مررتُ بالقرب من منزلٍ أو منزلين، لكن لم يكن أحدٌ هناك. كانت المنطقة ساحة حرب. لذلك فإن الناس هربوا منها. وعندما جاء ضوء النهار، فإنني اضطجعتُ في غابة صغيرة من الأشجار. وأيُّ نوع من الغابات كانت تلك الغابة. فالمنطقة بكاملها بدت محروقة. ولم يكن قد بقي هنالك سوى جذوع الأشجار. وفي وقتٍ ما من الليلة التالية، فإنني اهتديت إلى موقعٍ أميركي. وكان هذا هو أذلُّ ما شعرتُ به. لقد ظننت أن هذا الشعور سيزول عني مع مرور السنين. ولست أدري سبب إلمام ذلك الشعور بي. ثم فكرتُ أنه ربما يكون بإمكاني التعويض عمّا جرى معي، وأعتقد أنني ثابرتُ جاهداً على العمل لذلك.

جلسا. وبعد هنيهة قال الرجل العجوز: حسناً وبكل صدقٍ، فإنني أقول لك الآن إنني لا أرى أن المسألة كانت على درجة كبيرة من السوء. ولربما يكون عليك أحياناً ألا تكون شديد الجور على نفسك.

ربما يكون ذلك صحيحاً. لكنك قد ذهبتَ إلى معركة. وإن قَسَمَ الدم يوجب عليك الاهتمام برفاق السلاح الذين هم معك. لكنني لا أدري السبب الذي جعلني أخفق في ذلك. لقد أردتُ أن أبرَّ بذلك القسم. فعندما يناديك الواجب بتلك الطريقة يكون عليك أن تحسم أمرك بأنك ستعيش مع العواقب. لكنك لا تعلم سلفاً كيف يمكن لهذه العواقب أن تكون. وهكذا، ينتهي بك الأمر فيما أنت تلقي الكثير من الأشياء على عتبة بيتك، أشياء لم تكن لا في التخطيط ولا في الحسبان. فإذا كان من المفترض بي أن

أموت هنالك وأنا أقوم بالواجب الذي أقسمتُ عليه، فإنه كان من الجدير بي أن أفعل ذلك. يمكنك تكييف الرواية بأيِّ طريقة شئت، لكن الحقيقة تبقى هي الحقيقة. لقد كان عليَّ الوفاء بعهدي، لكنني لم أفعل ذلك. إن جزءاً مني لا يزال يجادل بأنني أستطيع التعويض عمّا جرى، لكنني لا أستطيع. لم يدرْ في خلدي أن المرء يستطيع سرقة حياته الخاصة. ولم أكن أعرف أن هذه السرقة لا يمكنها أن تأتيك بما هو أفضل من أيِّ سرقة أخرى تقوم باقترافها. أعتقد أنني قد تصرفتُ بحياتي بعد ذلك على أفضل وجه أستطيعه، لكنني مع ذلك بقيتُ أسير شعوري بأنني إنما أتصرف بحياة مسروقة هي ليست لي. ولم أشعر بعد ذلك مرة أنها لي.

جلس الرجل العجوز صامتاً لبرهة طويلة. كان ينحني قليلاً وهو يطرق بنظره إلى الأرض. وبعد برهة أومأ برأسه. قال: أظن أنني أعرف الآن نهاية المطاف.

نعم سيدي.

ما الذي تظن أنه كان عليه أن يعمله؟

أعرف ما الذي كان عليه أن يفعله.

أظن أنني أنا، بنفسي، أعرف ذلك أيضاً.

كان عليه أن يبقى هنالك إلى أن تصبح جهنم جليداً، ثم أن يبقى هنالك قليلاً فوق الجليد.

ولكن أتظن أن ذلك كان سيجعل منه إنساناً أفضل منك؟

نعم سيدي، أظن ذلك.

قد يكون بوسعي أن أقول لك أشياء عنه من شأنها أن تغيّر وجهة نظرك. فإنني قد عرفته معرفة جيدة.

حسناً سيدي، أشك في أنك قادرٌ على ذلك. مع كل احترامي لك. هذا

إلى جانب أنني أشك في أنك ستفعل ذلك.

سوف لن أقول ذلك. لكنني مع هذا، قد أقول إنه قد عاش في زمنين مختلفين. فلو أن ميلاد جاك قد تأخر خمسين عاماً فلربما كانت له آراء مختلفة حول الأمور.

قد تقول هذا. لكن أحداً في هذه الغرفة لن يصدّقك.

أجل، أعتقد أن كلامك صحيح. نظر إلى بيل: وما الذي دعاك إلى القيام بمصارحتي؟

أظن أنني كنت في حاجة لإفراغ الحمل من عربتي.

لكنك انتظرتَ زمناً طويلاً كي تقوم بعمل ذلك.

نعم سيدي، ربما كنت أنا نفسي بحاجة لسماع هذا الاعتراف. فأنا لست بذلك الرجل الذي ينتمي إلى الزمن القديم الذي ينسبونني إليه. وكم كنت أتمنى لو أن هذه النسبة تنطبق علي. فأنا رجل مثل جميع رجال هذا الزمان.

أو لعلّ هذا الاعتراف هو بمثابة تدرّب على مسابقة الجري.

ربما.

أتنوي إخبارها بما جرى بيننا من حديث؟

نعم سيدي، أظنني سأخبرها به.

حسناً.

وما الذي تظن أنها ستقوله؟

حسناً، أتوقع أنك قد تخرج من الحديث بأفضل مما بدا لك أنك ستخرج به.

قال بيلّ: نعم سيدي، إني آمل ذلك بكل تاكيد.

X

قال إني كنت قاسياً على نفسي وأن هذه علامة من علامات الكبر في السن. أظن أن ثمة بعض الحقيقة في ذلك. لكن هذه ليست هي الحقيقة كلها. ولقد أيدته في ما ذهب إليه من أنه ليس هنالك الكثير من المحامد التي يمكن للمرء أن ينسبها إلى التقدم في السن. كما قال إنه يعرف شيئاً واحداً كنت أنا قد قلته، فسألته ما هو ذلك الشيء؟ فقال إن التقدّم في السن لا يستمر طويلاً. وقد انتظرته كي يبتسم بعد هذا التعليق لكنه لم يبتسم. فقلت له هذه ملاحظة فاترة جداً. فردّ بالقول إنها ليست أكثر فتوراً مما تستدعيه الحقائق. وهذا هو كل ما كان حول هذا الموضوع. كنت أعرف كلّ ما سيقوله في كل حال، بارك الله قلبه. فأنت تقوم بالاهتمام بالناس، وتحاول تخفيف الأعباء عن قلوبهم حتى عندما يعذبون أنفسهم بأنفسهم. أما الأمر الثاني الذي كان في ذهني ولم أتطرق إليه رغم أنني أعتقد أنه ذو صلة، لأنني أعرف أن كل ما تفعله في حياتك يرتدُّ عليك. فإن عشتَ طويلاً وجدته. إني لا أستطيع أن أجد سبباً في الحياة يدعوه إلى قتل تلك الفتاة. إذ ما الذي كانت قد جنته بحقه؟ والحقيقة هي أنه ما كان عليَّ أن أذهب إلى هناك من الأساس. والآن، وقد أمسكوا بذلك المكسيكي هنا في سجن هانتسفيل بسبب إقدامه على قتل ذلك الشرطي الحكومي، إذ إنه أطلق النار عليه ثم أحرقه بداخل سيارته. إنني لا أكاد أصدق أنه قد فعَلها. لكن هذا هو السبب الذي سيساق بسببه إلى عقوبة الإعدام. وهكذا، ما هي التزاماتي هنا؟ أعتقد أني قد انتظرتُ مرور كل ذلك بطريقة أو بأخرى، لكنه لم يمر. أعتقد أنني عرفتُ بذلك منذ ابتدائه. لقد كان لديّ ذلك الشعور به. أو كأنما كنت أخطط للانجرار إلى شيء تكون طريق العودة فيه طويلة جداً.

عندما سألني عن سبب ظهور هذه الأشياء الآن بعد عدة سنوات، فإنني أجبته إن هذه الأشياء إنما كانت دائماً هناك. وإنني كنت أتجاهل أمرها إلى حدٍّ كبير.

لكنه على حق، إنها قد برزت. أظن أن الناس في بعض الأحيان يفضلون الإجابة الخاطئة عن الأشياء على مجرد عدم الجواب عنها أبداً. وعندما قلت ذلك، فإن قولي قد اتخذ شكلاً لم يخطر في بالي أنه قد يتخذه بهذه الطريقة. وكان من هذه الناحية محقاً أيضاً. كان الأمر أشبه بنادرة أفضى بها إليّ لاعب كرة عندما قال إن إصابته إصابة طفيفة ذات ألم قليلٍ توفر له قدرة أفضل على اللعب بشكل عام. ذلك أنها تجعل تفكيره كله مركزاً على أمرٍ واحد بدل أن يكون مفرّقاً على مشاغل شتى. أستطيع أن أفهم ذلك. رغم أنه لا يغيّر أيّ شيء.

ولقد اعتقدتُ أنني لو عشت حياتي بأشدّ الطرق صرامة لعرفتُ عندها أنه لن تكون لدي بعد ذلك أبداً أشياء تتآكّلني بهذه الطريقة. لقد قلت إنني كنت في الحادية والعشرين من عمري وكان لي أن أتساهل مع نفسي بارتكاب غلطة واحدة، خاصة إذا كان بوسعي ان أتعلم منها وأقترب من صورة الإنسان التي أحملها في ذهني. أما الآن فإنني أهدف إلى الاعتزال. إن جزءاً كبيراً من الأسباب التي تدفعني إلى ذلك هو أنني لن أكون مساقاً لمطاردة تلك الصورة. أعتقد أنه رحل. لهذا يمكنكم القول لي بأنني لم أتغير أبداً. وليس في علمي أنني حتى سأبدي أيَّ نقاش لهذا الأمر. إن عمره ست وثلاثون سنة، وهذا أمرٌ معرفته مؤلمة.

إن السبب وراء وجود رسائل العمة كارولين إلى هارولد يعود إلى أنه قام بحفظ تلك الرسائل. لقد كانت هي التي قامت بتربيته وكانت له في مقام أمه. كانت هذه الرسائل متقصّفة الزوايا، ومهلهلة، ويعلوها الوحل، ولست أدري ماذا أيضاً. الأمر الذي تفصح عنه هذه الرسائل هي أنهم كانوا أناساً ريفيين؛ فإني لا أعتقد أنه قد غادر مقاطعة إيريون مرة، هذا فضلاً عن أن يكون قد غادر ولاية تكساس. لكن الأمر الآخر المتعلق بتلك الرسائل هو أن العالم الذي كانت ترسمه له قد تبيّن أنه لن يتحقق هنا. وهذه الحقيقة يسهل النطق بها الآن. لكن منذ ستين سنة أو حولها فإنه لم تكن لديهم أية فكرة أبداً. وقد يمكنك القول إن هذا الشيء يعجبني أو لا يعجبني، لكن ذلك لن يغير من حقيقة الأمر شيئاً. كنت قد قلت لمساعدي غير مرة إنك تصلح ما يمكن إصلاحه وتترك الباقي يذهب في سبيله. فإذا كان ليس ثمة شيء يمكن عمله من أجل المشكلة فإنه لا ينبغي اعتبارها مشكلة أبداً بل هي مجرد مضاعفات. والحقيقة هي أنني لا أمتلك فكرة عن العالم الذي يختمر هناك أكثر من الفكرة التي كان يملكها هارولد.

بالطبع، وحسبما انتهت إليه الأمور، فإنه لم يعد إلى بيته أبداً. إنه لا

يوجد في الرسائل كلها ما يشير إلى أنها قد حسبت لمثل ذلك الاحتمال أي حساب.

حسناً، إنك تعلم أنها فعلت ذلك، إلا أنها لم تشأ أن تقول عن هذا الاحتمال كلمة واحدة.

بالطبع، فإنني ما زلت حائزاً على الوسام. لقد جاءني في علبة بنفسجية فاخرة، وكان مربوطاً بشريطٍ حريري وكل ما يلزم. لقد كنت أحفظ العلبة في مكتبي لمدة طويلة. ثم جاء يوم رأيتني أنزعها من مكانها وأدسها في دُرج طاولة غرفة الجلوس حيث لا يقع نظري عليها. ومع أنني لم أعد أتفقدها إلا أنني أعلم أنها كانت هناك. لكن هارولد لم يحصل على أي وسام. كل ما في الأمر أنه عاد إلى بيته في صندوق خشبي. ولا أعتقد أنه كان لديهم نظام أمهات الشهداء (Gold Star Mothers) إبان الحرب العالمية الأولى، لكنهم لو كانوا يملكون ذلك النظام آنذاك، فإن العمة كارولين لم تكن لتحصل على وسام من تلك الأوسمة أيضاً، حيث إن هارولد لم يكن ولدها البيولوجي. كما أنها لم تستطع الحصول على معاشه الحربي التقاعدي أيضاً.

* * *

وهكذا فإنني عدت إلى ذلك المكان مرة جديدة. لقد مشيتُ على تلك الأرض فوجدتُ أن ثمة علامات قليلة على حصول أي شيء هنالك. قمت بالتقاط ظرف قذيفة أو ظرفين. وكان هذا هو كل شيء. وقفت هنالك لمدة طويلة وتفكرت بالأشياء طويلاً. وكان ذاك اليوم أحد الأيام الدافئة التي تمر في فصل الشتاء أحياناً. فالريح معتدلة. وما زلت أفكر أن هذا ربما من خصائص المنطقة. شيء يشبه ما قاله إيلّيس مرة. فكرت هناك بعائلتي. كما فكّرت به وهو جالس في كرسيه المتحرك في البيت القديم، وقد بان لي أن هذه البلاد لها نوع من التاريخ غريب، كما أنه تاريخ دموي أيضاً. فحيثما وجّهت طرْفي أستطيع أن أنتحي إلى الوراء وأبتسم ساخراً من تلك الأفكار. لكنها تبقى تلازمني. إنها كانت ستكون في الثلاثين من عمرها الآن. وهذا حديث لا نقيصة فيه. ولست أبالي كيف يبدو للآخرين. فإنني أحبُّ الحديث معها. تسمونه ضربٌ من الخرافة أو ما شئتم من التسميات. وأعلم أنني عبر السنين كنت قد أعطيتها القلب الذي كنت أريده دائماً لنفسي. وهذا كله لا بأس به. ولهذا فإنني

أصغي إلى ابنتي وأعلم أنني سأحصل دائماً على أفضل الحديث منها. حديث لا يختلط مع جهالتي ولا مع خِسَّتي. وإني أعلم كيف يبدو هذا الكلام، وأعتقد أن عليَّ أن أقول بأنني لا أبالي. إنني حتى لم أخبر به زوجتي رغم أننا لا نخفي الكثير من الأسرار، أحدنا عن الآخر. ولا أعتقد أنها ستتهمني بالجنون، لكن البعض قد يتهمني بذلك. إذّ توم؟ أجل عليهم أن يقسموا لاستصدار برهان على جنوني. وإني لأسمع أنهم يُطعمون المجنون بدسّ الطعام له من تحت الباب. وهذا لا يضيرني. فأنا أستمع لما تقوله لي ابنتي، وأرى أن ما تقوله لي لائق بالعقل، وأتمنى لو أنها تقول لي المزيد مما تقوله. وإنني أستطيع استعمال كل المساعدة التي يمكنني الحصول عليها. حسناً، يكفينا هذا القدر من الكلام عن هذا الأمر.

عندما دلف إلى داخل البيت كان جرس الهاتف يرن. اتخذ طريقه إلى صوان السفرة والتقط السماعة. قال: العمدة بيلّ.

أيها العمدة، هنا المفتش كوك من قسم البوليس في أوديسّا.

نعم سيدي.

لدينا تقرير هنا يتضمّن اسمك، وهو يتعلق بامرأة تدعى كارلا جين موسّ كانت قد قتلت هنا في شهر آذار مارس.

نعم سيدي، إني مقدِّر لك اتصالك.

لقد تمّ العثور على السلاح الذي استُعمل في تنفيذ الجريمة بواسطة قاعدة البيانات في قسم المقذوفات في مكتب التحقيقات الفيدرالي، وقد تمكنوا من تتبُّع السلاح إلى ولد هنا في ميدلاند. يقول هذا الولد إنه كان قد حصل على المسدس من داخل شاحنة كانت قد تعرضت لحادث سير، وفي موقع الحادث بالذات وجد المسدس واستولى عليه. إنني أتوقع أن تكون إفادة هذا الولد صحيحة، إذ إنني كنت قد تحدثت إليه. ولقد قام هو ببيع المسدس المذكور حتى انتهى به المطاف في مخزن للاتجار بالسلع الرخيصة المسروقة في شريفبورت في لويزيانا. وقد جرى حادث السير الذي استخلص منه المسدس المذكور في اليوم نفسه الذي وقع فيه حادث القتل. فالرجل الذي كان يملك المسدس تخلى عنه في الشاحنة واختفى ولم يسمع عنه شيء منذ حينه. وعليه، يمكنك أن ترى إلى أين يقودنا كل ذلك. إننا لا نملك الكثير من جرائم القتل التي لا تزال غامضة هنا، وإننا متأكدون جداً من عدم رغبتنا في بقاء الغموض يلفّ أيّاً من مثل تلك الجرائم. والآن، هل لي أن أسألك عن سبب اهتمامك بهذه القضية أيها العمدة؟

سرد بيل أسباب اهتمامه، وأصغى كوك إليها. ثم ما لبث أن أعطاه رقماً هاتفياً. وكان الرقم الهاتفي يعود إلى المحقق الذي أجرى التحقيق في الحادث، واسمه روجيه كاترون: دعني أكلمه أنا أولاً وسأجعله يقوم بالاتصال بك.

قال بيلّ: هذا أمر لا بأس به، إنه سيكون مسروراً للاتصال بي. فلقد عرفته منذ سنين.

قام بالاتصال على الرقم المذكور فردّ عليه كاترون.

كيف حالك يا إدّ توم؟

إنني لست في موقع يسمح لي بالمفاخرة.

وما الذي أستطيع أن أعمله لمساعدتك؟

أخبره بيلّ عن المشكلة الحاصلة. قال كاترون: نعم سيدي، إنني أتذكر الحادثة بكل تأكيد. لقد قتل فيها شابان، وإلى الآن لم نعثر على سائق العربة الأخرى.

وما الذي حصل؟

كان الأولاد يقومون بتدخين المخدرات. وقد اجتازوا إشارة سير ضوئية حمراء فاصطدمت عربتهم بعربة جديدة تماماً هي عبارة عن شاحنة بيك أب من طراز دودج العريض. وأدى الحادث إلى تدمير الشاحنة خارجاً عن أي إمكانية إصلاح. وقد خرج سائق الشاحنة من عربته واكتفى بالاختفاء من ذلك الشارع قبل وصولنا إلى المكان. ولقد تبين أن الشاحنة كان قد تم شراؤها بصورة غير قانونية من المكسيك. وهي لا تحمل رخصة سير ولا شهادة تسجيل.

وماذا عن العربة الأخرى؟

كان في العربة الأخرى ثلاثة شبان تتراوح أعمارهم بين التاسعة

عشرة والعشرين، وكلهم مكسيكيون. والشاب الوحيد الذي بقي على قيد الحياة بينهم كان يجلس في المقعد الخلفي. ويبدو أنهم كانوا يتداولون تدخين سيجارة من المخدر، وقد صادفت طريقهم هذه الإشارة الضوئية عند التقاطع، وكانوا يسيرون بسرعة ربما بلغت الستين ميلاً في الساعة فتصادمت مقدمة سيارتهم مع بطن سيارة الرجل الذي يقود الشاحنة. وقد طار الراكب الذي كان بجانب سائق السيارة من خلال زجاجها الأمامي يتقدمه رأسه، حيث تخطى الشارع وسقط على شرفة امرأة. وكانت الأخيرة في جوار منزلها تقوم بوضع بعض الرسائل في علبة البريد فلم يخطئها سوى بمسافة قليلة. وقد جلست هي بثياب البيت الخفيفة وأسطوانات تجعيد الشعر مولولة. إنني لا أظن أن هذه المرأة قد عادت إلى صوابها حتى الآن.

وماذا فعلتم بالصبي الذي أقدم على الاستيلاء على المسدس؟

لقد أطلقنا سراحه.

إذا قمت أنا بالذهاب إلى هناك، أتعتقدون أنه سيتيسر لي الكلام معه؟

أودّ أن أقول إنك تستطيع ذلك. وإنني أنظر إلى صورته في الشاشة الآن.

ما اسمه؟

ديفيد دي ماركو.

هل هو مكسيكي؟

كلا، الأولاد الذين كانوا في السيارة كانوا مكسيكيين. أما هو، فلا.

هل سيرغب في التحدث معي؟

إنها إحدى الطرق للبحث عن الحقيقة.

سوف أكون عندكم غداً صباحاً.

أتطلع إلى اللقاء بك.

قام كاترون بالاتصال بالصبي وتكلم معه، وعندما جاء الصبي إلى المقهى لم يكن يبدو عليه القلق من أي شيء. اتخذ مكانه في الركن حول المائدة، ووضع قدماً فوق أخرى، وزمّ شفتيه إلى أسنانه، ونظر إلى بيلّ.

أتريد بعض القهوة؟

أجل، أريد بعض القهوة.

رفع بيلّ إصبعه، فأتت إليه النادلة وأخذت طلبيته. نظر إلى الولد.

إن ما أريد التحدث عنه معك هو الرجل الذي اختفى من موقع الحادث ذاك. إنني أتساءل عما إذا كان هناك ما يحضر في ذاكرتك عنه. أيّ شيء يمكن لك أن تتذكره.

هزّ الولد برأسه. قال: الآن! وهنا بدأ يتلفّت حوله في القاعة.

ما هو مبلغ سوء الإصابة التي لحقت به؟

لست أدري. بدا أن ذراعه قد كُسرت.

وماذا أيضاً؟

أصيب بجرح في جبهته. ولا أستطيع تقدير مدى خطورة إصابته. لكنه كان قادراً على المشي.

راقبه بيلّ: وكم تقدّر عمره؟

تباً أيها العمدة. لست أدري. لقد كان وجهه مغطى بالدماء كلياً.

في إفادتك في التقرير، كنت قد ذكرت أنه في أواخر الثلاثينيات من عمره.

صحيح، إنه في عمر يقارب ذلك.

بصحبة من كنت؟

ماذا؟

أقول مع من كنت؟

لم أكن بصحبة أحد.

إن الجار الذي كان هناك، ذكر في إفادته في التقرير أنكما كنتما اثنين.

حسناً، إنه كاذب.

ماذا؟ لقد تحدثت معه في هذا الصباح وتبيّن لي أنه يتحدث بلهجة صادقة.

أحضرتِ النادلةُ القهوة. ملأ دي ماركو ربع فنجانه سكَّراً وجلس يتشاغل في تحريكه.

إنك تعرف أن هذا الرجل كان قد قتل لتوّه امرأة تقيم على مسافة قريبة من مكان حادث الاصطدام.

صحيح، لكنني لم أكن أعرف ذلك في ذلك الوقت.

أتدري كم هو عدد الناس الذين قتلهم هذا الرجل؟

بل إنني لا أعرف عنه شيئاً.

كم يبلغ طوله حسب تقديرك؟

ليس طويلاً جداً. إنه متوسط الطول نوعاً ما.

هل كان يرتدي حذاءً ذا ساقٍ عالية؟

أجل أظن أنه كان يرتدي حذاءً ذا ساقٍ عالية.

ما هو نوعه؟

أظن أنه من جلد النعام.

الغالي الثمن؟

نعم.

كم كان نزفه رديئاً؟

لست أدري. لكنه كان ينزف. كان لديه جرح في جبهته.

وما الذي قاله؟

لم يقل أيّ شيء.

وأنت، ماذا قلت له؟

لا شيء، سألته فقط عمّا إذا كان بخير.

أتظن أنه قد مات؟

ليس لديّ فكرة.

تراجع بيل في مقعده. أدار مملحة المائدة نصف دورة على ظهر المائدة، ثم أعادها إلى مكانها من جديد.

قل لي مع من كنت هناك.

لم أكن مع أحد.

ألقى عليه بيل نظرة فاحصة. امتصَّ الولد أسنانه. التقط فنجان قهوته وارتشف منه رشفة ثم أنزله ثانية.

إنك لا تنوي التعاون معي، أليس كذلك؟

لقد قلتُ لك كلّ ما لدي. وأنت قد اطّلعت على إفادتي في التقرير، وليس لدي ما أضيفه لك.

جلس بيلّ يراقبه. ثم إنه نهض واعتمر قبعته وانصرف.

وفي الصباح، ذهب إلى المدرسة الثانوية وحصل من هناك على بعض الأسماء من معلم دي ماركو. وكان أول الذين تكلم معهم شديد الحرص على معرفة كيفية اهتداء بيل إليه. كان ولداً ضخماً وقد جلس وهو يطوي ذراعيه ويتأمل حذاءه التنسي الذي يبلغ قياسه حوالي الرابعة عشرة، وكان ثمة رسوم وكتابات كتبت على فردتي الحذاء لناحية الإبهام بالحبر البنفسجي.

هنالك شيء ما، يحاول كلاكما أن يحجبه عني.

هزّ الولد رأسه.

هل قام الرجل بتهديدكما؟

كلا.

وكيف كان يبدو شكله؟ أكان شكله مكسيكياً؟

لا أظن ذلك. لقد كان ذا بشرة سمراء داكنة، وما إلى ذلك.

هل شعرتما بالخوف منه؟

لم أكن خائفاً إلى أن برز لنا. تباً أيها العمدة، لقد عرفتُ أن علينا ألا نمسّ ذلك المسدس اللعين. لقد كان ما قمنا به عملاً جاهلاً أخرق. إنني لن أجلس هنا لأقول إن الفكرة كانت فكرة ديفيد رغم أن الحقيقة هي كذلك. فإنني كبير بما فيه الكفاية حتى أقوم برفض فكرته.

أجل إنك كذلك.

لقد كان الموقف بكامله شاذاً وغريباً ومخيفاً. فالولدان ميّتان في السيارة. أآنا تحت مسؤولية جنائية بسبب ذلك؟

وماذا قال لكما أيضاً؟

نظر الولد حوله في قاعة الطعام. بدا كما لو أن الدمع يكاد يطفر من عينيه.

لو كان لي أن أفعل هذا الأمر مرة ثانية لقمتُ به بطريقة مختلفة. إنني أعرف الآن ذلك.

ماذا قال لكما؟

لقد قال إننا يجب أن نعتبر أننا لا نعرف كيف بدا شكله. ولقد أعطى ديفيد ورقة من فئة المئة دولار.

مئة دولار؟

صحيح. كان ديفيد قد أعطاه قميصه من أجل أن يصنع منه علّاقة لذراعه المكسور.

أومأ بيل برأسه: حسناً. كيف كان يبدو شكله؟

كان متوسط الطول. متوسط البدانة. ويبدو في لياقة بدنية جيدة. ربما يكون في منتصف الثلاثينيات من عمره. غامق الشعر. كثيف الحاجبين. حسبما أظن. لست أدري أيها العمدة، إنه ليبدو لي أشبه بأي شخص آخر.

أشبه بأي شخص آخر؟

نظر الصبي إلى حذائه. ثم رفع نظره نحو بيلّ. إنه لا يشبه أيّ شخص آخر. لكنني عنيت أنه لم تكن له أية ملامح غير اعتيادية. لكنه لا يبدو مثل أي شخص آخر قد تحدِّثك نفسك بأن تخاشِنَه. فإذا قال لك شيئاً فإنك تجد أنه لا بدّ لك من الإصغاء. لقد كان ثمة عظمة في ذراعه ناتئة من تحت جلده، ولم يكن يبدو عليه الاكتراث لها أكثر من أي شيء آخر.

حسناً.

هل أواجه متاعب مع القانون بسبب ذلك؟

كلا.

إنني شاكر لك من أجل ذلك.

إنك لم تعرف إلى أين ستأخذك الأشياء، أكنت تدري؟

كلا يا سيدي. لم أكن أدري. لكنني أعتقد أنني قد تعلمت درساً من الذي حصل. إذا كان ذلك يفيدك بشيء.

نعم يفيدني. أتظن أن دي ماركو قد تعلّم شيئاً؟

هز الولد برأسه. قال: لست أدري، إنني لا أستطيع الكلام نيابة عن ديفيد.

XI

طلبتُ من سكرتيرتي مولي القيام بتتبع مكان وجود والديه، وقد تمكنّا في نهاية الأمر من العثور على والده في سان سابا. كنتُ قد غادرتُ للذهاب إلى هناك عشية يوم جمعة، وإني لأتذكر كيف كنت أفتكر بيني وبين نفسي عندما غادرتُ أن هذا الأمر الذي كنت أعتزم عمله هو عمل آخر أخرق. لكنني مضيت فيه رغم ذلك. كنت قد تكلمت معه على الهاتف. لم يبدُ كأنه شديد الشوق لحضوري. لكنه قال لي بأن آتي، فوجدتني أذهب إليه. نزلتُ في فندقٍ هناك عند وصولي. وقمت بقيادة سيارتي إلى منزله في صباح اليوم التالي.

كانت زوجته قد توفيت منذ بضع سنوات. وكان يجلس على شرفته ويحتسي الشاي المثلج. أظن أنه كان يمكننا الجلوس صامتين هناك إلى ما لا نهاية ما لم أبادر أنا إلى قول شيء ما. كان يبدو عليه أنه يكبرني قليلاً. ربما بعشر سنوات. قلت له ما كنت قد جئت لأقوله حول ابنه وشرحتُ له الحقائق. اكتفى هو بالجلوس هناك والإيماء برأسه. كان يجلس في أرجوحة يهزها إلى الأمام وإلى الخلف قليلاً، ويمسك بكوب شايه المثلج في حضنه. لم أدرِ ما يمكنني إضافته من قول، لذلك فإنني اكتفيت بالجلوس، وجلس كلانا لبعض الوقت على هذه الحال. ثم إنه ما لبث أن قال دون أن ينظر إليّ، بل اكتفى بالنظر إلى الباحة: لقد كان أفضل قناص رأيته في حياتي دون استثناء. ولم أدرِ ما عليّ أن أقول له. فقلت: نعم يا سيدي.

لقد كان أحد الرجال القناصة في فيتنام، أتدري؟

قلت: إنني لم أكن أعرف ذلك.

ولم يتعاط مرة بأمور المخدرات.

كلا، يا سيدي. لم تكن له سوابق من هذا النوع.

أومأ برأسه: ذلك لأنه لم يربَّ على تلك الطريقة.

نعم سيدي.

هل كنت أنت في الحرب؟

نعم سيدي، لقد كنت في المسرح الأوروبي للحرب.

أومأ برأسه: عندما عاد للوين إلى الوطن، فإنه ذهب لزيارة العديد من عائلات رفاقه الذين لم يعودوا إلى ديارهم أحياء. لكنه ما لبث أن تخلّى عن ذلك. فهو لم يكن يدري ما الذي يمكنه أن يقوله لهم. لقد قال إنه كان يستطيع أن يقرأ من نظرات عيونهم بينما هم يجلسون محدّقين إليه بأنهم إنما كانوا يتمنون لو أنه كان هو الذي لقي مصير أحبائهم بدلاً عنهم، أتفهم ما أعنيه؟

نعم سيدي، أستطيع أن أفهم ذلك.

كذلك أنا، لكن إلى جانب ذلك، فإنهم جميعاً قد فعلوا الكثير من الأشياء هناك منذ أن وصلوا. ونحن لم تحصل معنا أمور مثلها أثناء الحرب، أو أن أشياء قليلة منها فقط هي التي قد حصلت معنا. لقد قام بصفع الوسخ عن وجه واحدٍ أو اثنين من الشباب الهبيين الذين بصقوا عليه ونادوه بالقول إنه قاتل الأطفال الأبرياء. وهنالك الكثير من الأبناء الذين عادوا إلى الوطن من حرب فيتنام ممن لا يزالون يعانون من مثل هذه المشاكل. أظن أن هذا ما حصل ويحصل لهم لأنهم لا يجدون أن بلادهم تقف وراءهم. لكنني أعتقد أن الأمر يمكن أن يكون حتى أسوأ من ذلك. فالوطن الذي كانوا يحاربون باسمه كان منقسماً على نفسه أشلاء. وإنه لا يزال كذلك. ولم يكن الذنب ذنب الهبيين، ولا كان الذنب أيضاً ذنب الشباب الذين دُفع بهم إلى هناك، وجُلّهم في الثامنة عشرة والتاسعة عشرة من العمر.

استدار ونظر إليّ. وعند ذلك خُيل لي أنه أكبر عمراً مما ظننتُ من قبل، بكثير. لقد بدت عيناه عتيقتين. قال لي: قد يقول لك بعض الناس إن حرب فيتنام هي التي جعلت أميركا تركع على ركبتيها. لكنني لم أصدّق مثل هذا الكلام مرة. لقد كانت بلادنا من قبل ذلك في وضع تعيس. ولم تكن حرب فيتنام سوى طبقة السكر التي تزين باطن الكعكة. إذ لم يكن لدينا شيء نعطيه لأبنائنا كي يحملوه معهم إلى هناك، ولو كنا قد أرسلناهم إلى هناك حتى بدون بنادق، فإنهم ما كانوا ليفعلوا في فيتنام سوى أسوأ مما فعلوا وهم مسلحون. لا يمكنك الذهاب إلى حرب وأنت على هذه

الحال. ولا يمكنك الذهاب إلى حرب بدون الله. إنني لا أدري ماذا سيحصل لنا عندما تجدنا نخوض حرباً قادمة. إنني بكل تأكيد لا أدري.

كان ذلك هو كل ما قيل بيننا. شكرته من أجل وقته الذي أعطاني إياه. وكان اليوم التالي هو اليوم الأخير المقرر لي في وظيفتي. كان لدي كمٌّ كبير من الأشياء التي علي أن أفكّر فيها. قمت بقيادة السيارة راجعاً إلى المخرج آي عشرة مستخدماً الطرق الفرعية. ثم تابعت القيادة إلى شيروكي، وأخذتُ الطريق السريع رقم 501. لقد حاولتُ أن أضع الأشياء في منظورها الصحيح، لكنك في بعض الأحيان تجد نفسك شديد اللصوق بالأشياء. إن دأبك في الحياة هو أن ترى نفسك كما هي حقاً، ومع كل ذلك فإنك قد تجد نفسك مخطئاً. إني لا أرغب بأن أكون مخطئاً بشأن هذا الشيء. لقد فكرتُ في السبب الذي جعلني أرغب في أن أكون موظفاً عاملاً على تطبيق القانون. كان جزء مني على الدوام ينزع إلى تولي الأمور وإلى إدارتها، جزء شديد الإصرار على هذا الدور. جزء يريد من الناس أن ينصتوا إلى ما أقول. ولكن كان ثمة جزء آخر مني أيضاً ينزع إلى جرِّ كلِّ من هو في القارب إلى الوراء. وإذا كنتُ قد حاولت تهذيب أيِّ شيء فإنما هو ذلك الجزء. إني أعتقد أننا جميعاً سيئوا الاستعداد لما سيأتي إلينا، ولست أبالي بالشكل الذي يتخذه ذلك التحدي الآتي إلينا. وكلُّ ما سيأتي من سواه إلينا، فإني أظن أنه سيكون له مفعول قليل لمؤازرتنا. إن هؤلاء الناس الذين أقوم بالتحدث إليهم، هل تراهم يصدقونني لو أني قلت لهم إنه سيكون ثمة أناس في شوارع بلداتنا في تكساس ممن لهم شعورٌ خضراء، وعظام مغروسة في أنوفهم، وهم يتكلمون لغةً لا يستطيعون حتى هم أن يفهموها؟ ولكن كيف ستكون ردّة فعلهم لو أنني أخبرتهم أن هؤلاء الأناس الذين عنيتهم لن يكونوا سوى أحفادهم هم بالذات؟ حسناً، كل هذه الإشارات والعجائب لا تعطيك دليلاً واحداً على كيفية وصول هذه الأشياء إلى ما وصلت إليه، كما أنها لا تعطيك دليلاً واحداً على الطريقة التي تعدُّ بها هذه الأشياء نفسها كي تكون وكي تتطور أيضاً. بالنسبة إلى بعض هذه الأشياء فإنك كنت تجدني دائماً أظن أنني أستطيع على الأقل أن أقوم بتصوييبها، لكنني صرت أظن الآن أنني ما عدت قادراً على المزيد من الشعور والتفكير بهذه الطريقة، ولا أعرف الآن حقيقة شعوري. إذ إني الآن أشعر شعور الأناس الكبار الذين كنت أشير إليهم. الأمر الذي لن يتقدم نحو الأفضل أيضاً. كما أنك تجدني أشعر بأنه يُطلب مني الوقوف لنصرة شيء لم يعد لديَّ

الإيمان السابق الذي كان لي به. كما أنه قد يطلب مني الإيمان بشيء لم يعد يتفق مع الطريقة التي كنت يوماً أؤمن بها. هذه هي المشكلة التي كنتُ قد فشلتُ في مواجهتها حينما جرّبتُ ذلك. وها أنذا الآن أراها تحت نور ساطع. ولأنني رأيت عدداً من المؤمنين يتساقطون، فإنني وجدت نفسي مجبراً على إعادة النظر في ذلك الإيمان وعلى ضرورة الانتباه لنفسي. أيكون ذلك للأفضل أم للأسوأ؟ لست أدري. كما أنني لا أدري حتى ما الذي أستطيع أن أنصحكَ بالاحتفاظ به بالتعاون معي، ولم تكن لي قطٌّ هذه الأنواع من الشكوك من قبل. وإذا كنتُ أنا قد صرتُ أكثر حكمة وتبصراً في شؤون هذه الدنيا، فإن ذلك لم يأتِ إلا بعد ثمن. وإنه لثمنٌ عزيز أيضاً. عندما قلتُ لها إنني عازف عن المتابعة، فإنها لم تأخذ كلامي في بداية الأمر مأخذ الجدّ، أو هي لم تصدّق أني أعني ما أقول بالحرف الواحد، لكنني أوضحت لها أنني أعني ما أقول. لقد قلتُ لها إنني آمل أن يكون مواطنو هذه المقاطعة أعقلَ حتى من أن يصوّتوا لي. كما قلت لها إنني لا أستحلُّ نقودهم التي يدفعونها راتباً لي. فأجابتني أنني على الأرجح لا أعني ذلك حقاً. لكنني أجبتها بل إنني أعني كلَّ كلمة. وها نحن مدينون بستة آلاف دولار بعد الخروج من هذه الوظيفة. ولست أدري ما سأفعل بخصوص هذه المسألة أيضاً. وقد جلسنا هنالك معاً لبعض الوقت. ولم يخطر ببالي أن الأمر سيحزنها بالطريقة التي جرت. أخيراً قلت لها: لوريتّا، إنني لم أعد قادراً على فعل ذلك أبداً. ابتسمت لي، وقالت: أتنوي التنحّي فيما أنت في أوج العطاء؟ لكنني قلت لها: لا يا عزيزتي، بل إنني أهدف إلى الاعتزال، وإلى الاعتزال فقط. إنني لستُ في الأوج في أي شيء من أمري، ولن أكون أبداً كذلك.

أمرٌ آخر سأقوله لكم قبل أن أغلق فمي. وإني ما كنت لأقول ذلك لو لم يكونوا قد سبقوني إلى نشره في الجرائد. لقد ذهبتُ إلى أوزونا وتكلمتُ مع المدّعي العام فيها، وقد قالوا لي هناك إنه يمكنني أن أتحدث مع محامي ذلك المكسيكي إذا شئت ذلك، أو ربما القيام بالإدلاء بشهادتي في المحاكمة، لكن هذا هو كل ما سيفعلونه، وهم يعنون بذلك أنهم لن يكتفوا بعملٍ لا شيء. وهكذا، فإنني وجدتُ نفسي أعود إلى الدوّامة وأفعل الأمر الذي لم ينتهِ بالطبع إلى لا شيء. إذ حُكِم على الرجل بعقوبة الإعدام. وهكذا، فإنني ذهبتُ إلى سجن هانتسفيل لزيارته، وإليكم ما حدث. مشيت إليه وجلستُ حياله، وبالطبع فإنه عرف من أنا ومن أكون. لأنه كان قد رآني أثناء المحاكمة. قال لي: ما الذي جلبته لي معك؟ قلت له إنني لم أجلب له معي أيّ

شيء. وعندها قال لي إنه ظن أنني لا بد من أن أكون قد أحضرت له معي شيئاً ما. نوعاً من الحلوى أو ما شابه ذلك. لقد قال إنه تصوّر أنني لطيف معه. وعندما تطلعتُ إلى الحارس فإن الحارس أشاح بنظره. نظرت إلى ذلك الرجل؛ وهو مكسيكي يتراوح عمره بين الخامسة والثلاثين والأربعين، وهو يتكلم لغة إنكليزية جيدة. قلتُ له إنني لم آتِ إلى زيارته كي أعرّض نفسي لإهاناته، لكنني قد جئتُ إليه فقط لأنني أردته أن يعرف أنني قد فعلت ما بوسعي أن أفعله من أجله، وبأنني آسف لأنني لا أعتقد أنه هو الذي فعلها، لكنه اكتفى بالتراجع إلى الوراء متضاحكاً وقال: كيف تراهم قد استطاعوا العثور على رجل مثلك؟ هل بدؤوا يستعملون لك الحفّاضات أم بعد؟ اعلم أنني قد اطلقتُ النار على ابن الزانية ذاك بين عينيه. ثم قمتُ بجرِّه من جديد إلى سيارته من شعر رأسه، ثم أشعلتُ النار في السيارة حتى حولته إلى شحمٍ سائل.

حسناً، إن مثل هؤلاء الناس يستطيعون قراءتك جيداً. ولو أنني قمتُ بصفعه على فمه لما فاه ذاك الحارس بأيّ كلمة. وكان هو يعرف ذلك. كان يعرف ذلك.

لقد رأيت هناك المدعي العام لتلك المقاطعة آتياً، وكنت لا أعرفه إلا لماماً بحيث لم يكن يتوجب علي الوقوف للتحدث معه. لكننا توقفنا. وهذا أدّى إلى قيامي بزيارته زيارة سريعة. لم أخبره بكلمة عمّا حصل معي، وكان هو يعرف محاولاتي السابقة لمساعدة الرجل، وربما أنه كان قادراً على جمع اثنين مع اثنين. لست أدري. ولم يوجّه إليّ سؤالاً واحداً عنه. كما لم يسألني ما الذي جاء بي إلى ذلك المكان، ولا أيَّ شيء من ذلك. هنالك نوعان من الناس الذين لا يطرحون الكثير من الأسئلة. نوع شديد الغباء بحيث لا يمكنه ذلك، ونوع في غنى عن السؤال. وإني أترك لك أيها القارئ أمر تحديد الفئة التي تضع فيها هذا النائب العام في حالتي هذه. لقد اعتاد هذا الرجل أن يكتفي بالوقوف هناك في القاعة وهو يحمل حقيبة ملفاته كما لو أنه واقف هنالك على جاري عادته في أي ساعة من ساعات هذه الدنيا. وقد أخبرني أنه عندما تخرّج من كلية الحقوق، فإنه بدأ حياته المهنية كمحامٍ لمدة من الزمن. وقال إن هذا جعل حياته شديدة التعقيد. وهو لم يُرد أن يصرف بقية عمره وهو يستمع إلى الأكاذيب على قاعدة يومية. قلت له إن محامياً كان قد أخبرني أن الأساتذة في كلية الحقوق يحاولون تعليمك أنه ليس عليك أن تقلق بشأن الصواب والخطأ، بل عليك اتِّباع ما يقوله القانون، وقد أردفتُ بالقول له إنني لست متأكداً من صواب هذه

القاعدة. فكَّر قليلاً في الأمر، ثم أومأ برأسه استحساناً وقال: إنه لا يسعه سوى الموافقة مع ذاك المحامي إلى حد كبير. ثم قال إنك إذا خالفت القانون سواء بحق أم بغير حق، فإن القانون لا يوفرك ولن يرحمك. الأمر الذي أستطيع أن أرى بعض المنطق فيه. لكن ذلك لا يغيّر الطريقة التي أفكر بها. أخيراً سألته عمّا إذا كان يعرف من يكون مامون. قال لي: مامون؟

قلت له: نعم مامون.

أتعني مثل قولنا: الرب ومامون؟

نعم سيدي.

قال : حسناً، لا أستطيع الادعاء أنني أعرف. رغم علمي بأن هذا الاسم وارد في الإنجيل. أيكون مامون هو الشيطان؟

لست أدري، وعليّ التنقيب عن هذه المسألة كي أعرف من هو.

ابتسم تلطُّفاً وقال: يبدو من كلامك كأنه سيزورك ليحلّ عليك ضيفاً في غرفة النوم الإضافية.

قلت له: حسناً، هذا سيكون واحداً فقط من همومي. وفي كل حال سأشعر أنني أحتاج إلى تعويد نفسي على عاداته.

أومأ موافقاً في شبه ابتسامة ثم طرح عليّ سؤالاً فقال: هذا الرجل الغامض الذي تعتقد أنت أنه هو المسؤول عن قتل شرطي الدورية ذاك وعن إحراقه في سيارته، ما الذي تعرفه عنه؟

لست أعرف عنه شيئاً. أتمنى لو كنت أعرف. أو إنني أعتقد أنني أتمنى.

صحيح.

إنّ به شبهاً كبيراً بالشبح.

هل هو يشبه الشبح أم أنه شبح؟.

كلا، إنه هناك في الخارج. وقد كنت أتمنى لو أنه لم يكن. لكنه هو.

أومأ موافقاً: أظن أنه لو كان شبحاً لما كان عليك أن تقلق بشأنه.

قلت: إنه على حق. لكنني فكرت في تلك المسألة منذ حينه، وأعتقد أن الإجابة عن سؤاله هي أنك عندما تصادف أشياء معينة في الحياة، أو عندما تصادف الدليل على أشياء معينة، فإنك تدرك أنك قد وقعت على أمر قد لا تكون كُفْئاً له، ويبدو أن ذلك قد تحقق معي في هذه الحالة التي هي واحدة من الأشياء المشار إليها. وعندما تقول لي إن ذلك حقيقي وليس مجرد تصوّرٍ في رأسك، فإنني لا أكون شديد اليقين مما تقوله لي.

لقد قالت لوريتا شيئاً واحداً. قالت شيئاً مفاده أن الخطأ لم يكن خطئي، لكنني قلت بل إنه كذلك. وقد فكرت في ذلك القول أيضاً. قلت لها إنك لو كان لديك كلبٌ شرسٌ بما فيه الكفاية في باحة منزلك، فإن ذلك كفيلٌ بإبعاد الناس عنه. وإنهم لم يبتعدوا.

عندما وصل إلى بيته لم يجدها رغم أن سيارتها موجودة. مشى إلى الإصطبل فلم يجد حصانها. شرع في العودة إلى المنزل، لكنه ما لبث أن توقف وقد انتابته خشيةٌ من أن يكون مكروهٌ قد ألَمَّ بها. فما كان منه إلا أن عاد إلى المربط وحمل السَّرْج إلى مكان الركوب واستدعى حصانه بالصفير له. راقبه وهو يأتي إليه رافعاً رأسه فوق باب الإصطبل شابكاً أذنيه كشفرتي مقصّ.

ركب حصانه ممسكاً بالأعنّة في يدٍ ومدغدغاً رقبة الحصان باليد الأخرى. تحدث إلى حصانه على الطريق سائلاً إياه: أليس الخروج إلى الطبيعة أمراً جميلاً؟ هل لديك معرفة إلى أين ذهبا؟ حسناً، لا تهتم كثيراً لذلك. لا بدّ لنا من العثور عليهما.

بعد أربعين دقيقة رآها، فأوقف حصانه مراقباً. كانت تركب حصانها على ظهر سنام مرتفع من التراب الأحمر، المتّجه نحو الجنوب فيما هي تجلس شابكة يديها فوق قربوس السرج ناظرة نحو قرص الشمس الذي يهمُّ بالزوال، وكان حصانها يكدح في بطءٍ على التربة الرملية الرخوة جارّاً خلفه سحابة حمراء من الغبار في الهواء الساكن. قال لحصانه: هذه هي حبي هناك، ولطالما كانت دائماً حبي الوحيد.

توجها معاً على حصانيهما نحو بئر وارنر حيث ترجّلا وجلسا تحت غابة الحوْر القطني بينما أخذ الحصانان برعي ما تيسّر لهما من الكلأ. وكانت الحمائم تعود لتأوي في أوكانها. قال: لقد صرنا في نهاية السنة، ولن نرى هذه الحمائم بعد الآن لمدة طويلة.

ابتسمت له: تقول إننا صرنا في نهاية السنة؟

إنكِ لتكرهين ذلك؟

تعني مغادرتنا لهذا المكان؟

أجل، مغادرتنا لهذا المكان.

لكنني سأشعر دائماً أنني بخير.

رغم أن ذلك بسببي ولمسايرتي؟

ابتسمت له. قالت: حسناً، بعد تجاوز عمرٍ معين لا أظن أن هناك شيئاً يمكن أن نسميه بحسنة التغيير.

أظن أننا في مأزق إذاً.

ستكون حالنا بخير. وأظن أنني سأكون سعيدة بوجودك معي دائماً على مائدة العشاء.

إنني أعشق وجودي معكِ في البيت في كل وقتٍ وأوان.

وأنا أتذكر قول أمي لأبي عندما أحيل على التقاعد: لقد أقسمتُ أمام الكاهن على البقاء معك في السرّاء والضراء، لكنني لم أذكر شيئاً عن وجبة الغداء.

ابتسم لها بيلّ: أراهن أنها تتمنّى لو أنه يعود إلى بيتها الآن.

وأنا أراهن معك أنها تتمنى ذلك. كما أراهن على أنني أنا نفسي أتمنى ذلك أيضاً.

كان يجدر بي ألا أذكر هذا الحديث أمامك.

لكنك لم ترتكبْ أيَّ خطأ في قولك.

لا بد من أن يكون هذا هو جوابكِ لي في كل حال.

هذه هي وظيفتي في الحياة.

ابتسم بيلّ: ألم تكوني لتلفتي نظري لو قلتُ قولاً خاطئاً؟

كلا.

وماذا لو أردتُ أن أفعل ذلك؟

حتى ولو.

راقب حمائم الصحراء الصغيرة الرمادية الموشحة بخطوط داكنة وهي تأتي للركون تحت الضوء الورديّ العاتم: أصحيح ما تقولينه؟

في معظمه، وليس بكامله.

وهل هذه فكرة صائبة؟

قالت له: حسناً، كائناً ما تكن هذه الفكرة، فإنني أتوقع منك التفكير فيها والحكم عليها دون مساعدة مني. وإذا كان هنالك من خلاف في الرأي بيننا حولها، فإني أعتقد بأنني قادرة على تجاوزه.

بينما قد لا أكون أنا قادراً على ذلك؟

ابتسمت له واضعة يدها فوق يده. قالت له: أقفلْ على هذا الحديث. إنَّ وجودنا هنا في هذه اللحظة معاً أمرٌ رائع بحدّ ذاته.

نعم يا حبيبتي إنه كذلك.

XII

كنت أوقظ لوريتا حال استيقاظي من النوم، وتكون هي نائمة بقربي، فتناديني باسمي كما لو أنها تتحقق من وجودي قربها. وفي بعض الأحيان تراني أذهب إلى المطبخ وأجلب لها قدحاً من شراب الجنزبيل، ونجلس هنالك في الظلام. كم كنت أتمنى لو كانت لي سلاستها مع الأشياء. فالحياة التي شهدتها لم تجعل مني رجلاً روحانياً. خلافاً لما هو حالها. وهي تقلق عليّ أيضاً. أستطيع رؤية ذلك. وأعتقد أن السبب هو أنني أكبر منها وأنني الرجل الذي ستتعلم منه، وقد تعلمت ذلك من نواح كثيرة. لكنني أعلم أين تقع المديونية.

أعتقد أني أعرف إلى أين نحن سائرون. إذ دفعت أثماناً من أموالنا الخاصة. ولا تتوقف المسألة عند مسألة المخدرات فحسب. وهنالك ثروات مكدّسة لا يعلم أحدٌ عنها شيئاً. ما الذي تعتقد أنه سيأتينا من تلك الثروات؟ ثروات تستطيع حتى أن تشتري بلداناً بكاملها. ولقد فعلَت ذلك. أتراها قادرة على شراء هذا البلد؟ لا أظن ذلك. لكن هذه الأموال كفيلة بوضعك في الفراش مع أناس يجدر بك ألا تكون معهم. والمسألة هي ليست حتى مسألة تطبيق قانون، فإني أشكّ أن المشكلة قد كانت يوماً كذلك. وقد كان ثمة مشكلة مخدرات على الدوام. لكن الناس لا ينهضون ويقررون تخدير أنفسهم هكذا فجأة ودون أيّ سبب. ومع وجود الملايين، فإنني لا أملك جواباً عن السبب. كما أنني على وجه الخصوص لا أملك جواباً عن كيفية إزاحة عبء هذا السؤال عن قلبي. كنت قد التقيت صحافية منذ زمنٍ ليس ببعيدٍ، وهي صحافية شابة بدت لي لطيفة بما فيه الكفاية وقالت لي إنها تحاول أن تكون صحافية. قالت: أيها العمدة كيف يمكن لك أن تترك الجريمة تفلت هكذا من الأيدي في مقاطعتك؟ بدا لي سؤالها يومذاك عادلاً ومنطقياً، وقد يكون سؤالها بالفعل عادلاً ومنطقياً. وفي كل حال

فإنني قلت جواباً عن سؤالها: لقد بدأ الأمر كله عندما بدأنا نتغاضى عن انحطاط الأخلاق في التعامل. ففي أيّ زمنٍ تتوقفين فيه عن سماع كلمة: "سيدي"، وكلمة "سيدتي" (Sir and Mam) فإن النهاية تصبح بادية للعيان إلى حدٍّ كبير. وتابعت قولي لها: إن التلف يصل إلى كل الطبقات الاجتماعية. وقد تناهى بعض الأمر إلى أسماعِكِ، أليس كذلك؟ وعندما يصل الانهيار إلى أيّ طبقة اجتماعية. فإنك تصلين في نهاية الأمر إلى انهيار عمومي في القيم التجارية من شأنه أن يجعل الناس منتشرين في عراء الصحراء موتى في عرباتهم، وعند ذلك يكون الوقت قد تأخر كثيراً.

لقد ألقت الفتاة يومها نحوي نوعاً من الالتفاتة الهازلة. لهذا، فإن الشيء الأخير الذي قلته لها، وربما لم يكن علي أن أقوله، هو أنه لا يمكن أن تكون لكِ تجارة حشيش رائجة دون وجود زبائن حشاشين. إن الكثير من هؤلاء الزبائن هم ممن يلبسون فاخر الثياب، ويحتلون وظائف سخية الراتب، وقد تكونين أنت بنفسك على معرفة ببعض هؤلاء.

أما الأمر الثاني، فهم الأناس المتقدمون في العمر، وإني لا أنفكُّ عن العودة لزيارتهم. عندما ينظرون إليّ أرى في نظراتهم سؤالاً دائماً. منذ سنوات مضت لم أكن لأتذكر ذلك. لم أكن أتذكره عندما كنت عمدة في الخمسينيات. لقد كنت تنظر إلى هؤلاء الكبار فلا تجد حتى حيرة في نظراتهم أو ضياعاً. فإن بدا عليهم شيء من علامات الشيخوخة فهو الخرف فقط. وإن هذا الأمر يقلقني الآن. فكبارنا في هذه الأيام يبدون كالذي صحا من نومه ذاهلاً عن سبب وجوده في المكان الذي يجد نفسه فيه. وهم في وجه من المعاني لا يفقهون ذلك.

لقد أخبرتني لوريتّا على مائدة العشاء هذه الليلة أنها تقرأ في إنجيل القديس يوحنا. إذ إن من دأبها كلما وجدتني أسرد لها رأياً في مسار الأمور، أن تأتيني بشاهدٍ من الإنجيل. لهذا فإنني سألتها عما إذا كان الإنجيل يذكر شيئاً عن المسار الذي باتت تسير فيه أمورنا. فقالت إنها ستفتش عن ذلك وتفيدني. ثم سألتها عمّا إذا كان هنالك في الإنجيل شيء حول فروات الرؤوس الخضراء، أو حول العظام المغروسة في الأنوف، فقالت لي إن كلمة واحدة في الإنجيل لا تأتي على ذكر ذلك. إنني لا أعلم ما إذا كانت هذه الظواهر هي إشارات جيدة أم لا. ثم إنها ما لبثت أن استدارت حول المائدة حتى صارت خلف كرسيي

وطوقت عنقي بذراعها وعضتني في أذني. فهي امرأة طفلة في كثير من المعاني. ولو لم تكن قربي لما علمتُ ما كان يمكن أن يتبقى لي. بل إني أعرف ما يتبقى وهو شيء لا تحتاج إلى وضعه في علبة أيضاً.

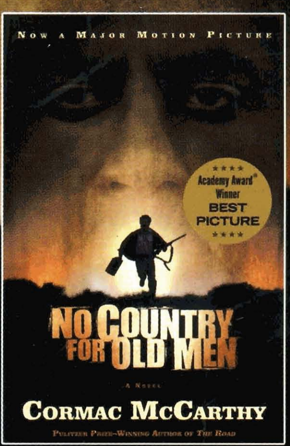
كان يوماً بارداً وعاصفاً ذلك اليوم الذي مشى فيه لآخر مرة خارجاً من مبنى السرايا. بعض الرجال يستطيعون إحاطة امرأة باكية بذراعي الواحد منهم لكن هذا السلوك لم يبدُ مرة سلوكاً طبيعياً بالنسبة إليه. نزل على الدرج وخرج من الباب الخلفي، وركب شاحنته وجلس فيها. لم يكن يستطيع تسمية شعوره. كان شعوراً حزيناً إلا أنه لم يكن يقتصر على الحزن فحسب، بل على شيء آخر. وهذا الشيء الآخر كان هو السبب الذي جعله يمكث في سيارته دون الانطلاق بها. كان قد ساوره مثل هذا الشعور مرة من قبل، لكن ذلك كان منذ مدة طويلة. وعند ذكر ذلك أمام نفسه فإنه عرف ما هو ذلك الشعور. كان شعور الهزيمة والانكسار. شعوراً أشدّ مرارة من الموت. قال لنفسه: إن عليك التغلب على هذا الأمر. ثم أدار محرك سيارته وانصرف.

XIII

كان هنالك حوض ماءٍ حجريٌّ بين الأعشاب، وراء الباب الخلفي للبيت. وكان ثمة أنبوب معدني مغلفن يمتدُّ من السطح إلى الحوض. وهكذا يبقى الحوض مليئاً إلى حدٍّ كبير بالماء، وإني لأتذكر أنني قد وقفتُ هناك يوماً وجلستُ القرفصاء قرب الحوض أنظر إليه. وهكذا وجدتني أبدأ التفكير فيه. لستُ أدري منذ متى كان ذلك الحوض موجوداً هناك. هل منذ مئة سنة أم مئتين. لا زلتَ تستطيع رؤية آثار الإزميل على الصخر. لقد تمّ حفر هذا الحوض في قلب الصخر الصلد، بطول ستة أقدام، وعرض قدم ونصف تقريباً، ومثل ذلك عمقاً. حوضٌ قد تمّ حفرهُ في باطن الصخر فحسب. لم أستطع اجتناب التفكير في ذلك الرجل الذي فعل ذلك. فهذه البلاد لم تشهد فترة سلام طويلة حسب علمي. ولقد قرأت القليل من التاريخ عنها لأنني لم أعرف لها تاريخاً. لكن هذا الرجل قد جلس مع مطرقته وإزميله وقام بحفر حوض الماء الحجريّ هذا كي يبقى هناك لعشرة آلاف سنة. لمَ كان ذلك؟ وما هو طبع ذلك الإيمان الذي كان يؤمن به؟ إنه لم يكن إيماناً بأن شيئاً ما لن يتغير كما قد يتبادر إلى ذهنك، حسبما أفترض. إذ لا بد له من أن يكون أدرى من ذلك. وقد فكرتُ طويلاً حول هذا الأمر. فكرتُ به بعد أن غادرتُ ذلك المكان وقد انفجر البيت إلى أشلاء. وإنني أذهب إلى القول إن حوض الماء الحجري ما زال قائماً هناك. لأن إزاحة ذلك الحوض ليست بالأمر السهل، أستطيع قول ذلك لكم بثقة. وهكذا، فإنني أفكر في ذلك الرجل وهو يجلس مع مطرقته وإزميله، ربما ساعة أو ساعتين بعد العشاء، لست أدري. والذي أريد قوله هو أن الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أتصوره هو أن هنالك نوعاً من العهد والتصميم في قلب ذلك الرجل. إنه ليس في نيتي احتقار حوض ماء حجريّ. لكنني أودُّ لو أكون قادراً على صنع مثل هذا النوع من العهد والتصميم. هذا هو مبلغ وأقصى مُنْيتي حسبما أعتقد.

أمرٌ آخر، هو أنني لم أذكر سوى القليل عن أبي، وإني أعرف أن عليَّ أن أكون منصفاً بحقه. إنني الآن قد بلغت عمراً يتجاوز العُمر الذي بلغه هو بمقدار عشرين سنة، وعليه، فإنني بمعنى من المعاني، أكون أتكلم عن رجلٍ كان أصغر مني سناً. لقد سار على الدروب مُتاجراً بالخيول منذ أن تجاوز حدّ الصِّبا بقليل. وقد أخبرني أنه خرج من تجربته الأولى أو الثانية مقشّراً جداً لكنه بعد ذلك قد تعلّم. قال لي إن ثمة تاجراً قد لفَّ ذراعه مرَّة حول كتفيه، ونظر إليه نزولاً، وقال له: يا بني سوف أتّجر معك كما لو أنك لا تمتلك حصاناً واحداً. انتبه جيداً إلى أن بعض الناس سيقولون لك في الواقع ما ينوون عمله من أجلك، وعندما يفعلون ذلك ينبغي لك أن تصغي. وقد علِق هذا الكلام في ذهني جيداً. لقد عرف والدي ما تجب معرفته عن الخيول، وكان حاذقاً في التعامل معها. رأيته يقوم بترويض عددٍ منها وكان يعرف ما يفعله بها. كان سلساً جداً في اعتلائه الحصان. كما أنه درج على التحدث مع حصانه بكثرة. وهو لم يقم بتدريبي على شيء مرة لكنني مدين له بأكثر مما أستطيع أن أفكر. من المنظور الذي قد تتخذه الدنيا فإنني أفترض أنني قد تجاوزته شأناً. رغم ما قد يبدو عليه هذا التصريح من بشاعة، وما قد يكون عليه حقاً من بشاعة، ومن صعوبةٍ للعيش مع هذه الحقيقة. هذا إذا تركنا والده جانباً. فهو لم يكن أبداً رجل تطبيق للقانون. لقد أمضى سنتين في الكلية حسب اعتقادي لكنه لم يكمل دراسته الجامعية أبداً. وقد فكرتُ بشأنه أقلّ بكثير مما ينبغي عليّ أن أفكر، وأعلم أن ذلك ليس بالأمر العادل أيضاً. زارني في الحلم مرتين بعد وفاته. ولا أتذكر تفاصيل الحلم الأول كثيراً، لكنها كانت تدور حول مقابلتي إياه في البلدة في مكان ما، وعن أنه قد أعطاني بعض النقود التي أعتقد أنني فقدتها. لكن الحلم الثاني كان كما لو أن أحداثه تدور في زمنٍ أعتق قدماً حيث كنت أركب حصاناً يسير بي بين الجبال في الليل، وكنت أعبر ممراً بين الجبال. وكان الطقس بارداً والثلوج تغطي الأرض، وقد مرّ هو راكباً بالقرب مني وتابع طريقه. لم يقل لي شيئاً، بل تابع ركوبه وهو يضع حراماً يلفّه فوق كتفيه، حانياً رأسه قليلاً. وعندما مرّ بي فإني رأيت أنه كان يحمل شعلة نارٍ في قرنٍ على الطريقة التي اعتادها الناس. كنت أستطيع أن أتبيّن القرن من الضوء الذي هو بداخله. وهو ضوء يشبه ضوء القمر. وحسب مجريات الحلم كنت أعلم أنه ماضٍ قُدُماً وأنه ينوي القيام بإشعال نارٍ في مكانٍ ما هناك في العتمة والبرد، كما عرفتُ أنني سأجده هناك عندما أبلغ ذلك المكان. ثم ما لبثت بعد ذلك أن استيقظت.





الكبار لا وطن لهم

يعمد كورماك إلى تفكيك الرواية الأمريكية للجريمة وإلى توسيع اهتماماته بها لتشمل مواضيع قديمة، تعود بقدمها إلى زمن التوراة، وحديثة تضارع في حداثتها عناوين الصحف اليومية.

كورماك مكارثي

يعد كورماك مكارثي من أهم الكتّاب الأمريكيين البارزين. حاز على اثنتين من أهم الجوائز الوطنية الأمريكية للكتاب، كما أن روايته الأخيرة، «الطريق»، قد حازت على جائزة بوليتزر.



